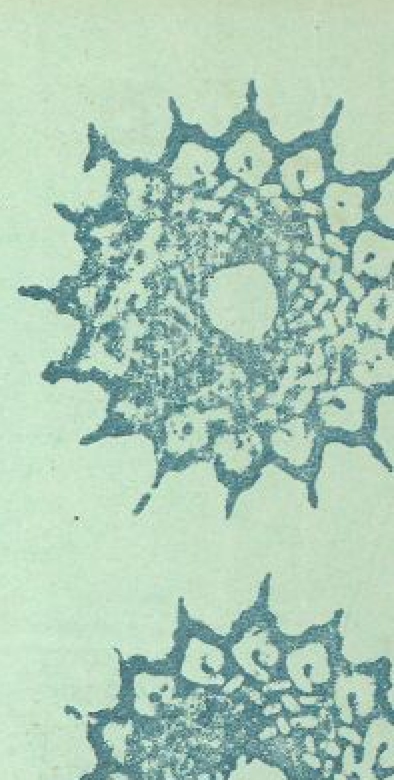
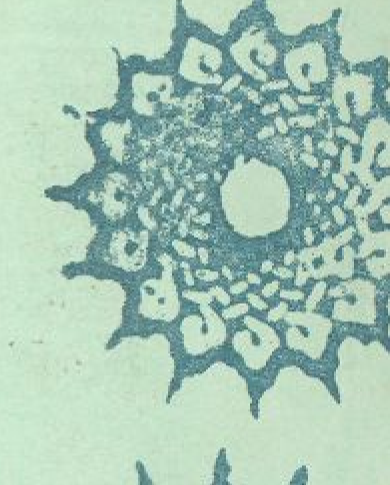
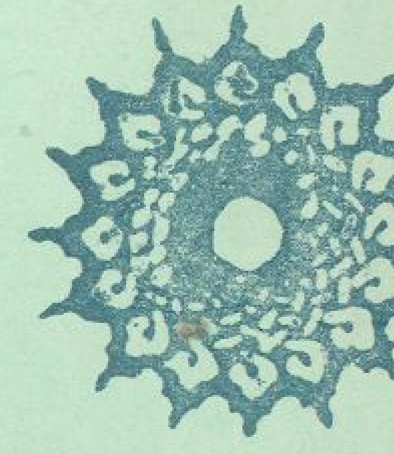
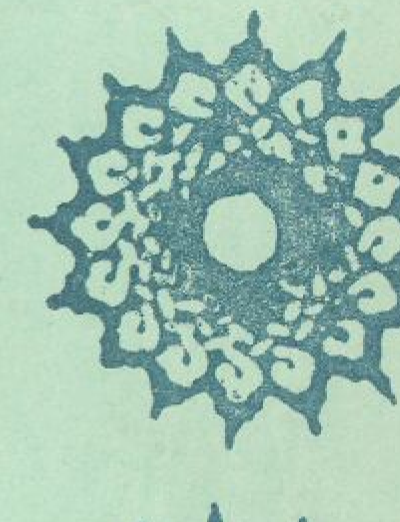
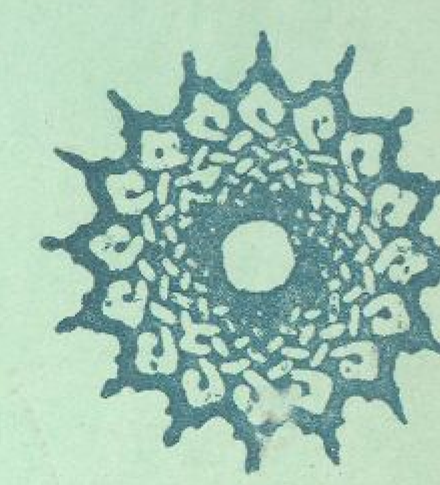
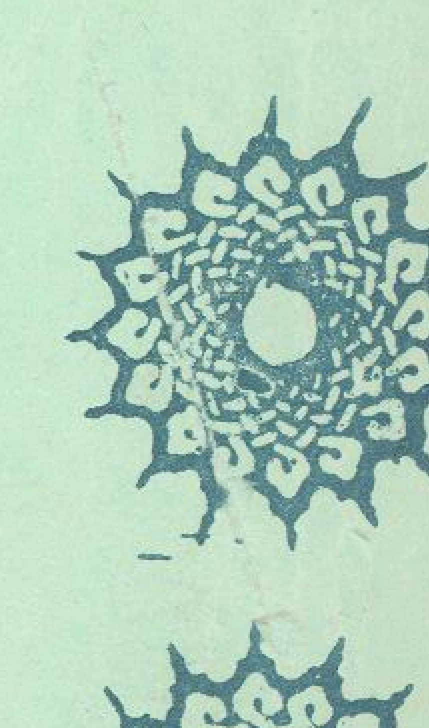
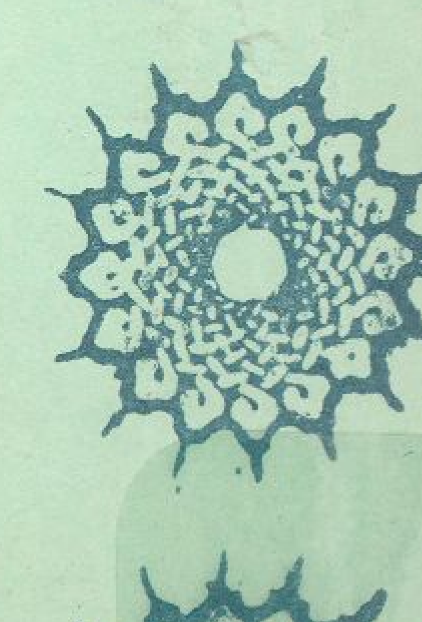
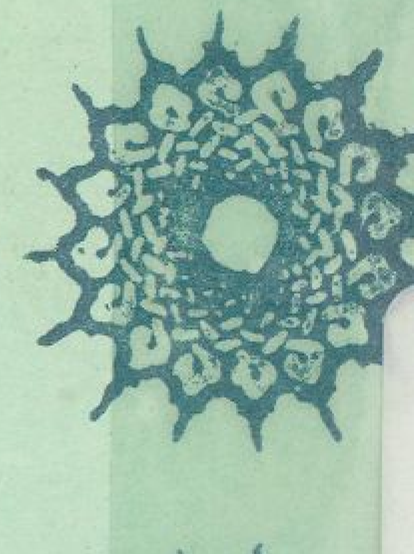











أ. د. مصطفى عمران

الأستاذ / بجامعتى الأزهر والكويت

تحرير المقالات
فى
العقائد والنحل والديانات

تمهيد ودراسة

الجزء الأول

فى

التمهيد ، وأشهر الديانات غير الكتابية

دار الطباعة المحمدية ٣ درب الأتراك بالأزهر

أ. د. مصطفى عمران
الأستاذ / بجامعتي الأزهر والكويت

تحرير المقالات في العقائد والنحل والديانات

تمهيد ودراسة

الجزء الأول

في

التمهيد ، وأشهر الديانات غير الكتابية

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد رسول الله وخاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه والتابعين المتمسكين بالكتاب والسنة ، المجانبين للبدعة والفرقة .

وبعد :

فما يجدر بالمؤمن الرشيد ، وينبغى لكل حصيف لبيب ، أن يلم جهد طاقته بالأديان والمذاهب فى افتراقها ، وأن ينفق جل وقته فى التعرف على تلك الملل والنحل ومقالاتها ، وتقصى أنبائها وحقائقها ، وتتبعها فى نشأتها ومبادئها وأصولها ، ثم فى نموها وتطورها وتشعبها ، ويخوض غمار ذلك خوض الشجاع الجسور لا خوض الجبان الحذور .

وأن يصرف كبير همه أيضاً للوقوف على أرباب تلك الآراء والتوجهات ، مبتغياً الكشف عن أهدافهم ومقاصدهم ، واستكناه نواياهم وخبيئة نفوسهم ، سواء أكانوا :

١ — من أهل ملة الإسلام المنتسبين إليه المستظلين بعقائده وتعاليمه فى صورتها الأصلية النقية ، أو المدخولة المشبوهة .

٢ — أم من غيرهم ممن له :

(أ) كتاب منزل محقق مثل اليهود والنصارى .

(ب) أو شبهة كتاب مثل المجوس والزردشتية والمانوية .

(ج) أو له حدود وأحكام عقلية دون كتاب وأحكام شرعية، مثل الصابئة الأولى(١).

(د) أو ليس له كتاب ولا حدود شرعية ولا أحكام عقلية مثل: الفلاسفة الأولى(٢)، والدهرية، وعبدة الكواكب والأوثان، والبراهمة.

ذلك أن هذا النوع من الدراسة الواعية المتأنية، فى إطار من حسن الموازنة والمقارنة الدقيقة المستنيرة بالعقل والشرع، والملتزمة بالصدق والنزاهة، وتغى إصابه الحق، وتجنب الخطل لهو الأمر الذى يهدى بإذنه تعالى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ويجنى من ورائه الدارس الحصيف أنضج الثمار وحرها، وينال به أشرف المراتب وأنفسها حيث:

١ — تنحل عنه ربقة التقليد، ويحصل من العلوم الحقة والحكمة العالية ما يعينه على استخلاص الدين الصحيح والحنيفية السمحة من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً، ويرقى به إلى ذروة من الإيمان الحق القائم على الدراسة والبحث، المؤسس على الحجة والبرهان ماينظمه فى سلك العلماء العاملين من عباد الله المكرمين، وملائكته المقربين، وتلك منزلة

---

(١) يقول صاحبا الإمام أبى حنيفة (أبو يوسف ومحمد) إن الصابئة صنفان: صنف يقرؤن الزبور، ويعبدون الملائكة عليهم السلام (وأراهم الصابئة الأولى ويجعلهم البعض ممن لهم شبهة كتاب) وصنف لا يقرؤن كتابا ويعبدون النجوم.

(٢) ويسمون أيضا بالفلاسفة الإلهيين، ومن مقولتهم أن الشرائع وأصحابها أمور مصلحية والحدود والأحكام والحلال والحرام أمور وضعية وهم غير الفلاسفة المسلمين ممن أخذوا علومهم من مشكاة النبوة (انظر الملل والنحل ٢/١٥٧ هامش الفصل.

رفيعة ودرجة نفيسة « ما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم »[1].

حتى أثنى عليها المولى فى محكم قرآنه المجيد فقال: « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »[2] وقال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »[3] وقال عز من قائل : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب »[4].

(ب) ومن ثم يتمكن من الدعوة إلى الدين الحق والملة الصحيحة ، ومن تخليص الضالين وانتشالهم من براثن التقليد ، وإنارة بصائر الحائرين، والإبانة لهم عن سبل النجاة فى العاجل والآجل .

ولا شك أن ذلك من المراتب الشريفة ، والمنازل الرفيعة ، التى يتبوأ مكان الإمامة منها الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يقول الحق تبارك وتعالى :«قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى»[5] .

(ج) كذلك من الضرورى الذى لا محيد عنه لمن أراد الاستنارة فى دراسته لقضايا العقيدة وعلم الكلام ومسائله أن يبذل الجهد فى الوقوف على الملامح الأصيلة ، والسمات المميزة لتلك النحل المتخالفة ، والمقالات المتباينة حول العقائد الدينية ؛ حيث كان الفقيه بهذا النوع من الدراسة أبصر بوجوه الخلاف ، وأقدر على رد الفروع لأصولها ، وأمكن فى عزو الآراء لأصحابها .

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٥

(٢) سورة المجادلة من الآية ١١

(٣) سورة فاطر من الآية ٢٨

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦٩

(٥) سورة يوسف من الآية ١٠٨

ومن أجل ذلك عنى بتلك الدراسه طائفة صالحة من أئمتنا رضى الله تعالى عنهم فى مقدمتهم :

١ — شيخ الأشاعرة الإمام أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى المتوفى عام أربعة وعشرين ، أو ثلاثين ، أو نيف وثلاثين وثلاثمائة من من الهجرة فى كتابه القيم (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين) حتى ليصفه ابن تيمية رحمه الله بأنه أورع من كتب فى المقـــالات وأثبتهم وأوثقهم(١) .

٢ — الإمام الفقيه المحدث أبو الحسن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى الشافعى المتوفى عام سبعة وسبعين وثلاثمائة من الهجرة فى كتابه : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع .

٣ — الإمام الأستاذ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادى المتوفى عام تسعة وعشرين وأربعمائة من الهجرة فى كتابه : الفرق بين الفرق .

٤ — الإمام أبو محمد على بن أحمد بن حزم الظاهرى المتوفى عام ستة وخمسين وأربعمائة من الهجرة فى كتابه : الفصل فى الملل والأهواء والنحل .

٦ — الإمام أبو المظفر شاهفور(٢) بن طاهر بن محمد الإسفرائينى .

---

(١) انظر منهاج السنة المحمدية فى نقض كلام الشيعة والقدرية ومقدمة فضيلة المرحوم الشيخ محي الدين عبد الحميد على تحقيقه كتاب : مقالات الإسلاميين حـ ١ ص ٣ ط أولى .

(٢) شاهفور : معرب (شاهبور) وهو فى الأصل بمعنى : (نجل الملك) فى لغة فارس (شاه : ملك ، فور : نجل) سمى به أبو المظفر ؛ وكذلك فورك : بمعنى نجيل فإن الكاف للتصغير فى لغة فارس .

المتوفى عام واحد وسبعين وأربعمائة من الهجرة ، فى كتابه : التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية من الفرق الهالكين .

٥ — الإمام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى المتوفى عام ثمانية وأربعين وخمسمائة من الهجرة فى كتابه المشهور : الملل والنحل .

٦ — الإمام العلامة فخر الدين محمد بن عمر الرازى المتوفى عام ستة وستمائة من الهجرة فى كتابه : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين .

٧ — أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الدمشقى الحنبلى المعروف بابن تيمية المتوفى عام ثمانية وعشرين وسبعمائة من الهجرة فى كتابه : منهاج السنة المحمدية فى نقض كلام الشيعة والقدرية .

كما تناول هذا اللون من الدراسة فى عصرنا هذا لفيف من العلماء والباحثين ممن عنوا بالحياة العقلية عامة وفى الإسلام خاصة نذكر منهم :

١ — العلامة الفاضل الأستاذ أحمد أمين فى كتبه : فجر الإسلام ، وضحى الإسلام — الجزء الثالث ، وظهر الإسلام — الجزء الرابع .

٢ — الأستاذ الدكتور على سامى النشار فى كتابه : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام .

٣ — فضيلة الشيخ أبو زهرة فى كتابه تاريخ المذاهب الإسلامية — الجزء الأول .

هذا والله نسأل أن يحتفل رواد العلم ، وطلاب الحق والمعرفة بهذا النوع من الدراسة وأن يبذلوا من الجهد والوقت فى مصابرة وإخلاص ما يمنحهم معه تبارك وتعالى منّ هدايته وتوفيقه ما يرشدهم إلى الدين الصحيح ، وينير بصائرهم بالاعتقاد الصريح ، ويثبت قلوبهم بالقول الثابت فى الحياة

الدنيا وفي الآخرة، ويجعل منهم حماة للإسلام فى صدق ، ودعاة إلى الله تعالى على بينة وبصيرة .

هذا ، وقد جعلت تلك المقالات فى جزئين : أسست الأول منهما على تمهيد ومقالة .

أما التمهيد فتناولت فيه المسائل الآتية :

المسألة الأولى : فى افتراق الناس فى الآراء والمذاهب وسببه .

المسألة الثانية : فى توضيح عبارات وردت فى التنزيل ، ويكثر دورانها على الألسنة فى مباحث الملل والنحل والديانات ، تأسيا بصنيع الإمام الشهرستانى فى المقدمة الخامسة من مقدماته التى صـدر بها كتابه القيم : الملل والنحل .

المسألة الثالثة : فى حديث موجز عن الدين من حيث :

(أ) ضرورته للفرد والجماعة .

(ب) ظاهرة الدين والتدين بين الأصالة والحداثة .

(ج) أسباب الانحراف عن التوحيد ومنشأ عبادة الأوثان .

المسألة الرابعة : فى تقسيم أهل العالم وطوائفه من حيث المعتقدات والمذاهب فى الإله والكون .

المسألة الخامسة : فى مدى انحصار فرق أهـل الديانات وأصحاب الأهواء .

المسألة السادسة : فى الأحاديث الواردة فى افتراق الأمة وكلام العلماء حولها .

المسألة السابعة فى :

(أ) تعيين المخطىء ، والمصيب .

(ب) والناجية والهلكى من المختلفين فى الأصول .

المسألة الثامنة : فى القواعد والأصول التى استند إليها الشهرستانى فى ضبط وحصر الفرق الإسلامية .

المسألة التاسعة : فى المعنى الجامع للفرق الإسلاميه المختلفة فى اسم ملة الإسلام .

المسألة العاشرة : فى مناهج البحث فى مقارنة الأديان ومناقشتها والتطبيق عليها .

أما المقالة : ففى أشهر الديانات غير الكتابية[1] وتناولت فيها بإيجاز ، الديانات الآتية :

١ — ديانة مصر القديمة .

٢ — المجوسية .

٣ — الزردشتيه ،

٤ — المانوية .

٥ — المزدكية ، وما إلى ذلك من الديصانية والمرقيونية وما يجرى مجراها .

كما تناولت أيضاً : الهندوسية ، والبوذية .

---

(١) الديانات الكتابية المعروفة : اليهودية ، المسيحية ، الإسلام ، وغير الكتابية تشمل من له شبهة كتاب كالمجوسية والزردشتية ومن ليس له شبهة كتاب كالمزدكية والبوذية .

وأما الجزء الثانى فأقمته على مقالتين :

الأولى : فى الفرق الإسلامية السياسية : الشيعة ، بتوسع ما ، ثم الخوارج ، والمرجئة .

الثانية : فى الفرق الإسلامية الدينية من : القدرية والجهمية والمعتزلة وأهل السنة .

والله من وراء القصد وعليه التكلان ؟

الجزء الأول

أولا : التمهيد بمسائله العشر.

المسألة الأولى

فى أفتراق الناس فى الآراء والمذاهب وسببه

(ا) أسبابه العامة بين الناس جميعاً .

(ب) أسبابه الخاصه بين المسلمين وحدهم .

(ح) استبداد بالرأى فى مقابلة النص أخطر أسباب الإفتراق .

لابدع أن تختلف الآراء ، وتفترق مذاهب العلماء ، وتتعدد أساليب البحث وتتنوع مناهج التفكير قديماً وحديثاً ، وينقسم الناس فى دينهم ودنياهم وأنماط حياتهم شيعاً وأحزاباً كل بما لديهم فرحون ، فذلك أمر حاضرة أسبابه ، ماثلة بوَاعثه وعلاته وإشاراته قائمة شواهده ودلالاته ،

ومن أسباب الإختلاف العامة :

١ — ما هو ذاتى ، موصول مباشرة بالإنسان نفسه من حيث : الأمزجة والطباع ، أو من ناحية المدارك والعقول ، التى هى فى الأغلب صدى للأمزجة والطباع أو نتاج لها وتعبير عنها .

فمهما اختلفت الأمزجة وتنوعت، وتفاوتت الأبدان وأجهزتها وإفراز غددها وتباعدت ، اختلفت لاجرم الميول والأذواق والرغائب ، وبالتالى افترقت الآراء وتعددت طرائق النظر .

يقول الفيلسوف « اسبينوزا » : « إن الرغبة هى التى ترينا الأشياء مليحة لا بصيرتنا » .

ويقول وليم جيمس : إن تاريخ الفلسفة هو تاريخ التصادم بين الأمزجة البشرية ، وهذا الإختلاف بين الأمزجة له أيضا شأنه فى ميدان الأدب والفن والحكومة .

ومهما تفاوتت المدارك والعقول إلمسنا دون ماشك اختلاف الآراء وتعدد المذاهب والأفكار .

« وإنك لتجد كثيراً من الناس — كما جاء فى (رسائل إخوان الصفا) يكون جيد التخيل ، دقيق التمييز سريع التصور ذكوراً ، ومنهم من يكون بطيء الذهن أعمى القلب ساهى النفس ، فهذا أيضاً بعض أسباب اختلاف العلماء فى الآراء والمذاهب ، لأنه إذا اختلفت إدراكاتهم اختلفت آراؤهم واعتقاداتهم بحسب ذلك » .

كما أن اختلاف المدارك قد يخفى معه معرفة وجهة النظر الأخرى مما يوقع فى الخلاف ولذلك قيـــل : إذا عرف موضع النزاع بطل كل نزاع .

ومما ينتظم بالأولى فى سلك الأسباب الذاتية للاختلاف والافتراق ، ويندرج تحت طبع الإنسان وتكوينه وفطرته ، ما جبل عليه الإنسان — إلا من عصم الله فهذب نفسه وفطمها عن غيها — من التعصب للجنس والعرق ، والعشيرة والأهل ، أو الأرض والإقليم والوطن ، والتعصب لبعض الآراء والمذاهب الموروثة أو التى ينشأ عليها ويعيش فى ظلها ، فيعميه تعصبه ويصمه عن النظر المستقيم ، والبحث الصريح ، والنقد الصحيح ، مما يسوق بالآخرة إلى الإختلاف وتشتت الآراء .

٢ — ومن أسباب الإختلاف ما هو موضوعى وأعنى به ما يكون مصدره غموض البحث وأنغلاقه ووعورة مسالكه مما يؤدى إلى تضارب الآراء من حوله واختلاف مذاهب الباحثين فيه .

وقد يكون الصواب — كما يقول العلماء — فى مجموعها وليس فى آحادها .

وقديماً قال أفلاطون : « إن الحق لم يصبه الناس فى كل وجوهه ولا أخطئوه فى كل وجوهه، بل أصاب كل إنسان جهة ، ومثال ذلك عميان انطلقوا إلى فيل وأخذ كل منهم جارحة منه ، فجسها بيده ومثلها فى نفسه ، فأخبر الذى مس الرجل أن خلقة الفيل طويلة مستديرة شبيهة بأصل الشجرة وأخبر الذى مس الظهر أن خلقته تشبه الهضبة العالية والرابية المرتفعة وأخبر الذى مس أذنه أنه منبسط دقيق يطويه وينشره ، فكل واحد منهم قد أدى بعض ما أدرك وكل يكذب صاحبه، ويدعى عليه الخطأ والجهل فيما يصفه من خلق الفيل، فانظر إلى الصدق كيف جمعهم ، وانظر إلى الكذب كيف دخل عليهم حتى فرقهم » .

٣ — والسبب الثالث من أسباب اختلاف الناس فى الآراء والمعتقدات ما يكون مرده إلى اختلاف البيئة والنشأة وما يحيط بهم من أوضاع وقيم، وما يقع عليه حسهم من مشاهدات وصور ، وما يتقلبون فيه من طقس ومناخ مما يستتبع بالضرورة اختلافا فى تفكيرهم وطرائق تصورهم .

يقول المرحوم الدكتور محمد غلاب فى حديثه عن تفنيد « كزينوفان » الفيلسوف للديانة الإغريقية وسخف تصور الإغريق لآلهتهم « إن الديانة الإغريقية باطلة من أساسها ، لأن آلهتها لا يمكن أن يكونوا كما صورتهم الأساطير من الناحية المادية ولا من الناحية الأدبية ، فأما منشأ سخف التصوير المادى وبطلانه فهو أننا نلاحظ أن تماثيل آلهة الإغريق زرق العيون صفر الشعور، وتماثيل الإثيوبيين سود الوجوه فطس الأنوف جعد الشعور ، إلى غير ذلك مما يحملنا على الاعتقاد بأنه لو أتيح للأسود أن

تصنع تماثيل آلهتها لصنعتها ذات مخالب وأنياب، ولو قدر للثيران أن تفعل لرأينا تماثيل آلهتها ذات قرون طويلة وأذيال متدلية .»

وأما مأتى فساد التصوير الأدبى الذى ورد فى الشعر الإغريقى القديم للآلهة فهو أننا نشاهد أن آلهة «هومير» و «هيزيود» يتناسلون وينامون ويشتهون ويعشقون ويخونون وبالإجمال : «يقترفون أكبر الموبقات الإنسانية، وهذا كله يحملنا على اليقين بأن جميع هذه الآلهة من صنع البشر، وكما شاءت لهم أهواؤهم وبيئاتهم(١) .

ومما يتصل بتأثير البيئة والنشأة على افتراق الناس فى تفكيرهم وأنماط حياتهم أمران :

الأول : المطعم والمشرب :

ومن أجل ذلك كان تقبل تلك العبارة التى هى فى واقع الناس صحيحة إلى حد كبير ، «قل لى ماذا تأكل أقل لك من أنت » .

والأمر الثانى : اختلاف الصناعات والحرف :

وقد جاء فى «رسائل أخوان الصفا» القياسات مختلفة الأنواع، كثيرة الفنون، كل ذلك بحسب أصول الصنائع والعلوم وقوانينها ، مثال ذلك أن قياسات الفقهاء لا تشبه قياسات الأطباء ، ولا قياس المنجمين يشبه قياس النحويين ، ولا المتكلمين، ولا قياسات المتفلسفين تشبه قياسات الجدليين ،

---

(١) الفلسفة الإغريقية : ٨١/١

وهكذا: قياسات المنطقيين لاتشبه الجدليين ولا تشبه قياساتهم فى الطبيعيات، ولا الإلهيات(١) .

تلك أهم الأسباب المؤدية إلى تشعب الآراء والكامنة خلف كل خلاف .

أسباب الإفتراق بين المسلمين :

أما أسباب الافتراق بين أهل الإسلام خاصة فردها فوق ما تقدم من أسباب عامة إلى :

١ — مجاورتهم لكثير من أهل الديانات والملل .

٢ — دخول كثير من أهل تلك الديانات فى الإسلام مع يحملونه فى أعماقهم من بقايا معتقدات موروثة ليس من السهل البراءة منها طفرة واحدة .

٣ — جماعات حاقدة أندسوا بين المسلمين تحت ستار الإسلام ليغرسوا بين صفوفهم من الآراء والإتجاهات ما يفتت وحدتهم ويثير البلبلة حول عقيدتهم .

٤ — ثم ما ورد فى القرآن الكريم مما يوهم ظاهره تعارضاً بين آيات تفيد الجبر وأخرى تؤكد الإختيار ، وبين آيات تنص على التنزيه ، وأخرى ظاهرها التشبيه ، ولقد كان أنحراف التفكير لدى بعض المسلمين أو المندسين فى صفوفهم تجاه هذه النصوص من اطلاقهم العنان للعقل فيما يتصل بقضايا الألوهية ،ومحاولتهم الغوص على أسرارها رغم تجاوز طور

---

(١) الجزء الثالث من رسائل أخوان الصفا .

العقول البشرية كمسألة : القضاء والقدر، وصفات الذات الأقدس، وحقيقة الأزل والأبد ، من أقوى أسباب الخلاف والفرقة بين المسلمين .

وكان العـــدول عن منهج جمهور المسلمين من سلف الأمة المتمثل فى : إثباتهم لله تعالى ما أثبته لنفسه، ونفيهم عنه سبحانه ما نفاه عن نفسه، منزهين له عن المماثلة لقوله : « ليس كمثله شيء » مفوضين معنى ما تشابه عليهم بمـا لا يليق بذاته تعالى لقوله : « وما يعلم تأويله إلا الله » لعلمهم أن العقول قاصرة عن الإحاطة بشئونه تعالى .

كان هذا العدول طريقاً إلى تشعب الآراء وانتشار السبل وظهور البدع والضلالات .

الإستبداد بالرأى فى مقابلة النص أخطر أسباب الإفتراق:

ولقد كان هذا المسلك من الاستبداد بالرأى فى مقابلة النص ، واتباع الهوى فى إقحام العقل فيما لا مجال له فيه والاستكبار بمـا قد يبدو للناظر أنه فضل وخير دون التزام الطاعة والخضوع لواهب النعم وصاحب الفضل أول ماعصى به الله تعالى، ومصدر ما وقع فى الخليقة من شبهات وضلالات والسبب فيما حاق بإبليس وأتباعه الغاوين من طرد ولعنات .

يقول الإمام الشهرستانى : « اعلم أن أول شبهة وقعت فى الخليقة شبهة إبليس لعنه الله ومصدرها: استبداده بالرأى فى مقابلة النص، ويذكر أنه قد أنشعبت من هذه الشبهة سبع شبهات ثم يقول : « وتلك الشبهات مسطورة فى شرح الأناجيل الأربعة : إنجيل لوقا ، ومرقص ، ويوحنا ، ومتى، ومذكورة فى التوراة متفرقة على شكل مناظرات بينه وبين الملائكة بعد الأمر بالسجود والامتناع منه .

قال – كما نقل عنه – إنى سلمت أن البارى تعالى إلهى وإله الخلق وعالم قادر، ولا يسأل عن قدرته ومشيئته، وأنه مهما أراد شيئاً.

قال له: كن، فيكون، وهو حكيم إلا أنه يتوجه على مساق حكمته أسئلة.

قالت الملائكة: ما هى؟ وكم هى؟

قال لعنه الله سبع.

الأول منها: أنه قد علم قبل خلق أى شىء يصدر عنى ويحصل منى، فلم خلقنى أولا؟ وما الحكمة فى خلقه أياى؟

والثانى: إذ خلقنى على مقتضى إرادته ومشيئته فلم كلفنى بمعرفته وطاعته؟ وما الحكمة فى هذا التكليف بعد أن لا ينتفع بطاعة ولا يتضرر بمعصية؟

والثالث: إذ خلقنى وكلفنى فالتزمت تكليفه بالمعرفة والطاعة فعرفت وأطعت فلم كلفنى بطاعة آدم والسجود له؟ وما الحكمة فى هذا التكليف على الخصوص بعد أن لا يزيد ذلك فى معرفتى وطاعتى إياه؟

والرابع: إذ خلقنى، وكلفنى على الإطلاق، وكلفنى بهذا التكليف على الخصوص، فإذا لم أسجد لآدم، فلم لعننى وأخرجنى من الجنة؟ وما الحكمة فى ذلك بعد أن لم أرتكب قبيحاً إلا قولى: لا أسجد إلا لك؟!!

والخامس: إذ خلقنى، وكلفنى مطلقا، وخصوصا، فلم أطع فلعننى وطردنى فلم طرقنى إلى آدم حتى دخلت الجنة ثانية وغررته بوسوستى فأكل من الشجرة المنهى عنها، وأخرجه من الجنة معى؟ وما الحكمة فى

ذلك بعد أن لو منعنى من دخول الجنة لاستراح منى آدم ، وبقى خالداً فيها ؟!!

والسادس : إذ خلقنى ، وكلفنى عموما ، وخصوصاً ، ولعننى ، ثم طرقنى إلى الجنة وكانت الخصومة بينى وبين آدم ، فلم سلطنى على أولاده حتى أراهم من حيث لا يرونى ، وتؤثر فيهم وسوستى ولا يؤثر فى حولهم وقوتهم وقدرتهم واستطاعتهم ؟ وما الحكمة فى ذلك بعد أن لو خلقهم على الفطرة دون من يجتالهم عنها فيعيشوا طاهرين سامعين مطيعين . كان أحرى بهم ، وأليق بالحكمة ؟

والسابع : سلمت هذا كله : خلقنى ، وكلفنى مطلقا ومقيداً ، وإذا لم أطع لعننى وطردنى وإذا أردت دخول الجنة مكننى وطرقنى ، وإذا عملت عملى أخرجنى ثم سلطنى على بنى آدم ، فلم إذا استمهلته أمهلنى فقلت : « انظرنى إلى يوم يبعثون . قال : إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » وما الحكمة فى ذلك بعد أن لو أهلكنى فى الحال استراح آدم والخلق منى وما بقى شر مافى العالم ؟ أليس بقاء العالم على نظام الخير خيرا من امتزاجه بالشر ؟ قال : فهذه حجتى على ماادعيته فى كل مسألة .

قال شارح الإنجيل : فأوحى الله تعالى إلى الملائكة عليهم السلام ، قولوا له إنك فى تسليمك الأول أنى إلهك وإله الخلق غير صادق ولا مخلص ؛ إذ لو صدقت أنى إله العالمين ماحتكمت على بـ (لم) فأنا الله الذى لا إله إلا أنا . ولا أسأل عما أفعل والخلق مسئولون » .

فالاستبداد بالرأى بتحكيم العقل فى مالا يحتكم عليه بالعقل ، وهو صريح النص ، الآمر له بالسجود لآدم ، أضل صاحبه أبليس اللعين ، وأرداه فى الضلال المبين بإلزامه إحدى شناعتين : ـ

١ — إما أن يعطى حكم الخالق للمخلوق فيسبغ على المخلوق صفات

الخالق ، وهو غلو ظالم أمسى سبباً وأصلا لمذاهب الحلولية والتناسخية والغلاة من الروافض حين غالوا فى حق شخص من الأشخاص حتى وصفوه بصفات الرب عز وجل من علم الغيب والتصرف فى الكون وتدبير العالم

٢ — وإما أن يعطى حكم المخلوق للخالق ويطبق على الخالق أحكام المخلوق وهو تقصير مهلك أمسى - - بعد — سببا وأصلا لمذاهب القدرية والمعتزلة والمجسمة حيث قصروا فى وصفه تعالى حتى وصفوه سبحانه بصفات المخلوق وشبهوه به وطبقوا عليه تعالى أحكام الخلق .

فقالت المعتزلة : إنما يحسن منه تعالى مايحسن منا ، ويقبح منه مايقبح منا .

ونسبت المجسمة له تعالى : الوجه واليد والمجىء والنزول بالحالة التى عليها الحوادث .

فالمعتزلة ومن لف لفهم مشبهة الأفعال حيث جعلوا أفعاله كأفعالنا عندما زعموا أنه يحسن منه مايحسن منا ويقبح منه مايقبح منا . والمجسمة مشبهة الذات حيث نسبوا له الوجه واليد وما إلى ذلك .

والأولون من الحلولية والتناسخية حلولية الصفات ؛ وكل واحد من الغالين والمقصرين أعور بأى عينيه شاء وماأعماهم جميعا سوى الاستبداد بالرأى فى مقابلة النص واختيار الهوى فى معارضة الأمر .

يمكن إيجاز شبه إبليس وأسئلته كالآتى :

١ — لم خلقنى رغم علمه بما يصدر عنى من ضلال وإضلال .

٢ — لم كلفنى بإطلاق : أى بمعرفته أولا ، وطاعته ثانياً ، مع عدم انتفاعه بذلك .

. . . .

٣ — لم كلفنى على الخصوص : أى بالسجود لآدم مع أن ذلك لايزيد فى معرفته وطاعته .

٤ — لم لعننى فطردنى من الجنة إذ لم أسجد مع أنى لم ارتكب قبيحا إلا قولى : لاأسجد إلا لك .

٥ — لم مكننى من الجنة ثانياً حتى غررت آدم ووسوست له ، ولو منعنى لاستراح آدم وبقى فى الجنة .

٦ — لم سلطنى على أولاده حتى أراهم ولا يرونى وتؤثر فيهم وسوستى ولا يؤثر فى حولهم وقوتهم .

٧ — لم أمهلنى إذا استمهلته فقلت أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين .

المسألة الثانية

فى بيان :

العبارات الواردة فى التنزيل والكثير الدوران فى مباحث الملل والأديان من : الدين ، الملة ، النحلة ، الشرعة ، المنهاج ، الإسلام الحنيفية ، السنة ، الجماعة

يجدر بنا فى مستهل الحديث عن معانى تلك الكلمات والعبارات والكشف عن مدلولها أن نشير إلى أن الإمام الشهرستانى قد ألم بذلك تقريبا ولكن فى إلماعة يسيرة ، وإيجاز شديد لا يتعدى صفحة واحـــدة من المقدمة الخامسة من مقدماته التى صدر بها كتابه القيم : « الملل والنحل » حيث يقول فى مقدمته تلك :

« نتكلم هنا فى معنى : الدين ، والملة ، والشرعة ، والمنهاج ، والإسلام والحنيفية ، والسنة ، والجماعة ؛ فإنها عبارات وردت فى التنزيل ولكل واحدة منها معنى يخصها وحقيقة توافقها لغة واصطلاحا » .

ونحن — وبالله التوفيق — نوضح معانى تلك الكلمات فى بسط يلم بأصولها ، ودراسة تجلى استعمالها فى لسان العرب ، واصطلاح العلماء ، والله المستعان .

الدين :

يختلف مدلول كلمة (الدين) باختلاف الأصل الذى اشتقت منه وأخذت عنه .

١ — فإذا كان اشتقاقها من (دانه (المتعدى بنفسه بمعنى ملكه وقهره »

وحاسبه ، وجازاه ، وما إلى ذلك مما يدور على معنى : الملك (١) والتصرف والحكم والغلبة كان مدلول (الدين) على هذا : الجزاء والحساب والحكم ونحو ذلك .

وفى ذلك الإطار يقال: دان الملك الناس ، قهرهم على طاعته ودنته بفعله جازيته وحاسبته عليه ، وفى المثل كما تدين تدان ، أى كما تجازى تجازى(٢)، والكيس من دان نفسه : حاسبها وحاكمها فحكمها وفطمها وقهرها ، وفى التنزيل : « مالك يوم الدين » أى يوم الجزاء والحساب .

(ب) وإذا كان الاشتقاق والمأخذ من (دان له) المتعدى باللام بمعنى خضع له واستسلم وأذعن وما إلى ذلك كان مدلول (الدين) على هذا ، الخضوع والإستسلام .

وفى ذلك الإطار يقال : دان الناس لرب العالمين خضعوا لأومره ، واستجابوا لما يدعوهم إليه .

وبناء على هذين المعنيين السابقين يكون معنى قولنا : الدين لله .

(ا) الحكم لله ، والملك والقهر والحساب له تعالى ، فهو الحاكم سبحانه والقاهر فوق عباده ، والمالك لهم والمحاسب على أعمالهم .

---

(١) الملك بضم الميم: السلطنة بمعنى التصرف بالأمر والنهى، وأما (الملك) بكسر الميم فهو الاستيلاء على شىء خاص .

(٢) فائدة: سئل أبو العباس عن جزيته وجازيته فقال: قال الفراء لا يكون جزيته إلا فى الخير ، وجازيته فى الخير والشر . قال : وغيره يجيز جزيته فى الخير والشر وجازيته فى الشر فقط (لسان العرب) أقول وربما يستأنس لذلك بقوله تعالى : « وهل نجازى إلا الكفور » سبأ من الآية ١٧

(ب) الخضوع لله فهو عز وجل الذى يخضع الناس والخلق جميعا لجبروته، ويستسلم الكل بحق لأوامره.

٣ — وإذا كان الاشتقاق من دان بالشيء المتعدى بالباء كان معناه: الطريقة والشأن والعادة التى يلتزم بها، والمذهب الذى يستمسك به المرء.

فيقال: هذا دينى: أى مذهبى وطريقتى وعادتى، ودان بالشيء اتخذه دينا ومذهبا، ومنه قول الشاعر على لسان ناقته.

تقول وقد درأت لها وضينى أهذا دينه أبداً ودينى (١)

أى: هذا شأنه وشأنى لا فكاك عنه.

وأحرى بأن يكون المقصود هنا الدين بهذا المعنى الأخير، أعنى: ما يلتزم به المرء، ويتدين به، ويتخذه دينا ومذهبا.

وقد تكون تلك المعانى الثلاثة للدين متلازمة على وجه ما، فإن من دان بأمر ما واتخذه دينا ومذهبا له والتزم به فقد دان له وخضع، فذاك الأمر بالتالى يدينه ويحكمه ويقهره.

وأما شرعا: فالمشهور لدى المسلمين أنه (وضع إلهى سائق لذوى

---

(١) البيت للمثقب العبدى يتحدث فيه على لسان ناقته وما يلحقها من عناء وتعب بسبب مادرج عليه من الحل والترحال، ودرأت: القيت، والوضين: بطان عريض منسوج من سيور أو شعر، وقيل لا يكون إلا من جلد يطرح على ظهر البعير، وبعد هذا البيت:

أكل الدهر حل وارتحال أما تبقى على ولا تقينى

(لسان العرب).

العقول — باختيارهم إياه — إلى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل) (٢)

وهو تعريف شامل للعقائد والأعمال .

وقولهم : (إلهى) يجعله — فى المتبادر — قاصرا على الأديان السماوية المنزلة من لدن الله تعالى .

وعرفه بعض من علماء المسلمين بأنه : مجموع الأحكام التى يتدين بها ويتعبد بها (٢) وآراه تعريفا صالحا للدين الحق ولمطلق دين .

كما عرف بأنه عبارة عن الايمان والعبادة مهما كانا ، أو أنه الإيمان بقوة أو عديد من القوى تحكم الكون وعبادتها والخضوع لها .

ومفاد هذين التعريفين الأخيرين شمول مدلول الدين اصطلاحا .

(ا) لما جاءت به الرسل من الدين الحق .

(ب) ولما يضعه البشر ويفترونه من عند أنفسهم من الأديان الباطلة .

ويمكننا أن تفسر تعريف الدين القائل بأنه وضع إلهى سائق ... الخ بما يشمل الحق والباطل من الأديان . فيقال . إن تقييد الوضع ووصفه بأنه (إلهى) قد يكون على :

(ا) وجه الحقيقة بأن يكون منزلا حقا من السماء ، فهو إذن قاصر على الدين الحق خاص به وحده .

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون أو موسوعـــة اصطلاحات العلوم الإسلامية ٢/٥٠٣

(٢) حاشية العلامة المحقق الشيخ الدسوقى على شرح أم البراهين ص ١٤ ط معامرية العثمانية عام ١٣١٥ هـ

(ب) وقد يكون أعم من ذلك ومن الأدعاء والتزوير والافتراء على الله تعالى ، كتلك الأديان التي يدعى أصحابها والمروجون لها أنها من عند الله زورا وبهتانا ، ومن ثم فهو شامل للحق والباطل منها .

وقد يشهد بصحة تعريف الدين بما يشمل الحق والباطل من الأديان قوله تعالى في سورة آل عمران : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » وقوله فيما أمر به نبيه محمد ﷺ أن يقوله لكفار قريش ، من سورة (الكافرون) لكم دينكم ولى دين .

وقد جرى الاستعمال على إضافة الدين :

(ا) إلى الله تعالى ، من حيث إنه سبحانه مصدره ومنزله وشارعه .

(ب) وإلى النبي ﷺ حيث كان المنزل عليه ، ومبلغه ومبينه الأول فيقال : دين محمد ، أو دين موسى وعيسى عليهم جميعا صلوات الله تعالى وتسليماته .

(ج) وإلى الأمة ، من حيث تكليفها به وتدينها به وانقيادها له فيقال دين المسلمين ، أو دين اليهود النصارى .

المـلة :

لغة : السنة المسلوكة ، أى الطريق الممهدة ، وذلك حيث كانت مملولة أى ممهدة مطروقة بإعداد الناس لها وتمهيدهم إياها بمتابعة المشي فيها ، ومداومته ونحو ذلك مما استحدث ويستحدث في تمهيد الطرق ورصفها .

ومما يؤيد كون الملة بمعنى الطريق المسلوكة الممهدة قولهم طريق ممل أو مملولة أى : مسلوكة معلومة مسواة .

ومن هنا سمى الرماد الحـار ، والجمر الذى يدفن فيه الخبز أو اللحم لينضج (ملة) بفتح الميم ، وذلك لتأثير النار وطول بقائها فيه .

يقال : أكلنا خبز قلة ، والخبز يسمى المليل والمملوك ، وكذا اللحم .

وفى الحديث : لما افتتحنا خيبر إذا أناس من يهود مجتمعون على خبزة يملونها (بفتح الياء وضم الميم) أى يجعلونها فى (الملة) بفتح الميم ، أى الرماد الحار والجمر .

وفى الحديث أيضا : أن رجلا قال للرسول ﷺ : إن لى قرابات أصله ويقطعوننى ، وأعطيهم ويكفروننى ، فقال له الرسول ﷺ: إنما تسفهم الملّ أى الرماد الحار الذى يحمى ليدفن فيه الخبز لينضج ، أراد : إنما تجعل الملة لهم سفوفا يستفونه ، يعنى أن عطاءك إياهم حرام عليهم ونار فى بطونهم .

وقال أبو عبيدة : الملة الحفرة نفسها ، والموضع الذى يتجمع فيه الرماد والجمر للاختباز وسميت (ملة) حيث كانت مملولة أى مؤثرا فيها بالنار والجمر واستدامة ذلك فيها ، كما أثر فى الطريق بطرق المـارة له وتمهيدهم إياه بسلوكهم وكثرة معاودة ومداومة السير فيه فقيل طريق مل أى مسلوكة مسفونة مطروقة : فإن كلام العرب إذا اتفق لفظه فأكثره مشتق بعضه من بعض(١) .

و (الملة) أيضا بكسر الميم من أمل الكتاب على الكاتب املالا : ألقاه عليه وقرأه ليكتبه ، يقال : كتاب ممل أى أمل فكتب ، أو أملل بإظهار التضعيف وفكه ، وأملاه إملاء : كأمله على تحويل التضعيف ، وفى التنزيل: « وليملل الذى عليه الحق » وهو من أملل باظهار التضعيف أى فكه ، وفى

---

(١) لسان العرب

التنزيل أيضا : «وقالوا أساطير الأولين أكتبها فى تملى عليه بكرة وأصيلا»
وهذا من (أملى) بتحويل التضعيف .

قال الفراء : أمللت لغة أهل الحجاز وبنى أسد ، وأمليت لغة بنى تميم وقيس .

وفى اللغة أيضا : وأمليت له فى الأمر : أخرت ، وفى التنزيل : «إنما نملى لهم ليزدادوا إثما» ، وأمليت للبعير فى القيد : أرخيت له ووسعت .

والملة فى اصطلاح علماء الدين: الشريعة والدين وجمعها : ملل ، يقال : ملة الإسلام ، وملة اليهودية ، والنصرانية .

وفى التنزيل : «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» أى دينهم وشريعتهم ، وفى التنزيل أيضا : «وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة[1] أبيكم إبراهيم» .

وفى الحديث «لا يتوارث أهل ملتين» أى شريعتين ودينين ، وبناء على ما تقدم ، فالملة بمعنى الدين إما أن يكون مأخذها :

(أ) من أمل الطريق ، أومله : فهو مل ومملول أى مسلوك معلوم فالملة : الأمر — أى الدين والشريعة — المسنون المعلوم .

(ب) أو من أمل الشيء قاله فكتب ، وذلك حيث كان من شأن (الملة) أى الدين ، أن تمل فتكتب .

النحلة : لغة ، إما بمعنى العطية ، يقال : نحلته أنحله نحلا بالضم ، أعطيته شيئا بلاعوض ، أومطلقا ، ونحلت المرأة مهرها نحلة : بالكسر أعطيتها .

والاسم منه : النحلة ، بكسر النون ، أى العطية نفسها والشيء المعطى .
وإما بمعنى الدعوى والنسبة بالباطل ، يقال : نحله القول نسبه إليه وليس له

(١) لسان العرب : والمصباح المنير

فى الحقيقه ، ونحلته القول أنحله نحلا — بفتح النون — إذا أضفت إليه قولا لم يقله ، وانتحل فلان شعر فلان أو قوله ، إذا ادعى أنه قائله ، وتنحله ادعاه لنفسه وهو لغيره .

وشرعا : الديانة قال تعالى : «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة» قيل : أى ديانه، ويقال فلان ينتحل كذا أى يدين به .

وقد سميت الديانة الحقة نحلة — بالمعنى اللغوى الأول ، حيث كانت عطية من الله تعالى لعباده ، بل أعظم عطاياه عز وجل وبلا عوض .

والملحظ فى تسمية الديانة الباطلة نحلة — بالمعنى اللغوى الثانى — كونها منحولة إلى الله تعالى أى مضافة منسوبة إليه سبحانه زورا وبهتانا وافتراء عليه :

الشرعة : والشريعة أيضا فى كلام العرب : مشرعة الماء ، وهى المكان الذى يشرعه الناس أى يمهدونه ويعدونه على شاطىء النهر ليكون مورد الشاربة يشربون منه ويستقون .

والعرب لا تسمى مورد الماء شريعة وشرعة حتى يكون الماء :

(أ) عدا (بكسر العين) لا انقطاع له — كماء الأنهار.

(ب) ويكون ظاهرا معينا جاريا على وجه الأرض بحيث يتناوله الوارد بنفسه دون ما حاجة الى نزع بالرشاء ونحوه ، ومن أجل هذا يقال. شرع إبله وشرعها (بالتشديد) أوردها شريعة الماء فشربت ولم يستق لها وفى المثل : أهون السقى التشريع ، فإن مورد الإبل إذا ورد بها (الشريعة) لم يتعب فى إسقاء الماء لها كما يتعب إذا كان الماء بعيدا(١) .

---

(١) ذكر فى مساق الحديث عن هذا المثل أن رجلا سافر مع أصحاب له فلم يرجع حين قفلوا إلى أهاليهم ، فاتهم أهله أصحابه فرفعوهم إلى شريح ، فسأل الأولياء البينة فعجزوا عن إقامتها ، واضطروا إلى رفع الأمر إلى =

وفى اصطلاح علماء الدين : ما شرع الله العباده من الأحكام التى جاء بها نبى من الأنبياء سواء أكانت متعلقة بكيفية عمل، وتسمى فرعية وعملية، كالصلاة ، والزكاة والصوم والحج، وقد دون لها علم الفقه، أم متعلقة بكيفية اعتقاد وتسمى أصلية واعتقادية . كالإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله ، ودون لها علم الكلام، ومن استعمال الشريعة والشرعة بهذا المعنى الاصطلاحى قوله تعالى : ثم جعلناك على شريعة من الأمر (سورة الجاثية) وقوله : لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا (سورة المائدة) .

قيل فى تفسيره : الشرعة : الدين، والمنهاج — الطريق — وقيل : الشرعة والمنهاج جميعا — الطريق — والطريق ههنا الدين ، ولكن اللفظ اذا اختلف بمعنى واحد فأسلوب العرب على ذكر تلك الألفاظ تأكيدا وتعميقا لذلك المعنى — كما قال عنترة أقوى وأقفر بعد أم الهيثم . فمعنى أقوى وأقفر واحد الخلو — إلا ان اللفظين معا أوكد فى الخلو ، وقد يخص الشرع والشريعة بالأحكام العملية الفرعية ، وإنما سمى الدين شريعة وشرعا .

حيث كانت الشريعة لغة تعنى مورد الماء الظاهر المعين السهل التناول .

= على رضى الله عنه فتمثل بقول الشاعر :

أوردها سعد وسعد مشتمل　　　ياسعد لا تروى بهذاك الإبل

(لسان العرب مادة شرع) ثم قال : إن أهون السقى التشريع ، ثم فرق بينهما ، وسال واحدا واحدا فاعترفوا بقتله فقتلهم جميعا ، ومراد على بتمثله بهذا البيت والمثل أن ما فعله شريح من طلب البينة من أولياء المقتول شىء هين يسير ، وركون الى الدعة والراحة، وكان عليه أن يتبع الأحوط فى قضايا الدماء والأرواح ، ويبذل الجهد فى التحرى والتحقيق حتى يتبين جلية الأمر ولا يقف عند طلب البينة فإنه مسلك هين يسير شبيه بمورد المثل القائل : إن أهون السقى التشريع .

وكان دين الله وأحكامه :

(ا) ظاهرا بينا بإظهار الله تعالى وتأييده برسله وآياته : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (الصف) .

(ب) سهلا ميسراً لا عنت فيه ولا مشقة : « وماجعل فى الدين من حرج « سورة الحج » ، « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » من سورة البقرة » .

(ح) به حياة القلوب والأرواح .

ومن ثم فإطلاق الشريعة (بمعنى مورد) على دين الله وأحكامه من باب الاستعارة الأصلية بجامع أن كلا سبب لمطلق حياة فالشريعة (بمعنى مورد الماء) سبب لحياة الأجسام ، والدين سبب لحياة الأرواح .

اتحاد الدين والملة والشريعة ذاتا واختلافها اعتباراً :

الأحكام التى جاء بها نبى من الأنبياء :

تسمى دينا : من حيث أنها تطاع وينقاد الناس لها ويلتزمون بها وتسمى ملة : من حيث أنها تملى وتكتب .

وتسمى شريعة : من حيث أنها مشروعة مبينة فالتفاوت بينها بحسب الاعتبار . -

المنهاج : فى المصباح « النهج — بفتح النون — كفلس : الطريق الواضح . والمنهج والمنهاج مثله : ونهج وانهج يجيئان لازمين ومتعديين فيقال : نهج الطريق وأنهج الطريق (بالرفع) وضح واستبان وصار نهجا

واضحا بينا واستنهج أيضا مثله ، ويقال : نهجت الطريق وأنهجت الطريق (بالنصب) أوضحته وابنته ، وسلكته أيضا .

واصطلاحا : الدين :

وفى الحديث : لم يمت رسول الله ﷺ حتى تركم على طريق ناهجة ، أى على دين بين المعالم .

الإسلام والاستسلام لغة الانقياد وإظهار الخضوع .

وشرعا إظهار الخضوع والانقياد لما جاء به النبى — ﷺ .

وللإسلام إطلاقان :

خاص بمعنى الدين المنزل على نبينا محمد ﷺ خاصة ، وعام شامل للأديان السماوية والمنزلة من لدن الحق تبارك وتعالى على رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام جميعا — للعمل بها وتبليغها لمن أرسلوا إليهم .

فإن جوهرها جميعا وروحها وهدفها إنما هو الاستسلام لرب العالمين والانقياد لأمره ونهيه والالتزام بأحكامه وشرعه مهما اختلف بعضها عن بعض فى التكاليف العملية .

يقول تعالى فى سورة البقرة : أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ماتعبدون من بعدى قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون » .

الحنيفية : لغة : الميل ، والحنف (بفتح النون) ميل كل واحدة من إبهامى القدمين على صاحبتها ، أو هو إقبال القدم بأصابعها على القدم الأخرى فتقبل إبهام الرجل اليمنى على أختها من اليسرى ، وتقبل الأخرى إليها إقبالا شديداً .

والأحنف : من كان به هذا الحنف .

والحنيفية شرعاً : الاستقامة على الحق ، والحنيف المستقيم على الحق .

وذلك من حيث إنه يتحنف عن الأديان الباطلة مائلا إلى الحق ، وعليه فمعنى كون إبراهيم عليه السلام حنيفا فى قوله تعالى : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً » أن ابراهيم حنف أى مال إلى دين الله وهو الإسلام .

وقيل : الحنف الاستقامة ، والحنيف المستقيم ، وشرعاً : كل من أسلم لأمر الله تعالى ولم يلتو .

وبناء على ذلك فقول العرب للمائل الرجل : (أحنف) تفاؤلا له بالاستقامة ، كما قالوا للديغ : سليم ، وللصحراء المخيفة المهلكة مفازة .

السنة :

قال شمر : السنة فى الأصل سنة الطريق ، وهو طريق سنة أوائل الناس فصار مسلكا لمن بعدهم .

ومن معانى السنة أيضاً : الوجه ، لصقالته وملاسته ، وقيل حر الوجه وقيل دائرته ، وقيل الجبهة والجبينان(١) ، (انظر لسان العرب) .

---

(١) حر كل شىء أفضله وأجوده ، حر الفاكهة خيارها وجيدها ، وحر كل أرض وسطها وأطيبها ، وحر الوجه قيل : الخد : ومنه لطم حر وجهه ، وقيل مابدا من الوجنة ، وعلى ذلك فقوله : وقيل دائرته ، وقيل الجبهة والجبينان ، كأنه تفسير (لحر الوجه) .

وفى الصحاح : رجل مسنون الوجه إذا كان فى أنفه ووجهه طول، والملحظ فى كل الصقالة والأسالة ، ثم أطلقت على .

(ا) الطريق والسيرة حسنة كانت أو قبيحة .

وفى الحديث — بشأن المجوس — سنوابهم سنة أهل الكتاب (إن صح بهذا اللفظ) أى خذوهم على طريقتهم وأجروهم مجراهم فى قبول الجـــزية .

والشاهد فى إطلاق السنة على الطريقة والسيرة حسنة كانت أو قبيحة قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه مسلم وغيره عن ابن جرير بن عبد الله رضى الله عنه : « من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء،ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » .

(ب) وفى التهذيب : السنة الطريقة المحمودة المستقيمة،وشاهده قولهم: (فلان من أهل السنة) أى : من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة ،أقول: لعله إستعمال خاص .

أما فى إصطلاح العلماء ، فيختلف معناها حسب اختلاف إختصاصاتهم وأغراضهم .

ففى اصطلاح أهل الحديث :كل ما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية حيث إن مهمتهم البحث والتعرف عن كل ما أثر عنه صلى الله عليه وسلم وما كان عليه وتسجيله وتدوينه .

وعند علماء الأصول : كل ما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم غير القرآن

من قول أو فعل أو تقرير ؛ ذلك أن مهمتهم البحث والتقصى عن الأدلة السمعية من حيث إنها تستنبط منها الأحكام الشرعية الفقهية، ولهذا (أى للتقييد بغير القرآن) يقال فى أدلة الشرع الكتاب والسنة .

وفى إصطلاح الفقهاء :

كل ما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب ، أو هو المطلوب طلباً غير جازم مما يثاب على فعله ويعاتب ولا يعاقب على تركه مما عرف بالسنة المؤكدة كالأذان والجماعة والسنن الرواتب ، أما غير المؤكدة مما يسمى بالسنن الزوائد فإن تاركه لا يعاقب ولا يعاتب ، فتارك المؤكدة يعاتب ، وتارك الزوائد لا يعاتب .

وتعرف أيضاً فى الشرع تعريفاً عاماً يجعلها فى مقابلة البدعة حيث يقال : هى الطريق المسلوكة فى الدين بأن سلكها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو خلفاؤه الراشدون والسلف الصالح ، وبهذا المعنى تشمل الواجب والمندوب والمباح سواء أكان ذلك من قبيل الأقوال أم الأفعال أو الاعتقادات .

وقد يكون هـذا التعريف مستلهماً من قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم بسند صحيح عن العرباض بن سارية رضى الله عنه « ... فعليكم بسنتى وسنه الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور . فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» كما تطلق فى الإصطلاح أيضاً على عدة معان أخر منها .

(ا) الشريعة ، ومن ذلك قولهم : الأولى بالإمامة الأعلم بالسنة .

(ب) ومنها ما ثبت بالسنة، وبهذا المعنى وقع فيما يروى عن أبى حنيفة

رحمة الله : أن الوتر سنة ، وعليه يحمل قولهم : « عيدان إجتمعا أحدهما فرض والآخر سنة ، أى واجب بالسنة هذا ، والمراد بالعيدين هنا صلاة الجمعة ، وصلاة العيد (انظر فى ذلك لسان العرب « كشاف إصطلاحات الفنون) (١) .

الجماعة هم المتفقون فى الشرعة والمنهج ، الملتقون فى السنة والطريق الموصل ، إلى الملة ، يقول الشهرستانى : والطريق الخاص الذى يوصل إلى هذه الهيئة (يعنى الملة) هو المنهاج والشريعة والسنة ، والاتفاق على تلك السنة هى : الجماعة .

المسألة الثالثة

إلماعة عن الدين(١)

من حيث :

(أ) ضرورته (ب) أصالته .
(ج) أصالة التوحيد . (د) أسباب الانحراف عنه

ضرورة الدين :

يؤكد ما سبق من تعريف الدين : (بأنه وضع إلهي سائق لذوى العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل) مدى ضرورته وإسهامه فى تكوين الفرد الصالح وبناء المجتمع المتماسك المتعاون على البر والتقوى ، وتخريج الأمة الوسط الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر الملتزمة بالعدل الداعية إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

هذا ، ومن الأوفق أن نبدأ الحديث عن ضرورة الدين للفرد ثم نثنى ببيان ضرورته للمجتمع ، فالأفراد هم اللبنات التى يتكون منها المجتمع ، وسلامة البناء إنما تكون دون ريب بسلامة لبناته ومتانتها ، ولن نستطيع بحال إقامة مجتمع صالح والرقى به إذا أهمل بناء الفرد وإصلاحه وتقويمه .

ضرورة الدين للفرد :

ضرورة الدين من أجل تربية الفرد وإصلاحه والنهوض بملكاته وتكميله والرقى به فى نواحيه المختلفة وجوانبه المتعددة : فكراً ، ووجداناً ، وإرادة ، أمر واقعى تحتمه النظرة الفاحصة ، وتؤكده التجربة الواعية ، وتكشف عنه الدراسة المستأنية الرشيدة .

---

(١) انظر حديث فضيلة الأستاذ الدكتور دراز عن : الدين وضرورته وأصالته فى كتابه القيم (الدين) فإنه مرجعى الأساسى فى هذه المسألة

فالإنسان وهو ذو فكر طموح وعقل وثاب طلعه يستعصى عليه أن يظل حبيس هذا العالم المحسوس ، ورهين ذاك الكون المحدود ، إنه دائم التطلع والاستشراف بفطرته ، والتشوق بغريزته إلى معرفة الأزلى والأبدى ، يحاول جاهداً النفوذ بفكره أو ببصيرته من أقطار السموات والأرض وأنحاء هذا العالم ركضاً وراء تلمس الإجابة عن تلك الأسئلة التى ماتفتأ تلح على لبه وتمثل أمام خاطره وفكره وتلازمه فى صوت جهير كلما خلا بنفسه وسكن لتأملاته :

من أين هذا العالم ومامصدره ؟ وإلى أين مساره ومصيره ؟ ولماذا كان هذا الوجود ومايمتلىء به من خير وشر ونفع وضر ، فطرة الله التى فطر الناس عليها .

ولن يتهيأ للإنسان المفكر الرشيد هدوء النفس وطمأنينة القلب إلا إذا ماوقع على الإجابة المقنعة والمرضية عن تلك الأسئلة وأصاب القول السديد الشافى لما فى الصدور .

وإنما يجد ذلك فى ظل العقيدة الصحيحة بالله تعالى ، والمعرفة المستقيمة بماله سبحانه من صفات الجلال والجمال .

فإذا آمن بواجب الوجود ، الأول الذى ليس قبله شىء ، المبدع المدبر لهذا الكون لا تقليداً ومتابعة بل من خلال وفى ضوء ماينطق ويشهد به مابثه تعالى من آيات بينات فى الأنفس والآفاق انحلت عنه عقدة السؤال الأول : (من أين) .

ومن ثم تنتصب أمامه فى سهولة ويسر الإجابة الصحيحة عن السؤال الثانى (إلى أين مصير هذا الكون وماالغاية التى إليها تنتهى هذه العوالم) ، حيث كان منه سبحانه وجود كل موجود . وإليه وحده عز اسمه المرجع والمصير حسبما نطق بذلك الكتاب الإلهى فى قوله تعالى : « إنا نحن نرث

الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون »(١) وقوله : « إنا نحيي ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير »(٢)

وقوله تعالى « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم »(٣)

ومن خـــلال هذين السؤالين والإجابة عنهما يستشعر القلب السليم والحس النبيل الإجابة الصحيحة عن السؤال الثالث : لماذا كان هذا الوجود وما الغاية من تلك الحياة المليئة بالتبعات والمسئوليات المشحونة بالآمال والآلام ؟ .

وذلك من واقع ماثبت له سبحانه من الخلق وكمال التدبير ، ثم مايجب أن يتصف به عز وجل من العدل والحكمة الماثلة فى كونه الفسيح صغيره وكبيره ، حقيره وجليله على سواء :

إن الغاية البارزة الواضحة من خلال ذلك ناطقة بوجوب معرفته سبحانه وانحناء الخلق له عابدين مسبحين .

وفى ذلك يقول الحق تعالى : تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور »(٤)

ويقول : وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون .

---

(١) سورة مريم الآية ٤٠
(٢) سورة ق الآيتان ٤٣ ، ٤٤
(٣) سورة المؤمنون ١١٥ ، ١١٦
(٤) الآيتان الأولى والثانيه من سورة الملك

ومهما سبق للإنسان من متع العيش وتهيأ له من سلطان الدنيا وزخرف الحياة وشهواتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة ، والأنعام والحرث، لظل هذا الفراغ الموحش تجاه قضية المبدأ والمصير وتفسير ما يلقاه فى تلك الحياة غصة فى الحلق تعذبه ، وتورق حياته وتكدر عليه عيشه .

ولن يزول عنه هذا القلق والإضطراب ، ولن ينزاح عن كيانه هذا اللجاج فى الطلب ويبرأ مما يعانيه من الإحساس بالضياع والتمزق إلا فى إطار الدين الحق مايحث عليه من الإيمان بالله تعالى، والاحتماء به والركون إليه ، واللجوء إلى ظله الظليل وكنفه الرحب الندى.

وما أكثر ما يقدم من يسمون بالوجوديين والماديين ، المنكرين للإله المدبر والجاحدين للبعث والجزاء ، على جرائم الإنتحار والتخلص من الحياة رغم ما يتحقق لهم من مستوى مادى ممتاز ، وما يتمتعون به من جاه وسلطان ، وذلك عندما يستبد بهم القلق، ويمزقهم الإحساس بالضياع، وتضنيهم الحيرة كنتيجة حتمية لعدم إيمانهم بالإله المبدع الحكيم، ويأسهم بالتالى من معرفة المبدأ والمصير والحكمة من وجود هذا الكون ، ومن ثم يفقدون كل معنى للحياة ولا يحسون بهدف ما لذلك العيش ، ولا يجدون تفسيراً لهذا الوجود ، الأمر الذى تتحول معه حياتهم إلى جحيم لا يطاق، وعبء ثقيل لا يرون مسوغاً لبقائه واحتماله .

ومن أجل ذلك فالتخلص من الحياة والهرب من تبعاتها ومسئولياتها هو الحل الأمثـــل من وجهة نظر هؤلاء الجاحدين للإله المنكرين للأديان .

والدين عنصر ضرورى لتكميل وجدان المرء وتنمية عواطفه ، وتلبية أشواقه الروحية .

فالعواطف النبيلة من : الحب ، والشوق ، والشكر ، والتواضع ، والحياء ، والأمل وغيرها إذا لم تجد ضالتها المنشودة فى الأشياء . ولا فى الناس ، وإذا جفت ينابيعها فى هـذا العالم المتبدل المتبدد ولم تصادف مايشبعها فى دنيا الناس هذه ،فأمسى الصديق الحبيب عدواً مبغضاً . وابتذل الناس التواضع وعده البعض ضعفا ، وإذا لم يجن المرء شيئاً من ثمار الأخلاق الحميدة من الحياء والشكر والصفح والإيثار ، وخاب الظن وتبدد الأمل فيمن تتوسم فيه الخير وترجو منه العون،وجدت فى موضوع الدين مجالا رحباً لا تدرك غايته ، ومنهلا عذباً لا ينفد معينه .

ولله در القائل :

من يفعل الخير لايعدم جوازيه
لايذهب العرف بين الله والناس

والقائل :

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامر
وبينى وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذى فوق التراب تراب

وأخير فإن المرء كائنا من كان — جاها وسلطانا ، ومالا ممدوداً ، وبنين شهوداً وعيشاً ممهداً تمهيداً — لايقوى على مواجهة الحياة فى تقلباتها ، والأيام فى صروفها ، فى دنيا طبعت على كدر ، وزمان شأنه التحول

---

(١) الدين للدكتور دراز ص ٩٧ ، ٩٨

والتغير ، دون ما سند من عقيدة راسخة ، وإيمان عميق بقضايا الدين وأصوله الدافعة والداعية إلى القوة والثبات ، والصبر والمصابرة ، من مثل قوله تعالى : ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه » وقوله: « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » .

وقوله تعالى: « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب »

وقول الحق « وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »(١) .

وقوله ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما: « واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك » .

وقوله : « ما يزال البلاء بالمؤمن فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة » أو ما فى معناه .

إن الإيمان بتلك العقائد الدينية ، والاطمئنان إليها ، وامتلاء القلب بها

---

(١) الآيات المذكوره هنا من سورة التغابن آية ١١ الحديد الآية ٢٢ سورة البقرة الآية ٢١٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧

طاقة هائلة لا يعرف المرء معها الاستسلام والتخاذل ، ويرفض فى ظلها كل صور المذلة والهوان، ونفحة مباركة تهيه الإرادة الصارمة والعزيمة الصلبة على متابعة حياته الصالحة فى ثبات واستقرار وثقة ، وأمل فى غد أفضل ورجاء مشرق فى عون الله ومساندته فى الدنيا ، وكبير مثوبته فى جنات عرضها السموات والأرض فى الآخرة ، يوم لاينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » .

الدين والمجتمع :

تبين فى إطار ما أسلفنا من ضرورة الدين للفرد أنه الغذاء الطبيعى والمتكامل لقوى النفس المختلفة والمنبع والمناخ الخالد الصالح لوجود الإنسان السوى عقلا ووجدانا وإرادة ، وبقائه وارتقائه وإسهامه المثمر — فى ظلال تلك القوى السليمة الرشيدة — مع بنى جنسه والحياة من حوله فى عمارة الأرض وازدهار الحياة .

ونستعرض الآن ما يمكن أن ينهض به الدين من وظائف هامة وما يقدمه من تشريعات وتوجيهات أساسية وضرورية لبناء المجتمعات الإنسانية الفاضلة ، وما يكفله لها من أسباب العيش والحضارة ، ومايوفره لها من عوامل الاستقرار والسعادة .

فمن المسلم به فى العقل الأول أنه لاقوام لحياة الفرد إلا فى جماعة متساندة متعاونة على البر والتقوى .

« الناس للناس من بدو وحاضرة

بعض لبعض ، وإن لم يشعروا خدم »

ولن يتم شيء من ذلك التعاون المثمر البناء إلا فى ظل قانون عادل يحدد حقوق كل وواجباته .

ولن يتحقق للإنسانية ذلك القانون عن طريق تلك التشريعات الوضعية والمبادىء الصادرة عن بنى الإنسان .

فإن المرء مهما سما فكره وارتقى ، ونضج عقله واستوى « واتسعت دائرة معارفه ليس فى إمكانه أن يعلم بكل مايوفر للإنسانية سعادتها وأمنها، ويحقق لها التمان المثمر الصادق ، وذلك لعدة أمور .

فقد تخفى على العالم النحرير وجوه الخير ، وتلتبس عليه سبل السلام ، وتختلط أمامه الأمور ، فيرى الحسن قبيحاً ، والقبيح حسنا ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

وقد ينظر للأمور من وجهة نظر خاصة : من واقع مصلحته الشخصية أو مصلحة قبيلته أو طائفته التى ينتسب إليها ، أو وطنه الذى ينتمى إليه ، دون أن يحسب للآخرين حسابا .

وبحمل القول أن البشر عامة قاصرون قصوراً ذاتياً فيما يتعلق بالتشريع والتقنين حيث كانوا محدودين بطبيعة تكوينهم وثقافتهم، وتأثير عصرهم وبيئتهم ومحيطهم، فوق تأثيرميولهم ونزعاتهم وأهوائهم التى لا يجسر إنسان على ادعاء العصمة منها .

وذلك هو ما اتضح لدى بعض المفكرين وكبار الكتاب من رجال الغرب أمثال الكسيس كاريل فى كتابه (الإنسان ذلك المجهول) حيث يشير عنوان الكتاب إلى أساس هذه المشكلة فى الحضارة الغربية والتى تكمن فى أن القوم يشرعون ويخططون لكائن يجهلون من أمره أضعاف مايعرفون، إنهم لا يدرون شيئاً عن حقيقته ، ولا عن سر وجوده والغاية من حياته ،

ومن أجل ذلك كان الضلال فى التشريع له، والتخبط فى تنظيم حياته، ورسم مستقبله .

ورب العالمين أحمرهم وأسودهم الخالق لهم، الصانع لأجهزتهم ومكوناتهم، المبدع لقواهم وطاقاتهم العليم من ثم بطباعهم ونوازعهم، الخبير بعللهم وأدوائهم وما ينفعهم ومايضرهم هو وحده القادر على أن يضع من الشرائع ويسن من القوانين ما يحقق للإنسانية أفراداً وجماعات أقصى ما يمكن أن تصل إليه من العدالة والمساواة، وغاية ماتصبوا إليه من سعادة الحياة وأمنها واستقرارها ، وصدق الله العظيم القائل فى سورة النجم : « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم» والقائل فى سورة الملك : «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » .

ثم إنه لا يوجد قانون يحمل فى طياته ما يكفل احترامه، ويضمن التزام الإنسانية الرشيدة به سوى تلكم القوانين النابعة من الدين الموحى بها من السماء من لدن من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور. فهى وحدها القادرة على إقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق ، وتؤدى الواجبات على أحسن الوجوه وأكملها فى السر والعلن على سواء، فإن واضعها والقائم المحاسب عليها لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

والذى يؤدى واجبه وينهض بمسئولياته رهبة من السلطان وخوفاً من السجن والسيف لا يلبث أن يرتكب الموبقات ويغشى الفواحش ويقترف الجرائم ويعيث فى الأرض فساداً كلما أمكنه أن يفعل ذلك تحت جنح الظلام وبعيداً عن أعين الرقباء وبمنأى عن طائلة القانون .

ثم إن الإنسانية أفراداً وجماعات لا تستنكف أن تنحنى لما يضعه واهب الوجود ومانح الحياة من قوانين وتشريعات ، ولا تجد غضاضة أن تلتزم بها وتحتكم إليهـا وتطأطىء الرأس لهـا ، بينما يلم بالإنسان أحاسيس

الكبر والشعور بالذات تجاه مايضعه إنسان مثله من تلك القوانين ، فإذا هو ضائق صدره بها مستثقل لها ، مستريب فيها ، قليل الأمل فى جدواها ، ضعيف التوقير لهـا ، والالتزام بها ، والركون إليها والإعتماد عليها .

ثم إن بناء الأمم الفاضلة .وإعداد الشعوب الناهضة رهن بما تحرزه من خلق حميد ، وما تتمتع به مثل رفعية وهم عالية من العفة والمروءة والنجدة والصفح والإعانة على نوائب الحق وتحمل أعبائه .

إنمـــا الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولن تستطيع تحصيل تلك الأخلاق وترسيخها والحفاظ عليهادون أن تتخذ من الإيمان بالله تعالى والتصديق بلقائه سنداً يسوغ الاستمساك بها ويوجب احتمالها والنهوض بها رغم ماقد تجره من متاعب وما قد ينجم عنها من مشقات ومحن .

إن الإيمان بما أعده الله تعالى لذوى النفوس الزاكية والأخلاق النقية الطاهرة المؤمنة من جنات عرضها السموات والأرض ورضوان منه تعالى أكبر هو وحده الدافع القوى ، والحافز الحثيث للأمم الرشيدة أن تحرص على تلك الأخلاق وتنفق فى تحملها كل مرتخص وغال ، فالدنيا كلها إلى نفاد وما عند الله باق .

ظاهرة الدين والتدين

بين الأصالة والحداثة

يختلف الباحثون فى تاريخ الجماعات الإنسانية والكتاب المهتمون بدراسة ظاهرة التدين أيما إختلاف حول قضية الدين والتدين من حيث ظهورها فى المجتمعات الإنسانية،وهل هى عريقة فى القدم بمعنى أنها سبقت الحضارات المادية وتقدمتها ، وأن فكرة الدين لازمت الإنسانية منذ فجر وجودها فلم تخل أمة من الأمم فى القديم والحديث من تلك الفكرة رغم تفاوتها فى مدارج الكمال والرقى ودركات الهمجية والتخلف ؟ أم تأخرت عنها فى الوجود فعاشت الإنسانية ردحا من الزمن دون أن يجول بفكرها قضايا الدين ومسائله فى صورة ما من صوره ؟

لقد امتدت الدراسات حول تلك القضية ، واحتدم الجدل فى تحديد الإجابة عن ذاك السؤال : متى ظهرت فكرة الدين والتدين على وجـــه الأرض ؟

مزاعم القائلين بحداثة الدين : فبعض كتاب القرن الثامن عشر ممن مهدوا للثورة الفرنسية يرون فى تمهيدهم هذا أن الديانات والقوانين ليست إلا منظمات مستحدثة ، وأعراضا طارئة نادى بها دهاة ماكرون من أجل أن يتمكنوا من استعباد الشعوب والتحكم فى مقدراتها واستغلال خيراتها .

ومن هؤلاء : فولتير ، وجان جاك روسو ، اللذان يؤيدان هذا الاتجاه بحماس منقطع النظير .

يقول فولتير : إن الإنسانية لابد أن تكون قد عاشت قرونا متطاولة

فى حياة مادية خالصة قوامها : الحرث والنحت والبناء ، والحدادة ، والنجارة قبل أن تفكر فى مسائل الدين والروح ، بل قال أكثر من ذلك : إن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء .

أما (جان جاك روسو) فينظر إلى فكرة القانون على أنه قيمة وضعية تحكمية ويفسر ذلك بقوله : « إن الأفراد الذين سبقوا إلى وضع أيديهم على بعض مساحات من الأرض حدا بهم جشعهم وحرصهم على المحافظة على ملكيتهم إلى أن يأتمروا فيما بينهم على وضع تلك النظم والقوانين ليخدعوا بها الجمهور ، ويضللوا بها الفقراء ، ويسيطروا بها على العامة .

ويذكر فضيلة الدكتور دراز أن هذه النظرة الساخرة إلى الأديان والقوانين ليست مبتكرة ، وإنمـــا هى ترديد وصدى لمجون قديم كان يتفكه به السوفسطائيون فى اليونان ، فقد زعموا أن الإنسان كان فى أول نشأته يعيش بغير رادع عن قانون ولا وازع من خلق ، وأنه كان لا يخضع إلا للقوة الباطشة ، ثم كان أن وضعت القوانين فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة وهنالك فكر بعض العباقرة فى إقناع الجماهير بأن فى السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شيء ، وتسمع كل شيء وتهيمن بحكمها على كل شيء .

وهكذا لم تكن القوانين والديانات فى تصورهم إلا ضروبا من السياسة الماهرة التى تهدف إلى علاج أمراض المجتمع بالحيلة والدهاء .

الدافع لهذا النوع من التفكير :

قد يكون الباعث لهذا النوع من التفكير والتصور للدين أمرين .

الأول : ذلك الانحلال الخلقى وبعض مظاهر المجون عند نفر من رجال الكنيسة مما حمل البعض على اتهام الدين وسوء الظن به .

أما الثانى فتلك القوانين الظالمة الجائرة والتى انعكس أثرها فى سوء توزيع الثروة واستغلال بعض ذوى النفوذ والسلطة لثروات البــلاد والاستيلاء عليها مما سول للبعض الظن بأن الدين والقانون على هذه الحال فى كل زمان ومكان، وبالتالى فهما من وضع بعض دهاة السياسة ليتمكنوا من قضاء مآربهم ، والمحافظة على سلطانهم ومكاسبهم غير المشروعة .

ضلال هذا التفكير وتصويب القول بالإصالة : غير أن الأبحاث العلمية الجادة الحديثة أظهرت ضلال هذه المزاعم ، وتبين فى ظل الدراسات المقارنة والواقعية لعادات الأمم وعقائدها وأساطيرها المختلفة أن فكرة التدين :

فكرة مشاعه منتشرة لم تخل عنها أمة من الأمم قديماً وحديثاً رغم التفاوت فى مدارج الرقى ودركات الهمجية .

وأنها أقدم فى المجتمعات من كل حضارة مادية ، فهى سابقة على الحضارات وليست مسبوقة بها .

وأنها لم تقم على خداع الرؤساء وتضليل الدهاة .

ولم ترتكز على أسباب طارئة أو ظروف خاصة ؛ بل هى تعبير عن نزعة أصيلة وفطرة مغروسة فى الناس جميعاً .

فقد ورد فى معجم (لاروس) للقرن العشرين « أن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية .. وأن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات الإنسانية العالمية الخالدة .. وأن هذه الغريزة الدينية لاتخفى بل لاتضعف ولا تذبل إلا فى فترات الإسراف فى الحضارة، وعند عدد قليل جداً من الأفراد .

ويقول بارتيلمى سانت هيلير — مبيناً أصالة هذه النزعة الدينية واشتراكها بين كل الأجناس البشرية : إن هذا اللغز العظيم الذى يستحث عقولنا : ما العالم ؟ ما الإنسان ؟ من أين جاءا ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ ماهدفهما ؟ كيف بدءا ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الموت ؟ ما الحياة ؟ ما القانون الذى يجب أن يقود عقولنا أثناء عبورنا هــــذه الحياة ؟ أى مستقبل ينتظرنا بعد هذا العيش ؟ هل يوجد شىء بعد هــذه الحياة العابرة ؟ وما علاقتنا بهذا الخلود . . . ؟

هذه الأسئلة لاتوجد أمة ولا شعب ولا مجتمع إلا وضع لها حلولا جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سخيفة ، ثابتة أو متحولة » .

ويقول هنرى برجسون : لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون « وفلسفات ، ولــكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة » .

وبعد فالحقيقة التى يكاد يتفق ويجمع عليها مؤرخو الأديان هى أنه ليست هناك جماعة إنسانية ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر فى مبدأ الإنسان ومصيره ، وفى تعليل ظواهر الكون وأحداثه ، ودون أن تتخذ فى هذه المسائل رأياً معيناً حقاً أو باطلاً يقيناً أو ظنا تصور به القوة التى تخضع لها هذه الظواهر فى نشأتها والمآل الذى تصير إليه الكائنات بعد تحولها وذلك ما يعبر عنه بالدين فى جوهره وحقيقته .

نشأة عقيدة الإله الواحد أو أصالة التوحيد :(١)

أولا — مستند تلك العقيدة : أكد علماء الأديان أن عقيــدة الإله

(١) المرجع فى تلك القضية كتاب الدين للدكتور العالم الشيخ دراز ص ١٠٣ — ١١٢

الواحد تستند فى أصلها ومبعثها إلى مبدأين مركوزين فى بداهة العقول وفطرة الإنسان هما :

(ا) قانون السببية .　　　(ب) قانون الغائية .

قانون السببية :

ومجمله أن شيئاً من الممكنات — بهذا التحديد — لا يحدث بنفسه من غير شيء ، — وبالتالى — فهو لا يستقل بإحداث شيء فلابد له فى وجوده أو فى تأثيره فى غيره من سبب خارجى وهذا السبب إن لم يكن موجوداً بنفسه ، أى إن لم يكن واجب الوجود من ذاته احتاج إلى غيره ، وهكذا حتى ينتهى الأمر بالضرورة إلى سبب وموجود يكون وجوده من ذاته ، وهو سبب الأسباب كلها ، بنـــاء على استحالة التسلسل إلى مالا نهاية فى جانب الماضى .

أما قانون الغائية: فحصلة أن كل نظام مركب متناسق مستقر لا يمكن أن يحدث عن غير قصد، وأن كل قصد لابد أن يهدف إلى غاية، وأن هذه الغاية إذا لم تحقق إلا مطلباً جزئياً محصوراً تشوفت النفس وتطلع العقل إلى غاية أخرى حتى ينتهى الأمر إلى غاية كلية ثابتة هى غاية الغايات .

ومجمل القول وحاصله: أنه مهما طالت سلسلة الأسباب الممكنه والغايات الجزئيه وسواء أفرضت متناهية أم غير متناهية فإنه لابد لتفسيرها وفهمها ومعقولية وجودها من إثبات شيء آخر يحمل فى نفسه سبب وجوده وبقائه — أو كما يقول علماء الكلام والفلسفة لابد من موجود واجب الوجود — فيكون هو الأول الحقيقى الذى ليس قبله شيء والغاية الحقيقية التى ليس بعدها شيء .

(ا) وإلا لبقيت كل هذه الممكنات فى طى الكتمان والعدم إن لم يكن لها مبدأ ذو وجود مستقل ، (ب) أو لبقيت لغزاً وعبثاً غير معقول .

ان لم تكن لها غاية تامة تنقطع بها لحاجة النفس ويستقر اضطرابها ويسكن تطلعها .

كيفية ظهور عقيدة التوحيد : ولكن كيف ظهرت تلك العقيدة الإلهية التى تنادى بضرورة وجود إله واحد خالق لهذا الكون مدبر له مبدع لقوانينه ونواميسه ومشرف عليها .

أ كان ظهورها أولا فى صورة الوثنية والخرافة والتعدد ثم كان الترقى والتدرج إلى التوحيد والتنزيه ، أم أن عقيدة التوحيد أصيلة فى النفس مركوزة فى الفطر ، فإن كانت هناك وثنيات فهى أعراض طارئة وانحرافات خاطئة .

لقد انقسم الباحثون تجاه تلك القضية إلى :

(١) طائفة ترى أن الدين بدأ فى صورة باهتة تلفه الوثنية وتغلفه الخرافة والأساطير ، وأن الإنسانية أخذت تترقى وتتدرج فى دينها على مدى الأجيال والقرون حتى بلغت الكمال فيه بالتوحيد ، كما تدرجت نحو الكمال فى العلوم والصناعات ، بل لقد زعم البعض أن عقيدة التوحيد والإله الأحد جد حديثة .

وقد تبنى هذه النظرية ونادى بها أنصار مذهب التطور التقدمى ، أو التصاعدى ، كما كانوا يطلقون على أنفسهم .

وقد ساد هذا الاتجاه — أعنى (مذهب التطور التقدمى) فى أوربا — فى القرن التاسع عشر فى مجال كثير من فروع العلوم .

ثم حاول تطبيقه على تاريخ الأديان عدد من العلماء منهم سبنسر ، وتيلور ، ودوركايم وغيرهم .

وقد يكون فى كلام الأستاذ العقاد ما ينظمه فى سلك هؤلاء ، ففى

كتابه : (الله) ص ١٣ ، ١٤ يقول : ترقى الإنسان فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات فكانت عقائدة الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته ويقول : إن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة فى عصر واحد .

وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التى آمن بها الإنسان الأول ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية أو بين أمم الحضارة العريقة ، ولم يكن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك ، ولا أن تكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلالة والجهالة .

ثم يقول : فإن العالم الذى يخطر له أن يبحث فى الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء إنما يبحث عن محال .

(ب) وفريق آخر : هم أصحاب نظرية (فطرية التوحيد وأصالته) يقرر بالطرق العلمية بطلان هذا المذهب ، ويثبت أن عقيدة الخالق الأكبر هى أقدم ديانة ظهرت فى البشر مستدلا بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم فى القديم والحديث فتكون الوثنيات إن هى إلا أعراض طارئة أو أمراض متطفلة تجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة .

ومن أشهر أصحاب هذه النظرية : لانج ، الذى أثبت وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل الهمجية فى : إستراليا ، وأفريقيا ، وأمريكا ، وبركلمان الذى أثبت وجودها عند الساميين قبل الإسلام ، وشميدث عند الأقزام فى وسط أفريقيا وعند سكان أستراليا الجنوبية والشرقية ، وقد انتهى بحث شميدث إلى أن فكرة : الإله الأعظم ، توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية (١) .

---

(١) أنظر كتاب الدين للدكتور العالم محمد عبد الله دراز .

نقد دراز لهذين الاتجاهين :

يتصدى الدكتور دراز لنقد هذين الاتجاهين من حيث : الموضوع : وهو تحديد صورة العقيدة الأولى منذ الوجود الأول للإنسان ومن حيث المنهج : وهو دراسة الشعوب المتأخرة والأمم الغابرة البدائية التى لم تنل حظاما من المعرفة والحضارة والاستدلال منها على ديانة الإنسانية الأولى. فيقول رحمه الله :

« ونحن نرى أن وضع المسألة على هذا الوجه ومحاولة حلها من هـذا الطريق ينطوى على خطأ مزدوج : خطأ فى الغاية ، وخطأ فى الوسيلة .

أما من حيث الغاية التى يهـــدف إليها البحث ، وهى تحديد الأصل الأصيل للعقيدة ، والمظهر الذى ظهرت به فى أول الأزمنة بإطلاق ، فلأن هذه المنطقة البدائية المحضة قد اعتبرها العلم شقة حراما حظرها على نفسه وأعلن فى صراحة كاملة خروجها عن حدود عمله ، فاقتحامها الآن باسم العلم تعامل بصك مزيف وتستر بثوب مستعار ، وكل حكم يصدر تحت هـــذا الاسم يكون صادرا عن قاض معزول فاقد للركن الأول من سلطته الشرعية ، ومؤرخو الديانات على الخصوص معترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجرى وما قبله ، لاتزال مجهولة لنا جهلا تاما فلاسبيل للخوض فيها إلا بضرب من التكهن والرجم بالغيب .

وأما من حيث المنهج : وهو الاستدلال على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة المتخلفة عن ركب المدنية تخطوه من حيث إنه مبنى على افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها على الحالة التى وصل إليها بحثنا، وأنها لم تمر بها أدوار متقلبة ، ومن ثم يمكن أن يستكشف منها ويستدل بها على ديانة الإنسان الأول وهو افتراض لم يقم عليه دليل ، بل الذى أثبته التاريخ واتفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية ، هو أن فترات

الركود والتقهقر التى سبقت مدنياتها الحاضرة كانت مسبوقة بمدنيات مزدهرة ، وأن هذه المدنيات قامت بدورها على أنقاض مدنيات بائدة . . فكذلك نقول فى شأن العقائد الدينية: إنه من الممكن أن تكون الخرافات القديمة بداية ديانات ، كما يمكن أن تكون نتيجة تحلل وتحريف لديانات صحيحة سابقة مزقت أهلها الحروب أو أفسدتهم الآفات الاجتماعية فقلت عنايتهم بأصول دينهم ، وتلقوا بالتسليم والقبول كل ما سمعوه من أفواه الأدعياء والدجالين ، وشاعت بينهم هذه الروايات وتوارثوها حتى أصبحت سننا مقدسة ودينا متبعا .

وبناء على ذلك فمن العسير الحكم بصفة قاطعة بأى الاتجاهين بدأت دورة الزمان .

ثم يوالى الدكتور دراز نقده لهذين الاتجاهين وذلك بطرحه نظرية ثالثة يمكن الأخذ بها فى مسألتنا هذه .

« وتقريرها أن الرشد والضلال فى الفكرة الدينية ليستا ظاهرتين متعاقبتين فقط صعودا أو انحدارا على مدى العصور ، بل هما ظاهرتان متعاصرتان موزعتان فى كل أمة وجيل ، تبعا لاختلاف الأفراد فى درجات إستقامة الحدس العقلى ونبل الحس الباطنى ، فلا يخلو جيل ما من نفوس صافية تدرك الحقيقة نقية من شوائب الخرافة ، وأخرى دون ذلك .

ثم يعقب على ذلك كله بما يجلى القضية ويجهز على كل قول ويحسم كل خلاف فيقول :

هكذا عجزت وسائل العلوم أن تقدم لنا بيانات شافيا يطمئن إليه القلب عن ديانة الإنسان الأول .

أما من أحب أن يسترشد بنصوص الكتب السماوية فإنه سوف يجد فيها ما يشد أزر القائلين بألوية العقيدة الإلهية الصحيحة .

ا — لا فى الغريزة فحسب « فطرة الله التى فطر الناس عليها » .

ب — بل فى التطور الزمانى كذلك ، فهذه النصوص تنادى بأن الناس بدءوا حياتهم مستقيمين على الحق متفقين عليه ، وأن الانحراف والاختلاف إنما جاء عرضا طارئا بعـــد ذلك : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » .

جـ — وأن استمرار هذا النزاع واتساع شقته إنما كان بتأثير الوراثة وتلقين كل جيل عقيدته للناشئين فيه : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه .

والكتب السماوية متفقة على أن الجماعة الإنسانية الأولى لم تترك وشأنها تستلهم غرائزها وحدها بغير مرشد ومذكر ، بل تعهدتهـا السماء بنور الوحى من أول يوم ، فكان أبو البشر هو أول الأفذاذ الملهمين ، وأول المؤمنين الموحدين ، وأول المتضرعين الأوابين .

وفى ضوء ما تقدم كله يتبين أن وسائل العلم البشرى وحدها عاجزة عن أن تصل بنا من طريق يقينى إلى نقطة البدء الحقيقى للدين ، وأن الحل الوحيد والنهائى لهذه المسألة إنما يكون عن طريق الوحى ؛ لأنها داخلة فى منطقة الغيب التى هى موضوع الإيمان ، وليست من شأن العـــلوم الاستقرائية ولا الاستنتاجية .

أسباب الانحراف عن التوحيد
ومنشأ عبادة الأوثان

من أخطر العوامل التي تنحرف بالمرء عن التوحيد وتعدل به إلى عبادة الأوثان .

الغلو في الدين ، كما وقع لبعض أهل الكتاب فيما يسجله القرآن العزيز :
« يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم » .

ولمسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ :
« إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو » .

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » (أخرجاه، أنظر كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب) .

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً » قال هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا(١) إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها

---

(١) الأنصاب جمع نصب بضمتين ، وبفتح الأول وسكون الثاني بوزن فلس وقرىء بهما: حجر نصب وعبد من دون الله، وقيل النصب جمع واحدها نصاب بكسر النون ، فالأنصاب على ذلك جمع الجمع، ومهما يكن فقد قيل إن =

بأسمائهم . ففعلوا ، ولم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت » ، (كتاب التوحيد) .

وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » كتاب التوحيد .

= الأنصاب هى الأصنام فالأصنام مصورة منقوشة والأنصاب بخلافها وقيل فى الفرق بينهما : إن الأصنام ما تتخذ من الحجر أو الخشب أن من الجواهر المعدنية والأنصاب من الحجر خاصة .

المسألة الرابعـــة
فى
تقسيمات العلماء لأهل العالم

رد أبو محمد على بن أحمد بن حزم الأندلسى فى مستهل كتابه : (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) رءوس الفرق المخالفة لدين الإسلام إلى ست مرتباً إياها حسب بعدها عن الحق ، فأبعدها :

النافون لحقائق الأشياء المبطلون لها(١) ، وهم المعروفون بالسوفسطائية ،

---

(١) فهى خيالات لا أصل لها،واستدلوا على ذلك بأن أظهر الموجودات المحسوسات ، ولا ثقة بقطع الإنسان بحسه ،ومهما شاهدت إنسانا أو كلمته، فقولك أقطع بحضوره وكلامه فهو خطأ ، فلعلك تراه فى المنام فكم من منام يراه الإنسان ويقطع به ولا يتمارى مع نفسه فى تحقيقه،ثم ينتبه على الفور فيتبين أنه لا وجـــود له ، حتى ليرى فى المنام يد نفسه مقطوعة ورأسه مفصولا ويقطع به ولا وجود لما يقطع به .

هـذا ومهما قيل فى التشكيك فى حقائق الأشياء وبلبلة الأفكار فى الضروريات فإن الإله البر الرحيم العدل الحكيم أكرم من أن يترك عباده نهباً للوساوس والشكوك ، وآية ذلك ما يجده كل امرىء فى نفسه من التفرقة بين الحقيقة والخيال ، واليقظة والمنام ، والمنكر لذلك مكابر بلا مراء ، فإنه يؤسس حياته وتوجهاته كلها على ما يلقاه فى ذهابه وجيأته من أحداث ، دون أن يسرج ذلك على الخيال والمنام .

والحق أنه لا يطعن فى الضروريات ولا يقلل من قدرها بمجرد

سواء منهم من نفى الحقائق جملة ويعرفون بالعنادية ، ومن شك فيها وهم اللاأدرية ، ومن قال : هى حق عند من هى عنده حق ، وهى باطل عند من هى عنده باطل وهم المعروفون بالعندية .

ثم المثبتون للحقائق وهم خمس فرق :

١ — المثبتون للحقائق ، القائلون بقدم العالم وأزليته النافون للمحدث والمدبر .

٢ — المثبتون للحقائق القائلون بقدم العالم وأزليته النافون للمحدث لكنهم مقرون بالمدبر(١) .

= التجويزات ، فالمرء يخرج من بيته وهو على علم ضرورى بوجود كتاب أو منضدة فيه ثم يظل على هذه الحالة من العلم الضرورى سحابة يومه رغم تجويزه انقلاب ذلك غلاماً فتيا ، أو شيخا بلغ من الكبر عتيا ، وإنما يطعن فى الضروريات حصول مقابلها .

(١) الحق أن القائلين بقدم العالم ثلاثة أقسام : دهريون ، طبيعيون ، إلهيون ، فالدهريون - كما يقول الإمام الغزالى طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر العالم القادر وزعموا أن العالم لم يزل موجود كذلك بنفسه وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان وكذلك يكون أبداً ، وهؤلاء يسمون أيضا بالزنادقة .

أقول : وذلك مذهب (ديموقريطس) — من قدماء فلاسفة اليونان — وأشياعه حيث كان مذهبهم : أن المادة قديمة وهى مركبة من أجزاء لا تتجزأ ، وهذه الأجزاء أو الذرات دائمة التحرك فى الفضاء اللانهائى ، ومن اجتماعها تتكون الأجسام ، وبافتراقها تفنى ، وهكذا استمرار الأمر من =

. . . .

= الأزل وسيبقى إلى الأبد بدون غاية ولا هدف ، ومن ثم فليس هناك موجد ولا مدبر .

أما الطبيعيون فقوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوانات والنبات : وأكثروا الغوص فى عالم تشريح أعضاء الحيوانات ، فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها .

إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوام قوى الحيوان به ، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضا،وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم ،ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا ، فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود، فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار والنشر والحشر والقيامة والحساب فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب ، فانحل عنهم اللجام ،وانهمكوا فى الشهوات انهماك الأنعام ، وهؤلاء أيضا زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وإن آمنوا بالله وصفاته .

أما الصنف الثالث : فهو الإلهيون ، وهم متأخرو الفلاسفة مثل:سقراط وأفلاطون تلميذه ، وأرسطوا تلميذ أفلاطون .

وهم مع قولهم بقدم العالم قائلون :

(ا) بالإله الواجب الوجود المدبر للعالم .

(ب) وبالمعاد والثواب والعقاب الروحانى لا الجسمانى ، فأنكروا لذلك ما جاء به الشرع من المعاد والثواب والعقاب الجسمانى .

٣ — المثبتون للحقائق القائلون بحدوث العالم مع قولهم بأن له أكثر من محدث ومدبر قديم .

٤ — المثبتون للحقائق ، القائلون بحدوث العالم والمحدث المدبر الواحد مع إنكارهم للنبوات .

٥ — المثبتون للحقائق ، القائلون بحدوث العالم ، والمحدث المدبر الواحد وإثبات النبوات لكنهم خالفوا فى بعضها كاليهود والنصارى .

فإذا أضفنا إلى ذلك : المثبتون للحقائق القائلون بحدوث العالم والمحدث المدبر الأزلى الواحد وإثبات النبوات والرسل جميعا الذين ابتعثهم الله تعالى واصطفاهم دون أن يفرقوا بين أحد من رسله تعالى وهم المسلمون ، كانت رءوس الفرق سبعا كاملة .

أما الإمام الشهرستانى : فيمهد للحديث عن تقسيمه أهل العالم بحسب الآراء والمذاهب بالإشارة إلى طرف من تقسيمات باعتبارات أخرى ، فذكر :

إن من الناس من قسم أهل العالم بحسب الأقاليم بيناطبيعةكل وخصائصه مستشفا ذلك من اختلاف الألسنة والألوان .

ومنهم من قسمهم بحسب الجهات الأربع : المشرق والمغرب والشمال ، والجنوب ، موضحا ما يمتاز به كل من الطبائع وتباين الأمزجة ، والتصورات .

ومنهم من قسمهم بحسب الأمم أعنى العرب والعجم ، والروم والهند ، مبينا تقارب العرب والهند على مذهب واحد ، وأن أكثر ميلهم إلى الحكم بأحكام الماهيات وحقائق الأشياء والتعلق بالروحانيات لا الماديات ،

وتقارب الروم والعجم على مذهب واحد، فأكثر ميلهم إلى الحكم بأحكام الكيفيات والكميات والتعلق بالماديات لا الروحانيات (١).

ثم ذكر أن من العلماء من قسم أهل العالم بحسب الآراء والمذاهب، وأن ذلك هو غرضه من تأليف كتابه (الملل والنحل) (٢).

وقد قسمهم — رحمة الله — بالقسمة الصحيحة الأولى من هذه الجهة إلى قسمين : أهل الديانات، وأهل الأهواء، فقال : « وهم منقسمون بالقسمة الصحيحة الأولى إلى أهل الديانات والملل، وأهل الأهواء والنحل.

فأرباب الديانات مطلقا مثل : المجوس واليهود والنصارى والمسلمين، وأهل الأهواء والآراء مثل : الفلاسفة والدهرية (٣).

---

(١) قالوا العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام: علم الماهيات وحقائق الأشياء، وعلم الكيفيات، وعلم الكميات فالعلم الذى يطلب فيه ماهيات الأشياء يسمى (العلم الإلهى)، والعلم الذى يطلب فيه كيفيات الأشياء هو العلم الطبيعى، والعلم الذى يطلب فيه كميات الأشياء هو العلم الرياضى، سواء أكانت الكميات مجردة عن المادة أم مخالطة لها، وموضوع العلم الإلهى هو الوجود المطلق، وموضوع العلم الطبيعى هو الجسم والموضوع فى العلم الرياضى الأبعاد والمقادير.

(٢) أنظر المبحث الخاص بالمجوس ص .

(٣) الدهرية — بفتح الدال نسبة على القياس إلى الدهر — القائلون بقدم العالم ونسبة مايحدث فيه إلى الدهر وإنكار الإله والبعث فهم القائلون كما حكى القرآن : « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر » (سورة الجاثية).

والصابئة (١) وعبدة الكواكب والأوثان والبراهمة :

= ويصفهم الشهرستاني بأنهم المعطلة (المنكرون الإله) ممن ألفوا المحسوس ، وركنوا إليه ، وظنوا أنه لاعالم سوى ماهم فيه من مطعم شهى ومنظر بهى ، ولا عالم وراء عالم المحسوس ، وهم الطبيعيون الدهريون .

أما الفلاسفة فهم هؤلاء الذين ترقوا من المحسوس وأثبتوا المعقول (يعنى الإله) والمبدأ والمعاد ، لكنهم لا يقولون بحدود وأحكام وشريعة وإسلام ، وظنوا أنهم إذا قالوا بالمعقول وأثبتوا المبدأ والمعاد حصل لهم الكمال المطلوب، وهؤلاء هم الفلاسفة الأولى الذين كانوا فى الزمن الأول، ويسمون الفلاسفة الإلهيين ، ومن مقولتهم : أن الشرائع وأصحابها أمور مصلحية ، والحدود والأحكام والحلال والحرام أمور وضعية ، وهم غير الفلاسفة المسلمين ممن أخذوا علومهم من مشكاة النبوة .

يقول الشهرستاني موضحا مذهب هؤلاء الفلاسفة : فغاية الحكيم هو أن يتجلى لعقله كل الكون ، ويتشبه بالإله الحق تعالى بغاية الإمكان ، وغاية النبي أن يتجلى له نظام الكون فيقدر على ذلك مصالح العامة حتى يبقى نظام العالم وتنتظم مصالح العباد وذلك لا يتأتى إلا بترغيب وترهيب وتشكيل وتخيل ، فكل ما وردت به أصحاب الشرائع والملل تقدر على ما ذكرناه عند الفلاسفة إلا من أخذ علمه من مشكاة النبوة (الملل والنحل ١٥٧/٢) .

---

(١) هم القائلون بحدود وأحكام عقلية، وربما أخذوا أصولها وقوانينها من مؤيد بالوحى إلا أنهم اقتصروا على الأول منهم وماتعدوا إلى الآخر، حيث قالوا بنبوة عاذيمون وهرمس وهما شيث وأدريس ولم يقولوا بغيرهما من الأنبياء ، وهؤلاء هم الصابئة الأولى (الملل والنحل جـ٢/٩٣ ، ٩٤ =

. . . .

= وشيث هو ابن آدم، ومعناه: هبة الله قالوا : وإنما سمي بذلك لأنهما أي آدم وحواء ، رزقاه بعد أن قتل قابيل هابيل ، وفي حديث لأبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف على شيث خمسين صحيفة (البداية والنهاية لابن كثير ١ / ٩٨ ، وأخبار الزمان للمسعودي ١ / ٧٦ .

ويقول صاحبا الإمام أبي حنيفة (أبو يوسف ومحمد) إن الصابئة صنفان : صنف يقرؤن الزبور ويعبدون الملائكة عليهم السلام (وأراهم الصابئة الأولى وحكمهم حكم من لهم شبهة كتاب) وصنف لا يقرؤن كتابا ويعبدون النجوم فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب ولا من لهم شبهة كتاب .

هذا ، وتوضيح مذهب الصابئة في إطار ماذكره الشهرستاني : أن للعالم صانعا فاطراً حكيما مقدسا عن سمات الحدثان . والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله .

وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه الروحانيون المطهرون المقدسون المبرؤن عن القوى الجسدانية المنزهون عن الحركات المكانية ، والتغيرات الزمانية ، ومنها مدبرات الكواكب السبع السيارة في أفلاكها وهي هياكلها ، أي أن تلك الكواكب هي هياكل لتلك المتوسطات المقربين المنزهين .

ولكل روحاني هيكل . ولكل هيكل فلك يدور فيه .

ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذي اختص به نسبة الروح إلى الجسد ، فهو ربه ومدبره ومديره .

ولما كان لابد للمتوسط أن يرى حتى يتوجه إليه ويتقرب به ويستفاد =

. . . .

= منه ، وذاك المتوسط روحانى لايدرك بالحواس فزعوا إلى الهياكل التى هى السيارات السبع ، فكانوا يتقربون إلى الهياكل تقربا إلى الروحانيات ، ويتقربون إلى الروحانيات تقربا إلى البارى تعالى ، لاعتقادهم أن الهياكل أبدان الروحانيات ونسبتها إلى الروحانيات نسبة أجسادنا إلى أرواحنا ، وهم الأحياء ، الناطقون بحياة الروحانيات ، وهى تتصرف فى أبداننا تدبيرا وتحريكا كما تتصرف أورواحنا فى أبداننا ولا شك أن من يتقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه .

وهؤلاء هم الذين أخبر التنزيل عنهم بأنهم عبدة الكواكب إذ قالوا بآلهتها ، ولكن الهياكل ترى فى وقت ولا ترى فى وقت لأن لها طلوعا وأفولا . وظهورا بالليل وخفاء بالنهار ، فلما لم يصف لهم التقرب بها والتوجه إليها باستمرار قالوا لابد لنا من صور وأشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا نعكف عليها و نتوصل بها إلى هياكلها فنتقرب بها إلى الروحانيات ، ونتقرب بالروحانيات إلى الله تعالى ، فاتخذوا أصناما أشخاصا على مثال الهياكل السبعة ، كل شخص وصنم فى مقابلة هيكل ، وأصحاب الأشخاص هؤلاء هم عبدة الأوثان ، إذ سموها آلهة فى مقابلة الآلهة السماوية . وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

وقد ناظر الخليل هذين الفريقين فابتدأ بكسر مذهب أصحاب الأشخاص وذلك فى قوله تعالى : وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه وتلك الحجة أن كسرها قولا بقوله : أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ، وقوله لأبيه : أتتخذ أصناما آلهة ، وقوله : ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . .

ولما لم تقبل الحجة العقلية عدل عليه السلام إلى الكسر بالفعل : « فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون » :

ثم قسم أهل العالم من أرباب الديانات والملل ، وأهل الأهواء والنحل بتفصيل ما ، وبطريق الاستقراء إلى أربعة أقسام : —

(ا) من له كتاب منزل محقق مثل : اليهود والنصارى .

(ب) من له شبهة كتاب مثل المجوس والزرد شتية والمانوية .

(ح) من له حدود وأحكام عقلية دون كتاب مثل الصابئة الأولى .

(د) من ليس له كتاب ولا شبهة كتاب ولا حدود شرعية وأحكام عقلية مثل الفلاسفة الأولى ، والدهرية، وعبدة الكواكب ، والأوثان ، والبراهمة» .

ثم لاذ رحمه الله — بعد بالتقسيم الصحيح الدائر بين النفي والإثبات ، على حد تعبيره فقسمهم إلى : أهل الديانات،وإلى أهل الأهواء ، ذلك أن الإنسان إما مستفيد متلق مذهبه من الغير أولا ، والأول من أهل الديانات والثاني من أهل الأهواء .

وذلك حيث يقول:« ثم إن التقسيم الصحيح الدائر بين النفي والإثبات

= ثم عدل إلى كسر مذاهب أصحاب الهيا كل ، فقال كما حكى المولى : فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني برىء مما تشركون .

هذا ، وفي اللغة صبا الرجل : مال وزاغ ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق كما رأيت قيل لهم الصابئة ، وهم في مقابلة الحنيفية التي هي بمعنى الاستقامة والسداد .

هو قولنا : إن أهل العالم انقسموا من حيث المذاهب إلى : أهل الديانات، وإلى أهل الأهواء .

فإن الإنسان إذا اعتقد عقداً أو قال قولا فإما أن يكون فيه مستفيداً من غيره أو مستبداً برأيه ، فالمستفيد من غيره مسلم مطيع ، والدين هو الطاعة والتسليم والمطيع هو المتدين ، والمستبد برأيه محدث مبتدع .

مناقشة حول تحديد المستفيد والمستبد :

أوضح الإمام الشهرستاني عقب تقسيمه هـــذا ، أنه قد يطلق لفظ (المستفيد) على مقلد تلق دينه ومذهبه عن غير المعصوم دون ما دليل وبينة ؛ بأن وجد أبويه مثلا أو معلمه على اعتقاد ما فيقلده ويتابعه دون أن يفكر فى حقه وباطله، وصواب القول فيه وخطئه،وذلك بناء على ماعرف به المستفيد من أنه من تلق مذهبه عن الغير .

ثم أفاد أنه حينئذ لا يكون مستفيداً على الحقيقة ، لأنه ما حصل على فائدة وعلم ، ولا اتبع أبويه وأستاذه على بصيرة ويقين ، فهو إذن ليس جديراً باسم المستفيد .

كذلك قد يكون ذاك الذى أطلق عليه البعض وصف المستبد مجتهداً مستنبطاًمما استفاده وحصله من المعصوم على شرط أن يعلم موضع الاستنباط وكيفيته فحينئذ لايكون مستبداً حقيقة ، لأنه حصل ماحصل من العلم ليس عن طريق الاستبداد بالرأى والهوى، بل عن طريق الاستنباط من كلام المعصوم ، وفهمه والاستفادة منه فهو فى الحق برىء من الاستبداد .

وبنا على هذا فالمستفيدون هم القائلون بالنبوات المتلقون دينهم من المعصوم . والمستبدون بالرأى هم المبتدعون المفترون لما هم عليه من ملة ودين المنكرون للوحى والنبوات .

كما ذكر تقسيما واصفا إياه بالقسيم الضابط وهو أن نقول: —

(ا) من الناس من لايقول بمحسوس ولا معقول وهم السوفسطائية .

(ب) ومنهم من يقول بالمحسوس ولا يقول بالمعقول وهم الطبيعية(١) .

(ج) ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول،ولا يقول بحدود وأحكام أى عقلية وهم الفلاسفة الدهرية(١) .

(د) ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول وبالحدود والأحكام (العقلية) ويقول بالشريعة والإسلام وهم الصائبة .

(ه) ومنهم من يقول بهذه كلها(يعنى : بالمحسوس والمعقول والحدود والأحكام وبشريعة وإسلام) ولا يقول بشريعة المصطفى ﷺ، وهم اليهود والنصارى .

(و) ومنهم من يقول بهذه كلها وهم المسلمون .

وهذا التقسيم كما ترى قريب الشبه بتقسيم ابن حزم المذكور آنفا .

---

(١) يسميهم الشهرستانى فى موضع آخر من كتابة الملل أو النحل ص٩٣ بالطبيعين والدهريين ، ويسميهم الغزالى فى (المنقذ من الضلال) كما أوضحنا سلفا بالدهريين .

(١) العجب أن الإمام الشهرستانى نفسه يسميهم فى نفس كتابه الملل والنحل وقبل صفحة واحدة ص ٩٣ بالفلاسفة الإلهيين فيقول: ومن محصل نوع تحصيل قد ترقى من المحسوس وأثبت المعقول ، لكنه لايقول بحدود وأحكام وشريعة وإسلام،ويظن أنه إذا حصل المعقول وأثبت للعالم مبدأ ومعاداً وصل إلى الكمال المطلوب وهم الفلاسفة الإلهيون .

المسألة الخامسة

فى

انحصار فرق أهل الديانات دون أهل الأهواء

الفرق والمقالات تنقسم بالقسمة الأولى — كما قدمنا — إلى : أهل الديانات وأهل الأهواء .

أما أهل الأهواء فليست تنحصر مقالاتهم وفرقهم وطوائفهم فى عدد معـــلوم ، فإن ابتكار الأهواء وتجددها ، واستحداث المذاهب وتفتقها مستمر مادامت الإنسانية متنوعة الأمزجة والطباع ، مختلفة المدارك والعقول ، متفاوتة البيئة والنشأة ، فهم من أجل ذلك طوائف شتى ، كل حزب بما لديهم فرحون .

ثم إنه ليس بين أيدينا من شاهد قاطع ، أو نص من شارع نستطيع معه حصر أصحاب الآراء والأهواء ، واستيعاب مذاهبهم.

وأما أهل الديانات والملل من المجوس واليهود والنصارى والمسلمين،فإن انحصار فرقهم وانضباط عدد مقالاتهم مبنى على أمرين : —

الأول : صحة الأثر الوارد فى افتراق أهل الديانات (افترقت المجوس على سبعين فرقة واليهود على إحدى وسبعين فرقة والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة .

الثانى : الأخذ بظاهره واعتماد المتبادر من العدد المذكور فيه .

والعلماء فى ذلك فريقان : —

فريق يحاول جاهداً حصر أهل الديانات فى ذاك العدد الوارد فى المأثور

من افتراق أهل الديانات بناء على ما قلنا من التزامه بصحة ذلك المأثور وأخذه بظاهره رغم اختلافهم فى تعيين الفرق التى يملئون بها العدد المذكور .

ومن هؤلاء: صدر الدين أبو منصور عبدالقاهر البغدادى الاسفرائينى المتوفى عام ٤٢٦ هـ فى كتابه :(الفرق بين الفرق) ، فهو يذكر جملة من تلك الأحاديث الواردة فى افتراق أهل الديانات ، ويعقب عليها بقوله: للحديث الوارد فى افتراق الأمة أسانيد كثيرة ،وقد رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة كأنس بن مالك ، وأبى هريرة وأبى الدرداء وجابر ، وأبى سعيد الخدرى ، وأبى بن كعب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبى أمامة ووائلة بن الأسقع وغيرهم،ثم يبذل جهده فى حصر الفرق الإسلامية فى ثلاث وسبعين فرقة، فجعل الرافضة يعنى الشيعة عشرين فرقة،والخوارج عشرين ، والقدرية المعتزلة عشرين ، ثم ستة أصناف أخرى : مرجئة غير قدرية،وهم خمس فرق، نجارية مرجعها إلى ثلاث فرق،بكرية فرقة واحدة، ضرارية فرقة واحدة ، جهمية فرقة واحـــدة ، كرامية فرقة واحدة ، وأما المرجئة القدرية فمعدودون فى القدرية والمرجئة المائلون إلى قول جهم فهم فى الجهمية .

فهذه ثنتان وسبعون فرقة ، فأما الفرقة الثالثة والسبعون فهى أهل السنة والجماعة(١) .

---

(١) راجع ص ٢٣ — ٢٥ من الفرق بين الفرق ، هذا ، ويقول الشيخ البغدادى فى ختام تعديده للفرق مانصه : فهذه الجملة التى ذكرناها تشتمل على ثنتين وسبعين فرقة ، منها عشرون روافض ، وعشرون خوارج ، وعشرون قدرية ،وعشرون مرجئة، وثلاث: نجارية ،وبكرية وضرارية =

. . . .

ـــوجهمية وكرامية فهذه ثنتان وسبعون فرقة ، فأما الفرقة الثالثة والسبعون فهي أهل السنة والجماعة .

ويعلق فضيلة المحقق الشيخ محمد محي الدين عـلى قوله : فهذه ثنتسان وسبعون ... فيقول : إذا عددت هذا الإجمال الذى ذكره المؤلف على ظاهره كانت الفرق اثنتين وتسعين فرقة : أربعة أصناف كل صنف منها عشرون فرقة ، فذلك ثمانون فرقة وأربعة أصناف كل صنف منها ثلاث فرق فذلك اثنتا عشرة فرقة ، فلعل المؤلف يرى صنفين من ذوى العشرين صنفا واحداً له اسمان : كالقدرية والمرجئة ، وعلى هـذا يصح الحسـاب (هامش ص ٢٥ من الفرق بين الفرق) .

أقول : قول الشيخ محي الدين محقق كتاب الفرق بين الفرق فى تعليقه هذا : (فلعل المؤلف يرى صنفين من ذوى العشرين صنفاً واحداً له أسمان) غير صحيح ، والذى يبدو لى أن عبارة : (وعشرون مرجئة) من كلام البغدادي تصحيف من الناسخ ، والصحيح وخمس مرجئة حتى يتسق مع ماذكر قبل ذلك فى تفصيل المؤلف للفرق عقب ذكره للروافض والخوارج والقدرية والمعتزلة ، والمرجئة المعدودين فى القدرية ، والمرجئة المعدودين فى الجهمية حيث يقول: وصنف منهم (أى من المرجئة) خالصة فى الإرجاء من غير قدر وهم خمس فرق .

وغفلة الشيخ المحقق عن ذلك جره إلى خطأ آخر هو قوله بعد: (وأربعة أصناف كل صنف منها ثلاث فرق) فليس فى كلام البغدادى ذلك بل نصه أن النجارية مرجعها فى الأصل إلى ثلاث فرق ثم (أربعة أصناف كل صنف منها فرقة واحدة : بكرية ، وضرارية ، وجهمية ، وكرامية (راجع فى ذلك ص ٢٣ — ٢٥ من كتاب الفرق بين الفرق تحقيق فضيلة المرحوم الشيخ محي الدين عبد الحميد .

والإمام الحجة أبو المظفر الإسفرائيني المتوفى ٤٧٠ هـ الذي يحذو فى كتابه (التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية من الفرق الهالكين) حذو أبي منصور البغدادي فى كتابه (الفرق بين الفرق) لاسيما تجاه قضيتنا هذه من حصر الفرق الإسلامية فى التفصيل والإجمال .

والإمام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى ٥٤٨ هـ فى كتابه الملل والنحل .

وفريق آخر يطرح هذا الحصر ولا يشق على نفسه فى ضبط فرق أهل الديانات من أصحاب المقالات والفرق الإسلامية حيث يسردها سرداً دون أن يتكلف حصرها أو يعرج على ضبطها فى عدد معلوم مسبقاً .

وهؤلاء صنفان: صنف لم يتعرض لتلك الأحاديث المأثورة فى افتراق أهل الديانات بنفي ولا إثبات ومن هؤلاء :

شيخ أهل السنة والجماعة الإمام أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى المتوفى فى عام ٣٣٠ من الهجرة صاحب كتاب (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين) .

الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين المعروف بفخر الدين الرازى المتوفى فى عام ٦٠٦ من الهجرة وهو صاحب كتاب (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) .

فقد ألف كل منهما كتابه فى ذلك من غير أن يعرض لهذا الحديث ، وإن سعى فخر الدين إلى توهين هذا الحديث فى تفسيره(١) .

وآخرون تعرضوا له ولم يصححوه فلم يأخذوا به ومن هؤلاء كما يقول

---

(١) أنظر مقدمة كتاب التبصير فى الدين لفضيلة الشيخ زاهد الكوثرى.

الشيخ زاهد الكوثرى الإمام أبو محمد على بن حزم الأندلسى الظاهرى المتوفى فى سنة٤٥٦ من الهجرة حيث يقول فى كتاب الإيمان من الفصل: ذكروا حديثاً عن رسول الله ﷺ أن القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة ، وحديثاً آخر تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة كلها فى النار حاشى واحدة ، قال أبو محمد : هذان حديثان لا يصحان أصلا من طريق الإسناد(١) .

(١) انظر المرجع السابق . هذا ، وقد رجعت إلى الفصل الموجود بين أيدينا فلم أجد به شيئا من ذلك .

المسألة السادسة
فى
الأحاديث الواردة فى افتراق الأمة
وموقف العلماء منها

يقول الإمام الشهرستانى فى المقدمة الأولى من كتابه (الملل والنحل):

«وأهل الديانات قد انحصرت مذاهبهم بحكم الخبر الوارد فيها: فافترقت المجوس على سبعين فرقة، واليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، والمسلمون على ثلاث وسبعين فرقة والناجية أبداً من الفرق واحدة».

ويعقد أبو منصور البغدادى الباب الأول من كتابه (الفرق بين الفرق) فى ذكر ثلاث من تلك الأحاديث الواردة فى افتراق الأمة، فيقول:

١ — أخبرنا أبو سهل بشر بن أحمد بن بشر الأسفرئينى قال: أخبرنا عبد الله بن ناجية، قال: حدثنا وهب بن بقية، عن خالد بن عبد الله، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة».

٢ — أخبرنا أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن على بن زياد السمدى المعدل الثقة، قال: أخبرنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار، قال: حدثنا الهيثم بن خارجة، قال حدثنا إسماعيل بن عباس عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: ليأتين على أمتى ما أتى على بنى اسرائيل، تفرق بنو اسرائيل على اثنتين وسبعين ملة، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة تزيد عليهم ملة،

كلهم فى النار إلا ملة واحدة ، قالوا : يارسول الله ، وما الملة التى تتغلب قال ما أنا عليه وأصحابى » .

٣ — أخبرنا القاضى أبو محمد عبدالله بن عمر المالكى قال : حدثنا أبى عن أبيه ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدثنا الأوزاعى ، قال: حدثنا قتادة ، عن أنس ، عن النبى ﷺ قال : إن بنى إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة » .

الكلام عن الأحاديث الواردة فى أفتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة:

يتناول الكلام عن هذه الأحاديث نواحى أربع :

الأولى : تتصل بتعرض هذه الأحاديث للفرقة أو الفرق الناجية أو الهالكة أو إغفالها إياها

الثانية : فى تحديد المراد من العدد والأمة الواردين فى هده الأحاديث.

الثالثة : فى مدى ثبوت تلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ .

الرابعة . فى بيان الناجية والهلكى من الفرق .

١ — فمن حيث الناحية الأولى: فإنه قد وردت أحاديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة على وجوه كثيرة يتفاوت معها المعنى غاية التفاوت.

(١) فمنها مانص فيه على أن الناجية منها واحدة والباقين هلكى ، فعن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ ليأتين على أمتى ما أتى على بنى اسرائيل ، تفرق بنو اسرائيل على اثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة تزيد عليهم ملة ، كلهم فى النار إلا واحدة ، قالوا : يارسول الله وما الملة التى تتغلب ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى .

وعن أنس عن النبي ﷺ قال إن بني اسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة وإن أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة .

(ب) ومنها مانص فيه على أن الهالكة منها واحدة والباقين ناجون فعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : تفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة كلها فى الجنة إلا الزنادقة .

(ج) ومنها ما اقتصر على افتراق الأمة على ثلاث وسبعين دون مانص على الهالك أو الناجى منها : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة (١) .

٢ — أما الناحية الثانية الخاصة بتحديد المراد من العدد والأمة :

(ا) فمن حيث الأمة .

يرى البعض أنها أمة الدعوة

وآخرون أنها أمة الإجابة

(ب) ومن حيث المراد من العدد .

فذهب البعض أن العدد المذكور فى تلك الأحاديث لمجرد التكثير كما فى قوله تعالى : « فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا » .

ويرى الإمام الرازى أن افتراق الأمة ليس محصورا فى ثلاث وسبعين فرقة، ويجيب عما روى عن رسول الله ﷺ على احتمال صحة هذه الأحاديث

---

(١) انظر هذه الأحاديث فى : الفرق بين الفرق للبغدادى ص٤ وتقديم المحدث الشيخ زاهد الكوثرى ص ه على كتاب التبصير فى الدين لأبى المظفر الأسفرائينى .

١ — بجواز أن يكون مراده ﷺ من ذكر الفرق الكبار .

٢ — وأيضا فانه أخبر أنهم يكونون على ثلاث وسبعين فرقة فلم يجز أن يكونوا أقل أما إن كانوا أكثر فلا يضر ذلك (١) .

وذهب آخرون إلى التزام حصر الفرق فى العدد المذكور ويقول : فضيله الشيخ زاهد الكوثرى معلقا على هذا الرأى ومنتقدا إياه: لكن قلما تجد اتفاقا بينهم فى الفرق التى يملأون بها العدد المذكور فدونك كتاب « رد الأهواء والبدع » لأبى حسين الملطى المتوفى سنة ٣٨٧ وكتاب « الفرق بين الفرق » لأبى منصور عبد القاهر بن طاهر التميمى البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ وكتاب « التبصير » لأبى المظفر الأسفرايني المتوفى ٤٧١ وكتاب « الملل والنحل » لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى المتوفى سنه ٥٤٨ ، وغنية الجيلى وشرح المواقف ، وخطط المقريزى ، ونشر الطرالع وغير ذلك مما لا يحصى من الكتب التى تذكر فيها الفرق تجد أصحابها يختلفون فى تحديد الفرق فى صدد إكمال ذلك العدد بدون زيادة ولا نقصان .

ثم يقول : والأجدر بالقبول عند من يرى صحة الحديث أن لا يتقدم بالحكم على مراد الرسول صلوات الله عليه بدون حجة ظاهرة ، بل المتحتم أن نقول إن الناجى هو من كان على ما عليه الصحابة رضى الله عنهم والسواد الأعظم من التمسك بما ثبت من الدين بالضرورة وأن الباقين على ضلال ، لأن تشعب الفرق لا ينتهى إلى إنتهاء تاريخ البشر فلا يصح قصر العدد على فرق دون فرق ولا على قرن دون قرن لاستمرار ابتكار الأهواء وتلفيق الآراء مدة دوام الحياة البشرية فى هذا العالم فالكلام فى الفرق كلها من غير

---

(١) أعتقادات فرق المسلمين المشركين للإمام الرازى ص ٧٤ ، ٧٥ تحقيق الدكتور النشار

تقيد بعدد هو الأبعد عن التحكم وهو الذى لا يكون مدعاة لهزء الهازئين من غير أهل هذا الدين(١) .

٣ — وأما من حيث مدى صحة رواية هذه الأحاديث عن رسول الله ﷺ فقد روى أبو داود والترمذى وابن ماجه حديث أبى هريرة : «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وإفترقت النصارى على أثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » .

وفى رواية لأبى داود والحاكم بزيادة (ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة) .

ويقول الحاكم فى المستدرك بعد أن أخرج هذا الحديث مدعما أياه ومصححا له : هذا من شرط مسلم .

أما الإمام الذهبي فيذكر فى استدراكه على الحاكم أن من رواة هذا الحديث محمد بن عمرو الليثى وهو ممن لا يحتج به منفرداً ولكن مقرونا بغيره .

ولا يتوقف ابن حزم فى الحكم بعدم صحة هذا الحديث رغم إخراج أبى داود ، والترمذى وابن ماجه له ، يقول الشيخ زاهد الكوثرى : « ولعل ذلك من جهة وجود محمد بن عمرو الليثى بين رواته وهو ممن أخرج له الشيخان فى المتابعات فقط ومثله لايحتج بحديثه إذا لم يتابع .

ويقول ابن الوزير فى «العواصم والقواصم» : (إياك أن تغتر بزيادة كلها فى النار إلا واحدة فإنها زيادة فاسدة ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة) .

---

(١) ص ٤ من تقديم الشيخ الكوثرى لكتاب : التبصير فى الدين .

وذكر الشيخ الكوثرى أن الشمس البشارى بعد أن عدد فى كتابه : (أحسن التقاسيم) فرق الأمة ، ذكر حديثا عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « تفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة كلها فى النار إلا الزنادقة » وحديثا آخر فيه : « ثنتان وسبعون فى النار وواحدة ناجية » .

ثم قال البشارى : هذا أشهر ، يعنى : « ثنتان وسبعون فى النار وواحدة ناجية » والأول أصح إسناداً

ويقول الشيخ الكوثرى : وسعى العجلونى فى التوفيق بين الحديثين بحمل أحدهما على الابتداء والآخر على الانتهاء .

هذا ، وقد صحح الشيخ الألبانى فى (سلسلة الأحاديث الصحيحة) ذلك الحديث الذى به تلك الزيادة « ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة » كما أدرج فى (سلسلة الأحاديث الضعيفة) الحديث الذى ورد بزيادة : « كلهم فى الجنة إلا فرقة واحدة » واصفا إياها بالبطلان ، ومن حاول تصحيحها بأنهم بعض ذوى الأهواء من المعاصرين .

المسألة السابعة

في

(ا) تعيين المخطىء والمصيب .

(ب) والناجية والهلكى من تلك الفرق المختلفة في الأصول وذلك بيت القصيد :

وهو يقتضينا بادىء ذى بدء أن نوضح :

(ا) الأصول في الدين والفروع .

(ب) كون المصيب من المجتهدين في الأصول واحداً أو أكثر .

الأصول والفروع :

ما يتعلق به الاعتقاد المعرفة من قضايا الدين فهو من الأصول ، وما يتصل بالطاعـة والامتثال فهو من الفروع ، أعني من فروع وثمار معرفته تعالى التي هي من الأصول .

وقال بعض العقلاء : « كل ما هو معقول ويتوصل إليه بالنظر والاستدلال فهو من الأصول وكل ماهو مظنون ويتوصل إليه بالقياس[1] والاجتهاد فهو من الفروع .

(١) أي القياس الفقهي ، وهو المسمى (التمثيل) وهو الحاق واقعة لم ينص على حكمها صراحة في القرآن والسنة والإجماع بواقعة ورد نص بحكمها في واحد من المصادر الثلاثة المتقدمة ، على أساس اشتراك الواقعتين في علية الحكم .

وقال بعض المتكلمين مفصلا بعض تفصيل : « الأصول معرفة البارى تعالى بوحدانيته وصفاته ، ومعرفة الرسل بآياتهم وبيناتهم، وبالجملة كل مسئلة يتعين الحق فيها بين المتخاصمين فهى من الأصول »(١)

وهى تعاريف للأصول والفروع قريب بعضها من بعض ، لا تكاد تختلف إلا فى اللفظ والمبنى دون المضمون والمعنى فذكرنا إياها لزيادة التوضيح والبيان .

وفى هذا الإطار من تلك التعاريف تتناول الأصول :

(أ) معرفة الله تعالى والإيمان به وبما يجب وما يستحيل عليه ومايجوز فى حقه سبحانه من الصفات :

(ب) معرفة الرسل والإيمان بهم وبما يجب ومايجوز لهم وما يستحيل عليهم من الصفات .

(جـ) الإيمان بالسمعيات من مثـــل : البعث والحشر والحساب ، وتتناول الفروع : آداء الصلاة والصيام وإخراج الزكاة والنهوض بأعمال الحج ، وماإلى ذلك من أنواع الطاعات ،

هذا . ومن تكلم فى المعرفة والتوحيد كان أصوليا ، ومن تكلم فى الطاعة والشريعة كان فروعيا

والأصول هى موضوع علم الكلام. والفروع موضوع علم الفقه .

---

(١) الملل والنحل ١ / ٥١ هامش الفصل

أما كون المصيب من المجتهدين فى الأصول واحداً أو أكثر :

« فعامة أهل الأصول على أن الناظر فى المسائل الأصولية والأحكام العقلية اليقينية القطعية يجب أن يكون متعين الإصابة ، فالمصيب فيها واحد بعينه(١) . ومستندهم فى ذلك من العقل والسمع »

---

(١) أما المجتهدون فى المسائل الفرعية مما يسمى بالشرعيات والفقهيات فقد يمكن تصويب كل مجتهد فيها حيث كانت أموراً وضعية اصطلاحية تختلف بأوضاع الأنبيـــاء والأعصار والأمم كما نرى ذلك فى الشرائع المختلفة .

وإنما يبتنى ذلك على أصل هو : هل لله تعالى حكم فى كل حادثة أم لا ؟

فمن الأصوليين من صار إلى أن لاحكم لله فى الوقائع المجتهد فيها قبل الاجتهاد ، وبناء على ذلك ، فكل مجتهد مصيب حكم الله تعالى فى حق نفسه ومقلديه ، حيث كان حكمه سبحانه أن يتبع المجتهد غالب ظنه فى كل واقعة ، وقد اتبع ، وبتعبير آخر : حيث كان حكمه تعالى فى حق المجتهد ومقلدية ماأدى إليه اجتهاده .

ومنهم من صار إلى أن له تعالى حكماً بعينه قبل الاجتهاد من جواز وحظر وتحليل وتحريم ، وإنما يرتاده المجتهد بالطلب ويفتش عنه بالاجتهاد

وعلى هذا الرأى : المصيب واحد المجتهدين فى الحكم المطلوب ، وإن كان الثانى معذورا نوع عذر ، إذ أنه لم يقصر فى الاجتهاد ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد »

(راجع الملل والنحل ٢ / ٤٣ ، وفضائح الباطنية ص ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠)

أما العقل : فهو أنه لايجوز أن يختلف المختلفان فى حكم عقلى حقيقة الاختلاف بالنفى والإثبات على شرط التقابل المذكور فى محله .

بحيث ينفى أحدهما ماأثبته الآخر بعينه

من الوجه الذى يثبته

فى الوقت الذى يثبته

إلا وأن يقتسما الصدق والكذب والحق والباطل،سواء أكان الاختلاف بين أهل الأصول فى الإسلام أم بين أهل الملل والنحل الخارجة عن الإسلام .

فإن المختلف فيه (عند الفريقين) لايحتمل توارد الصدق والكذب والصواب والخطأ عليه فى حالة واحدة ، وهو مثل قول أحد المخبرين :زيد فى هذه الدار فى هذه الساعة ، وقول الثانى : ليس زيد فى هذه الدار فى هذه الساعة .

أما إذا لم يتوارد النفى والإثبات على معنى واحد من جميع الجهات وبكافة الاعتبارات فقد يمكن حينئذ تصويب المتنازعين ويصبح النزاع والخلاف مما يقول فيه العلماء إنه خلاف لفظى .

مثال ذلك خلاف أهل الكلام فى مسألة (الكلام) فإن الذى قال هو مخلوق أراد به أن الكلام هو الحروف والأصوات فى اللسان والرقوم والكلمات فى الكتاب قال : وهذا مخلوق .

والذى قال ليس بمخلوق لم يرد به الحروف والرقوم ،وإنما أراد معنى آخر ، فلم يتوارد التنازع فى الخلق على معنى واحد .

وكذلك فى مسئلة الرؤية فإن النافى قال:الرؤية اتصال شعاع بالمرئى ، وهو لايجوز فى حق البارى تعالى .

والمثبت قال : الرؤية إدراك أو علم مخصوص ويجوز تعلقـه بالبارى تعالى فلم يتوارد النفي والإثبات على معنى واحد(١)

وأما مستندهم من السمع :

« فمن الكتاب قوله تعالى : « وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » .

ومن السنة : ما أخبر به النبي ﷺ من قوله : «ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة الناجية منها واحدة والباقون إهلكى ، قيل : ومن الناجية ؟ قال : أهل السنة والجماعة ، قيل : ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال : ماأنا عليه اليوم وأصحابى »

وقوله ﷺ : لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « لاتجتمع أمتى على ضلالة »(٢)

وقد خالف أبو الحسن العنبرى عامة أهل الأصول فيما ذهبوا إليه من وجوب كون المصيب من المجتهدين فى الأصول واحدا ، قائلا :

« إن كل مجتهد ناظر فى الأصول مصيب لأنه أدى ما كلف به من المبالغة فى تسديد النظر فى المنظور فيه ، وإن كان متعينا(٣) نفيا وإثباتا إلا أنه أصاب من وجه »(٤)

---

(١) أنظر فى ذلك الملل والنحل ٢ / ٤٠ ، ٤١ هامش الفصل
(٢) المرجع السابق ١ / ٥١
(٣) أى : المنظور فيه
(٤) أى : من وجه مبالغته فى تسديد النظر فى المنظور فيه

قال الإمام الشهرستاني معقبا وموضحا : «وإنما ذكر هذا في الإسلاميين من الفرق ، أما الخارجون عن الملة فقد تقررت النصوص والإجماع على كفرهم وخطئهم ، وكان سياق مذهبه يقتضى تصويب كل ناظر مجتهد على الإطلاق ، إلا أن النصوص والإجماع صدته عن تصويب كل ناظر ، وتصديق كل قائل »(١)

هذا ، ولا أرى خلافا حقيقيا بين عامة أهل الأصول والشيخ أبي الحسن العنبري :

فنظرة الأصوليين إلى : المنظور فيه وكونه أمراً عقلياً ، وذلك مما يستحيل توارد النفي والإثبات عليه بشرط التقابل الحقيقي دون ما ريب

ونظرة العنبري إلى : الناظر المجتهد ، وكونه قد أدى ما في طاقته من تسديد النظر وبذل الجهد في المنظور فيه فصوبه من هـــذا الوجه ، مع تصريحه بكون المنظور فيه متعينا نفيا وإثباتا مما هو محل وفاق بين الجميع

وبناء على ذلك فلم يتوارد النفي والإثبات على أمر واحد مما يرفع الخلاف الحقيقي .

---

(١) وربما نقل عن بعضهم ما يقتضيه سياق مذهبه من تصويب كل ناظر مجتهد في الأصول على الاطلاق في الصحائف الإلهية لشمس الدين السمرقندي «وأجمعوا — أي المعتزلة — على أن وعيد الكافر المعاند دائم ، وأما الكافر الذي بالغ في الاجتهاد ولم يصل إلى الحق فزعم الجاحظ والعنبري أنه ينقطع لأنه معذور لقوله تعالى : «ما جعل عليكم في الدين من حرج» وأنكر الباقون وادعوا فيه الإجماع» ص ٤٥٩، ٤٦٠ تحقيق د/ أحمد الشريف هذا والعنبري هو معاذ بن معاذ بن نصر بن حسان العنبري التميمي قال فيه ابن حنبل : ما رأيت أعقل من معاذ كأنه صخرة ولد سنة ١١٩ هـ وتوفى بالبصرة سنة ١٩٦ هـ تاريخ بغداد ١٣/١٣١ ، الاعلام ٨/١٦٧ .

وذلك فيما عدا ما يؤدى إليه نظر (العنبرى) من القول بإيمان ونجاة جميع المختلفين من المجتهدين الإسلاميين فى الأصول بناء على تصويبهم من حيث بذلهم الجهد فى تسديد النظر فى المنظور فيه ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها وكما ينبىء عنه تعقيب الشهرستانى فى قوله : وإنما ذكر هذا فى الإسلاميين من الفرق ، أما الخارجون عن الملة فقد تقررت النصوص والإجماع على كفرهم وخطئهم »

أما تعيين المصيب والمخطئين ثم الناجيـــة والهالكين من تلك الفرق المختلفة فى الأصول .

فقد يكون من السهل الميسور فى البداية بيان ذلك بالنص الوارد عن النبى ﷺ فى افتراق الأمة .

فالمصيب المستمسك بالسنة المجانب للبدعة المترسم هدى الخلفاء المهديين الراشدين العاضين على ذلك بالنواجذ .

والمخطئون هم المنحرفون الزائغون عن السنة المفارقون للجماعة المفرطون فى جنب الله .

غير أن كلا من الفرق المنتسبة للإسلام، الغالية المفرطة فى الغلو ، والمفرطـة المسرفة فى التفريط على سواء، تداعى وصلا وثيقا بالسنة وانتسابا لصيقا بالسلف الصالح من خيار الأمة « ومامن مسلم إلا يتحرى اتباع الرسول فيما يرى ويفعل ، إن السلف والخلف وأهل السنة والشيعة والمتصوفة والمتفلسفة كلهم يرى أنه يخـدم الإسلام ويناصر نبيه ويرفع رايته ومن ثم فهو على صواب ورشد .

ومن الصعب إقناع الحرفيين من أهل النص بأن مذهب العقليين أولى بالحق وكذلك العكس .

ومن الصعب إقناع العاطفيين من أصحاب القلوب أن مـذهب أهل الفقه أدق وأجدر بالاستمساك وكذلك العكس :

ومن الصعب إقناع الشيعة الذائبين فى محبة آل البيت أن النظام الجمهورى فى اختيار الإمام وعزله أولى من الالتفاف حول قريب للرسول تضفى عليه العصمة ، وكذلك العكس »(١)

ومن أجل ذلك يعود الأمر جذعا والسهل صعبا ممتنعا ! !

فما الفيصل والجميع يؤكد فى إصرار أن مبادئه التى ينادى بها وتعاليمه التى يمضى عليها ، هى ما كان عليه النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضى الله عنهم ؟

وما المعالم البارزة التى تحسم المسألة ، وتقطع قول كل خطيب ، وتميز الخبيث من الطيب ، وسط هذا الخضم الهائل من الدعاوى والشارات ؟

ومن أجل ذلك فعلينا أن نبحث آراء هؤلاء المخالفين لنـــا فى ضوء نصوص الدين الصريحة ما أمكن ، وفى إطار من الهدوء والحيدة والتجرد من الهوى والغرض ، ونناظرهم فى رفق ولين بعيداً عن الشغب والاتهامات والمزايدات الرخيصة ، اتباعا لقول الحق تعـالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحـكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

حتى يتبين مواضع الخطأ وجوانب الزلل فنتقى ، أو نصيب الصواب والسداد ، ونهتدى جميعا بتوفيقه تعالى إلى الصلاح والرشاد ، ذلك أمرنا وأمر المخالفين لنا فى الدنيا :

---

(١) انظر الشيخ الغزالى فى كتابه دفاع عن العقيدة والشريعة ص ٢٠٨

أما من حيث الناجية والهلكى فى الآخرة من بين تلك الفرق المعروفة فى الإسلام ففى ضوء ماذهب إليه أبو الحسن العنبرى من تصويب كل مجتهد(١) فى الأصول وماأثبتناه قريبا من تعقيب الشهرستانى على مذهب العنبرى تصبح تلك الفرق من الناجية، بناء على كونها مصيبة فى اجتهادها

---

(١) تحدث الشهرستانى عن حكم الاجتهاد، ومستنده وشروطه :
فقال فى حكمه : إن الاجتهاد واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة حكم (وذلك حيث كانت النصوص متناهية والوقائع غير متناهية وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى)

أما مستند الاجتهاد فيقول فيه : « ثم لايجوز أن يكون الاجتهاد مرسلا خارجا عن ضبط الشرع، فإن القياس المرسل شرع آخر، وإثبات حكم من غير مستند وضع آخر، والشارع هو الواضع للأحكام، فيجب على المجتهد أن لايعدو فى اجتهاده عن هذه الأركان » .

(يعنى الكتاب والسنة والإجماع) .

ويقول فى شرائط الاجتهاد (بتلخيصنا) إنها خمسة :

(أ) معرفة قدر صالح من اللغة يتمكن معه من فهم كلام العرب والتمييز بين الحقيقة والمجاز، والنص والظاهر، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمفصل ودلالة المطابقة ودلالة التضمن وما إلى ذلك .

(ب) معرفة تفسير القرآن خصوصاً مايتعلق بالأحكام، وماورد من الأخبار فى معانى الآيات .

(جـ) ثم معرفة الأخبار بمتونها وأسانيدها، والإحاطة بأحوال النقلة والرواة عدولها وثقاتها ومطعونها ومردودها إلخ .

(د) ثم الفرق بين الواجب والندب والإباحة والحظر والكراهة . =

لتحصيل مبادئها وعقائدها حيث أدت ما كلفت من المبالغة فى تسديد النظر فى المنظور فيه على قدر وسعها :

وفى إطار ماذهب إليه عامة أهل الأصول من كون المصيب واحدا فبعضهم كفر المخطىء : والبعض ضلل .

يقول الشهرستانى : وللأصوليين خلاف فى تكفير أهل الأهواء مع قطعهم بأن المصيب واحد بعينه ، لأن التكفير حكم شرعى والأحكام الشرعية وضعية اصطلاحية تختلف بأوضاع الأنبياء والأعصار والأمم والتصويب حكم عقلى (يعنى لا يقع فيه خلاف ومن ثم كان القطع بأن المصيب واحد بعينه) فن مبالغ متعصب لمذهبه كفر وضلل مخالفه(١) ، ومن متساهل متألف لم يكفر .

ومن كفر قرب كل مذهب ومقالة بمقالة واحد من أهل الأهواء والملل كتقريب القدرية بالمجوس ، وتقريب المشبهة باليهود ، والرافضة بالنصارى فأجرى حكم هؤلاء فيهم من المناكحة وأكل الذبيحة ، ومن تساهل ولم يكفر قضى بالتضليل وحكم بأنهم هلكى فى الآخرة(٢)

= (٥) ثم معرفة مواقع إجماع الصحابة والتابعين من السلف الصالحين حتى لا يقع اجتهاده فى مخالفة الإجماع والتهدى إلى مواضع الأقيسة وكيفية النظر .

(١) ضلل : مرادف كفر كما يتبين من حكايته لمسلك الطائفة الأخرى المتساهلة غير المتعصبة .

(٢) الملل والنحل ج ٢ ص ٤٢ هامش الفصل ، هذا والمراد من التضليل فى قوله : قضى بالتضليل ، مادون التكفير كما هو واضح من السياق وبناء على ذلك فالمراد من كونهم « هلكى فى الآخرة » أنهم معذبون على قدر خطئهم الذى هو نتيجة تقصيرهم

وأكبر الظن فى رحمة الله التى وسعت كل شىء ، أن لا تضيق بتلك الجماعات الإسلامية التى بذلت وسعها فى إخلاص ، وانفقت كل جهدها فى صدق باحثة عن الحق، منقبة عن الصواب ، مستهدفة تنزيه المولى عز وجل وتقديس صفاته « فما حالفها التوفيق ، وما بلغت ما عقدت عليه العزم ، من إصابة السنة ، ومجانبة البدعة »

إن الرجاء كبير فى رحمة الله البر الرحيم أن تشمل هؤلاء الباحثين المخلصين فى اجتهادهم، الجادين المتجردين فى تفكيرهم إذا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ثم تكافأت لديهم الأدلة ، واشتبهت عليهم المعالم، والتبست السبل، وصعب الأمر، فأخطأوا الحق ، وزلت بهم القـــدم ، حيث كانوا من المسارعين فى الخيرات الساعين طاقتهم فى الصالحات

وصدق المولى فى قوله : « ولا نكلف نفسا إلا وسعها »

وصدق رسوله عليه الصلاة والسلام فى قوله « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى »

ورحم الله الإمام الأجل على بن أبى طالب رضى الله عنه القائل فيما يروى عنه :

« لا تقاتلوا الخوارج بعدى، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه »

فإذا صح ذلك المعيار وسلم ذلك الميزان ، وأراه صحيحا سليما ، أمكن القول بأن الفرقة الناجية هى تلك التى طلبت الحق فى إخلاص وصدق وتجرد ، واستفرغت وسعها أن تترسم سنة المصطفى صلوات الله وتسليماته عليه ومنهج السلف الصالح رضى الله عنهم ، أصابت ذلك بتوفيق الله تعالى أم أخطأته رغما عنها ما دامت مستمسكة بما علم من الدين بالضرورة .

يقول الشيخ محمد الغزالى فيما كتبه عن حديث افتراق الأمة ، قيمته ومعناه : « ومن ثم فالفرقة الناجية فى الحديث الذى رويناه مع التسليم بصحته ، ليست طائفة بعينها من الطوائف التى عرفت بعنوان خاص فى تاريخ الأمة الإسلامية الطويل ، إنها تضم طلاب الحق من كل ناحية ، وإن أخطأوا له الطريق ، ما داموا خالصى النية ، حراصا على جماعة المسلمين، مؤدين لفروض الصلاة والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،

وسائر شرائع الإسلام ، وأما الفرق الأخرى التى قال الحديث : إنها فى النار ، فهى الطوائف المغشوشة النية ، وإن أصابت الحق ، والتى لم تبال فى سبيل أثرتها أن تقاتل على ملك تناله ، أو دنيا تستمتع بها ، مع إهمال لما شرع الله سبحانه من أمر ونهى[1] .

ويقول المرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى فى كتابه : (مالا يجوز فيه الخلاف «عقد الشيخ جمال الدين القاسمى الدمشقى فى كتابة » تاريخ الجهمية والمعتزلة » الموجود بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٨٤٢ قسم التاريخ فصلا فى بيان أن المعتزلة والمرجئة وكثيراً غيرهم من الفرق الإسلامية مجتهدون لهم ما للمجتهدين من أجر وعذر .

فكما أن اسم الاجتهاد يتناول فى العرف فروع الفقه فكذلك يتناول مسائل الكلام لعموم مفهوم الاجتهاد لغة واصطلاحا ووجوداً .

وكيف لا تعد فرق المجتهدين فى الأصول من المجتهدين ، وهى تستدل على دعواها بالقرآن والسنة ، وترى أن ما ظهر لها منهما هو الحق دون سواه .

ولما تشابهت الآيات والأحاديث فى مثل رؤية الله سبحانه ، وفى

---

(١) دفاع عن العقيدة والشريعة ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

مثل إيجاد الإنسان لأعمال نفسه ، وفى مثل القرآن قديم أو محدث،ذهب كل فريق إلى ما رآه أوفق لكلام الله ورسوله وأليق بعظمته .

فكانوا لذلك مجتهدين، وفى اجتهادهم مأجورين،وإن كانوا فىالقرب من الحق متفاوتين .

ثم قال : ولا يصح ذم أهل الفرق على الإطلاق ، فقد تلقى أئمة الحديث على كثير منهم ، وحملوا السنة النبوية عنهم ، وجعلوها فى ذلك حجة بينهم وبين ربهم .

وقد روى البخارى ومسلم وغيرهم عن عدد كبير من المعتزلة والأباضية والمرجئة والشيعة ، كما تراه فى مقدمة « فتح البارى لشرح صحيح البخارى(١)» و (التدريب شرح التقريب) للسيوطى و (ميزان الاعتدال) للذهبى ،

وقد قال الإمام أحمد رضى الله عنه : « لو تركنا الرواية عن المعتزلة لتركنا أكثر أهل البصرة » .

وقال ابن تيمية : « كان منهم خلق كثير من العلماء والعباد »

وأخرج لهم البخارى ومسلم ، وقد اشتهر بين العلماء أن من كان منهم داعية إلى بدعة لم يرووا عنه ، ولكن العراقى اعترض ذلك بأن البخارى ومسلم احتجا بالدعاة من أهل الفرق .

فاحتج البخارى بعمران بن حطان الخارجى ، واحتج هو ومسلم بعبد الحميد بن عبد الرحمن الحمانى ، وكان داعية من دعاة المرجئة .

---

(١) أنظر ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٤٥٩ من مقدمة فتح البارى مكتبة الرياض الحديثة ،

ثم قال القاسمى : وبالجملة فكون هذه الفرق مجتهدة لها ما للمجتهد أمر لا يرتاب فيه منصف .

ويقول ابن رشد مختتما تحقيقه وتعقيبه على اختلاف المتكلمين والحكماء المتقدمين فى مسألة قدم العالم وحدوثه .

« ويشبه أن يكون المختلفون فى هذه المسائل العويصة إما مصيبين مأجورين وإما مخطئين معذورين ، فإن التصديق بالشيء من قبل الدليل القائم فى النفس هو شيء اضطرارى لا اختيارى ، أعنى أنه ليس لنا أن نصدق أو لا نصدق كما لنا أن نقوم أو لا نقوم ، وإذا كان من شرط التكليف الاختيار ، فالمصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له إذا كان من أهل العلم معذور ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر » .

المسألة الثامنة

في
أقطاب الخلاف ومسائله عند أصحاب الفرق الإسلامية

مما تفرد به الإمام الشهرستاني فيما أعلم ممن كتبوا في الفرق ومذاهب أهل الإسلام في الأصول إهتمامه بوضع منهاج محدد المعالم يمكن في ضوئه حسبما يرى حصر فرق المصلين وأصحاب المقالات من المسلمين في ثلاث وسبعين فرقة كما ورد في الأحاديث المروية عن الرسول ﷺ المذكورة سلفـا .

وقد جهد رحمه الله في بيان قواعد الافتراق وأصول الاختلاف بين متكلمي المسلمين وحصرها في قواعد وأقطاب أربعة الأمر الذي ينبني عليه بالتالي حصر الفرق الكبار في أربعة ليس غير هي : القدرية يعني المعتزلة ومقابلها الصفاتية ، والشيعة وخصماؤها الخوارج .

ثم يتشعب من كل منها شيع وأفراق تصل إلى ثلاث وسبعين فرقة .

وإنما أمكن حصر ذلك في أقطاب أربعة بناء على أن اختلاف أصحاب الفرق من متكلمي المسلمين إما أن يكون مرده إلى :

(أ) ذات الحق تعالى من حيث الصفات ، إثباتا عند جماعة، ويسمون الصفاتية ، ونفيا عند آخرين ممن يسمون أنفسهم بأهل التوحيد من القدرية والجهمية .

ويعبر الإمام الشهرستاني عن هـــذا القطب أو الأصل :(بالصفات والتوحيد ، ويذكر أنه يندرج فيه المسائل الآتية :

١ — الصفات الأزلية .

٢ — بيان صفات الذات وصفات الفعل .

٣ — ما يجب لله تعالى وما يجوز عليه وما يستحيل .

(ب) وإما أن يكون مرده إلى :

ذاته تعالى من حيث ما يصـــدر عنه : فهل الله خالق لأفعال العباد الاختيارية أم لا ؟ وهل يريد الخير والشر جميعاً أم الخير فقط ؟

ويعبر الإمام الشهرستانى عن هـذا الأصل : بالقدر والعدل ، ويذكر أن أهل السنة يحددون العدل بأنه : وضع الشيء فى موضعه ، وهو التصرف فى الملك على مقتضى المشيئة والعلم ، والظلم ضد ذلك ، وبناء على ذلك فلا يتصور منه تعالى جور فى الحكم وظلم فى التصرف ؛ حيث كان الكل ملكا له متصرف فيه بمشيئه وعلمه .

وأما المعتزلة فيحددون العدل بأنه : ما يقتضيه العقل من الحكمة ويحكم به من المصلحة .

ويذكر أنه يندرج فى هـذا الأصل المسائل الآتية : القضاء والقدر ، الجبر والكسب ، إرادة الخير والشر . . الخ إثباتا عند جماعة ونفيا عند جماعة .

(ج) وأما القطب الثالث ، فهو مبنى ومرتبط بالقطب الثانى ؛ حيث كان مداره على إثابة الله تعالى لعباده وعقابه لهم بناء على ما صدر عنهم من أفعال ، وهل ذلك مما يجب شرعا فقط . حيث كان سبحانه هو الخالق الحقيق لأفعالهم ؟

أو ممـــا يجب ويتحتم عقلا ؛ حيث كانوا هم الخالقين لأفعالهم الموجدين لها .

ويعبر الشهرستانى عن هذا الأصل بالوعد والوعيد ، وفيه يقول أهل السنة : إن كل من نجا وسعد فقد استوجب ذلك بوعده تعالى ، وكل من هلك وشقى فاستحقاقه ذلك بوعده دون أن يستوجب العقل شيئاً من ذلك .

ويقول المعتزلة: إن من نجا وسعد فهو مستوجب ذلك الثواب بعمله ، ومن هلك وخسر فهو مستحق لهذا العقاب بفعله ، والعقل من حيث الحكمة يقتضى ذلك ويستوجبه .

ويذكر رحمه الله أنه يندرج فى هـذا الأصل مسائل الإيمان والتوبة ، والوعيد . والإرجاء ، والتكفير والتضليل ، إثباتا عند جماعة ونفيا عند آخرين .

أما القطب الرابع فمداره على أن تلك القضايا العقدية السالفة فى الأصول الثلاثه المتقدمة وغيرها هل مفادها وطريق وجوب الواجب منها السمع أو العقل .

فأهل السنة على أن وجوب الواجبات كلها بالسمع والمعارف كلها بالعقل ، فالعقل عندهم لا يحسن ولا يقبح ، وبالتالى لا يقتضى ولا يوجب .

وعند المعتزلة : الواجبات والمعارف جميعاً بالعقل، وبناء على ذلك من كون الواجبات بالعقل فشكر المنعم واجب قبــل ورود السمع ومجىء الشرع ، والحسن والقبح صفتان ذاتيان للحسن والقبيح ، خلافا لأهل السنة .

ويندرج فى هـذا الأصل : التحسين والتقبيح ، والصلاح والأصلح واللطف ، والعصمة فى النبوة، وشرائط الإمامة ، نصا عند جماعة وإجماعا

عند جماعة، وكيفية انتقالها على مذهب من قال بالنص، وكيفية إثباتها على مذهب من قال بالإجماع حسب تعبير الشهرستانى رحمه الله(١).

أقسام الفرق الإسلامية وانحصار كبارها :

وقد أوضح الإمام الشهرستانى قيمة هذه الأقطاب والأصول فى ضبط الفرق الإسلامية وحصر كبارها حيث يقول : « فإذا وجدنا انفراد واحد من أئمة الأمة بمقالة من هذه القواعد(٢) عددنا مقالته مذهبا وجماعته فرقة .

وإن وجدنا واحدا انفرد بمسألة(٣) فلا نجعل مقالته(٤) مذهبا وجماعته فرقة، بل نجعله مندرجا تحت واحد ممن وافق سواها مقالته(٥)، ورددنا باقى مقالاته إلى الفروع التى لا تعد(٦) مذهبا مفردا، فلا تذهب المقالات إلى غير النهاية .

---

(١) راجع المقدمة الثانية من الملل والنحل .

(٢) أى الأربع .

(٣) أى من تلك المسائل الفرعية المندرجة تحت القواعد والأقطاب الأساسية الأصلية .

(٤) أى مقالته فى تلك المسألة الفرعية .

(٥) فنبحث فى مقالاته بصدد الأصول والقواعد والأقطاب وندرجه تحت ما يوافقها .

(٦) فى جميع نسخ كتاب الملل والنحل التى بين يدى (تعد) بدون (لا) وإنما يستقيم المعنى فى نظرى بما أثبته .

فإذا تعينت المسائل التى هى قواعد الخلاف تبينت أقسام الفرق الإسلامية ، وانحصرت كبارها فى أربع ، بعد أن تداخل بعضها فى بعض ، وهى : القدرية والصفاتية ، والخوارج ، والشيعة ، ثم يتركب بعضها مع بعض ويتشعب عن كل فرقة أصناف فتصل إلى ثلاث وسبعين فرقة(١) .

(١) راجع الملل والنحل ١/٢٢ ، ٢٣ هامش الفصل

المسألة التاسعة

المعنى الجامع للفرق المختلفة
فى
اسم ملة الإسلام ومناقشته

حاول العلماء قديماً أن يحددوا المعنى الذى إذا ما تحقق فى فرقة من الفرق، أمكن أن تنتظم بالاسم العام فى ملة الإسلام ، ومن ثم يطلق عليها أنها فرقة إسلامية .

وقد رأى أبو القاسم الكعبى — رأس طائفة الكعبية من المعتزلة — فى مقالاته أن قول القائل : (أمة الإسلام) إنما يقع على : كل مقر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن كل ما جاء به حق كائنا قوله بعد ذلك ما كان .

ويرى آخرون أن أمة الإسلام تقع على : كل من يرى وجوب الصلاة إلى جهة الكعبة .

وزعمت الكرامية — وهم مجسمة خراسان — أن أمة الإسلام جامعة : لكل من أقر بشهادتى الإسلام ولو لفظاً .

وقالوا : كل من قال : « لا إله إلا الله محمد رسول الله فهو مؤمن حقاً ، وهو من أهل ملة الاسلام ، سواء أكان مخلصاً فيه أم منافقاً مضمراً للكفر فيه والزندقة »(١) .

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٢

نقض البغدادي لمقالة الكعبي ومناقشتنا للنقض :

ينقض البغدادي مقالة الكعبي هذه :

١ — بأن الإجماع على أن العيسوية من يهود أصبهان ليسوا من ملة الإسلام رغم أنهم يقرون بنبوة نبينا محمد ﷺ، وبأن كل ما جاء به حق، حيث ضموا إلى ذلك زعمهم أنه بعث إلى العرب لا إلى بني إسرائيل.

٢ — وبأن قوماً من اليهود يسمون بالموشكانية (نسبة إلى زعيمهم المعروف بموشكان) يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وأن كل ما جاء به حق، والقرآن حق، وماهم مع ذلك من أمة الإسلام ؛ لقولهم : إن شريعة الإسلام لا تلزمهم حيث كانت بعثته لغير اليهود.

مناقشة البغدادي في نقضه :

أرى أن نقض البغدادي لما نقل عن الكعبي فيمن ينتسبون إلى الإسلام ليس موضوعياً بقدر ما يمثله من تحامل قد يكون سببه في الأغلب اختلافهما في المذهب فالبغدادي أشعري والكعبي معتزلي.

ذلك أن العيسوية والموشكانية لا يقرون حقيقة بأن كل ما جاء به محمد ﷺ حق، فإن من ضمن ما جاء به عليه السلام أنه رسول إلى الناس كافة أحمرهم وأسودهم : وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » سورة سبأ آية ٢٨

بل إلى الخلق جميعاً إنسهم وجنهم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »، الأنبياء آية ١٠٧

وهم لا يقرون بأنه ﷺ مبعوث إليهم، وبالتالي فهم لا يقرون بأن

كل ما جاء به حق فى الحق ، ومن ثم فلا يقع عليهم اسم ملة الإسلام » .
فنقض البغدادى لمقالة الكعبى منقوض بما قلنا .

نقض البغدادى لمقالة الكرامية وردنا للنقض :

ينقض البغدادى لمقالة الكرامية هذه بأن المنافقين قائلون محمد رسول الله مقرون بشهادتى الإسلام لفظا « وما هم رغم ذلك بمعدودين فى فرق الإسلام(١) .

وأقول فى التعقيب على هذا النقض ورده : إن مراد الكرامية من شمول أمة الإسلام لمن نطق بالشهادتين ولو لفظا، وأضمر الكفر والنفاق، شمول ذلك لهم وتسميتهم مسلمين ومؤمنين فى الدنيا فقط ، حتى تجرى عليهم أحكام الإسلام الدنيوية من : تزويجه من المسلمات، وتوريثه، وغسله إذا مات والصلاة عليه ، ودفنه فى مقابر المسلمين، وما إلى ذلك حيث أمرنا أن نحكم بالظاهر مع الجزم باستحقاقهم العذاب الأبدى فى الآخرة بإضمارهم الكفر والنفاق مما هو مناط علم الله تعالى :

يقول الشهرستانى فى توضيح مذهب الكرامية : « وقالوا الإيمان (أى الظاهرى كما يتضح آخر الكلام) باللسان فقط دون التصديق بالقلب ودون سائر الأعمال، وفرقوا بين تسمية المؤمن مؤمنا فيما يرجع إلى أحكام الظاهر والتكليف ، وفيما يرجع إلى أحكام الآخرة والجزاء » (٢) .

فالمنافق عندهم مؤمن فى الدنيا حقيقة، حكما بظاهره وتطبيقا لموجباته

---

(١) انظر نقض البغدادى فى كتاب الفرق بين الفرق ص١٢
(٢) الملل والنحل ﻫ / ١٥٤ هامش الفصل .

الإسلام الدنيوية، حيث لم يكن فى الوسع أن نشق عن صدره ونعلم ما يخفيه بين جوانحه ، وهو مستحق للعقاب الأبدى فى الآخرة .

وبهذا التحقيق :

(ا) يسقط نقض البغدادى لمقالة الكرامية أولا :

(ب) ثم لا يبقى كبير فرق بين مذهب الكرامية ومذهب أهل السنة من الأشاعرة القائلين بأن لب الإيمان التصديق بالجنان إلا فى مجرد اللفظ ،

فأهل السنة يرفضون وصف إيمان المنافق بالحقيق .

والكرامية يصفونه بالحقيقى .

مع اتفاق الجميع على :

(ا) معاملة من أقر بشهادتى الإسلام معاملة المسلمين ولو أضمر الكفر والنفاق إذ لا اطلاع لنا على السرائر .

(ب) استحقاق العذاب الأبدى فى الآخرة لكل من أضمر الكفر والنفاق وإن أظهر الإسلام ونطق بالشهادتين .

ومذهب البعض من أصحاب الرأى وفى مقدمتهم أبو حنيفة رضى الله عنه أن أمة الإسلام تتناول كل من أقر بوجوب الصلاة إلى الكعبة وإن شك فى موضعها ويرفض أصحاب الحديث وبعض فقهاء الحجاز هذا القول معلنين أن أمة الإسلام إنما تتناول من يرى وجوب الصلاة إلى الكعبة المنصوبة بمكة(١) .

---

(١) لا أدرى مستند هؤلاء ، مع أن كثيراً من عوام المسلمين العامرة قلوبهم بالإيمان بالله تعالى ومحبة رسوله ﷺ المصلين الصائمين الصادقين لا يفرقون ما إذا كانت الكعبة فى مكة أو فى المدينة .

فهم لا يصححون إيمان من شك فى موضع الكعبة كما لا يصححون إيمان من شك فى وجوب الصلاة إلى الكعبة سواء بسواء.

ويعلن الشيخ أبو منصور البغدادى عدم صحة هذين الرأيين «لأن أكثر المرتدين الذين ارتدوا بإسقاط الزكاة فى عهد الصحابة كانوا يرون وجوب الصلاة إلى الكعبة ، وإنما ارتدوا بإسقاط وجوب الزكاة » الفرق بين الفرق ص ٢٣١

ثم أبان رحمة الله عن رأيه ورأى أهل السنة من الأشاعرة فى تلك المسألة ننقله مع زيادة ترتيب وبيان ، قال:

فالصحيح عندنا أن أمة الإسلام تجمع المقرين .

بحدوث العالم(١) .

وتوحيد صانعه وقدمه وصفاته وعدله وحكمته ونفى التشبيه والتعطيل عنه وبنبوة محمد ﷺ ورسالته إلى الكافة وبتأبيد شريعته، وأن كل ما جاء به حق، وأن القرآن منبع أحكام شريعته .

وبوجوب الصلاة إلى الكعبة .

فكل من أقر بذلك كله ولم يشبه ببدعة تؤدى إلى الكفر فهو السنى الموحد وإن ضم إلى ذلك بدعة نظر .

(ا) فإن كان على بدعة الباطنية أو البيانية أو المغيرية أو الخطابية من غلاة الشيعة الذين يعتقدون إلهية الأئمة أو بعضهم أو نبوتهم .

---

(١) لا يشترط متأخرو الأشاعرة الإقرار بحدوث العالم فإن عدم الدليل لا يؤذن بعدم المدلول ، وكذلك السلفية .

(ب) أو كان على مذهب الحلول أو التناسخ .

(ج) أو على مذهب الميمونية من الخوارج الذين أباحوا نكاح بنات البنين وبنات البنات .

(د) أو على مذهب اليزيدية من الأباضية فى قولها بأن شريعة الإسلام تنسخ فى آخر الزمان .

(هـ) أو أباح ما نص القرآن على تحريمه ، أو حرم ما أباحه القرآن نصا لا يحتمل التأويل ، فليس هو من أمة الإسلام ولا كرامة له ،

وإن كانت بدعته من جنس بدع الرافضة الزيدية أو الرافضة الإمامية ، أو من جنس بدع أكثر الخوارج ، أو من جنس بدع المعتزلة ، أو من جنس بدع النجارية فى نفيهم علم الله تعالى وقدرته وحياته وسائر صفاته الأزلية ، وإحالة رؤيته تعالى ، والقول بحدوث كلامه .

أو من جنس بدع الجهمية القائلة بالجبر .

أو الضرارية ، حيث أنكر ضرار حرف ابن مسعود[1] ، وحرف أبى بن كعب[2] .

---

(١) من السابقين الأولين وأحد كبار البدريين ومن نبلاء الفقهاء والمقرئين حفظ من رسول الله ﷺ سبعين سورة من القرآن وفى شأنه يقول رسول الله « من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » ومعنى حرف ابن مسعود : قراءته .

(٢) صحابى انصارى خزرجى كان أقرأ الصحابة وسيد القراء شهد بدراً والمشاهد كلها وقرأ القرآن على النبى ﷺ ، وكان عمر رضى الله عنه يكرم أبيا ويهابه ويستفتيه وقال فيه يوم أن مات : اليوم مات سيد المسلمين =

وشهد بأن الله تعالى لم ينزلهما ، فنسب هذين الإمامين من الصحابة إلى الضلالة فى مصحفيهما .

أو كانت بدعته من جنس بدع المجسمة .

كان من جملة أمة الإسلام فى بعض الأحكام ، وهو أن يدفن فى مقابر المسلمين ، ويدفع إليه سهمه من الغنيمة إن غزا مع المسلمين ، ولا يمنع من دخول مساجد المسلمين ومن الصلاة فيها .

ويخرج فى بعض الأحكام عن حكم أمة الإسلام ، وذلك أنه لاتجوز الصلاة عليه ، ولا الصلاة خلفه ، ولا تحل ذبيحته ، ولاتحل المرأة منهم للسنى ، ولا يصح نكاح السنية من أحد منهم » .

تعقيب وتحقيق :

أقول : قد يرى البعض فى ذلك جانباً من التشدد فإن الكعى القائل بأن أمة الإسلام تقع على كل مقر بنبوة محمد ﷺ وأن كل ما جاء به حق كائنا قوله بعد ذلك ما كان ، والقائلين بأن أمة الإسلام تقع على من يرى وجوب الصلاة إلى الكعبة ، يصححون إسلام هذا الصنف الأخير ممن بدعتهم من جنس بدع الزيدية أو الرافضة الإمامية أو المعتزلة أو النجارية أو الخوارج غير الميمونية ، ومن ثم يدخلونهم فى جميع أحكام المسلمين .

ويبدو التشدد واضحا فيما يذكره من أحكام المعتزلة مثلا أو الزيدية من أنه : لاتحل ذبيحتهم ، ولا تحل المرأة منهم للسنى.

= (انظر فى هاتين الترجمتين تذكرة الحفاظ ص ٥ ، ٦ ومشاهير علماء الأمصار ص ٢١ ، ٣١

بينما تجوز الشريعة للمسلم : ذبيحة أهل الكتاب ، والزواج من نسائهم .
فيضع البغدادى المعتزلة والزيدية وهما من أهل القبلة فى منزلة هى أنى من
منزلة اليهود والنصارى !!!

ثم إنى لا ألمس وجهاً وجيهاً فى تلك التفرقة !

فالمعتزلى — مثلا — لا تجوز الصلاة عليه ، ومع ذلك يدفن فى مقابر
المسلمين ؟!

فإن قيل : إن عـــدم جواز الصلاة عليه لما تشتمل عليه من الدعاء
والاستغفار له ، وذلك أقصى ما يمكن أن يعلل به — حسب تصورى
ما ذهب إليه البغدادى من عدم جواز الصلاة عليه .

قلنا : النهى الوارد فى القرآن عن الصلاة والاستغفار إنما هو فى حق
الكافرين والمشركين .

قال تعالى : فى سورة التوبة : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً
ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » .

وقال أيضاً : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين
ولو كانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » .

ثم يقول الحق فى سورة النساء: « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر
مادون ذلك لمن يشاء » .

هذا : ويرى الخوارج أن الكبيرة من الذنوب تخرج مرتكبها من ملة
الإسلام وتدخله فى الكفر .

---

(١) أنظر فى ذلك الفرق بين الفرق ص ٢١٩ ، ١١٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٢

ويرى المعتزلة أن الكبيرة تخرج من ملة الإسـلام ولكن لا تدخل صاحبها فى الكفر بل يكون فى منزلة بينهما .

ومذهب أهل السنة أن من ارتكب كبيرة من أهل ملة الإسلام مؤمن لما فيه من معرفة الرسل والكتب المنزلة من الله تعالى، ولمعرفته بأن كل ما جاء به محمد ﷺ حق وإقراره بذلك، ولكنه فاسق بكبيرته ، وفسقه لا ينفى عنه اسم الإيمان والإسلام .

الاصلان عند أئمة الإسلام

القرآن والسنة

بعد أن جلينا أراء العلماء ومذاهبهم فى تحديد المعنى الذى إذا ما تحقق فى فرقة من الفرق صح انتسابها إلى ملة الإســلام ووصفها بأنها فرقة إسلامية ، وعقبنا على ذلك بما رأيناه حقا لازما ، نتحدث هنا عن الأصلين الأساسيين فى ملة الاسلام وهما : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، من حيث :

(ا) تعريف كل منهما وتحديد مدلوله .

(ب) الإبانة عن حجية الكتاب الكريم ، وأسلوبه فى المحاجة قبل الهجرة وبعدها .

(ج) الإبانة عن حجية السنة الشريفة ، وعرض بعض مما وجه إليها من شبهات يروج لها بعض الزائغين عن الحق من الملاحدة ومن فى قلوبهم دخل ، وتفنيدها .

أولا — الحديث عن القرآن الكريم

تعريفه : القرآن فى الأصل مصدر بوزن فعلان بضم فسكون ، كالغفران ، والتكلان ، تقول : قرأت الكتاب قراءة وقرآنا بمعنى ، وجاء استعماله بهذا المعنى المصدرى فى التنزيل ، قال تعالى : « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » أى قراءته .

ثم صار علماشخصيا(١)مدلول هذا المثبت بين دفتى المصحف ، وعرف بأنه كلام الله تعالى رب العالمين المنزل بواسطة جبريل الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين ، ثم هو المتعبد بتلاوته(٢) المتحدى بأقصر سورة منه المنقول بالتواتر إلينا .

---

(١) فهو جزئى حقيقى يحد بالإشارة إليه حاضراً فى الحس . أومصوراً فى الذهن ، فيقال : هو هذا المقروء باللسان ، أو المكتوب بين دفتى المصحف،أما حد الجزئى بالتعاريف المنطقية ففيه قولان : الأول المنع ، بناء على أن أجزاء التعريفات المنطقية كليات : جنس ، فصل ، خاصة ، والكلى لا يطابق الجزئى مفهوما،فإن مفهوم الكلى يمكن فرض صدقه على كثيرين بخلاف الجزئى ، فإنه ما يمتنع صدق مفهومة على كثيرين ، وفى إطار هذا المذهب يكون المذكور فى تعريف القرآن بأنه كلام الله المنزه ، إلخ .

(ا) ليس بتعريف حقيقى وإنما هو ضابط ومميز عن بعض ما عداه مما قد يشاركه فى الاسم ولو توهما .

(ب) أو هو تعريف حقيقى على رأى الأصوليين الذين لا يشترطون فى التعاريف أجناسا ولا فصولا ، بل الحد عندهم هو الجامع المانع مطلقا ، وعليه فيصح أن يحد الشخص أو الجزئى الحقيقى عند الأصوليين ، دون المناطقة .

الثانى : الجواز ، فتعرف الجزئيات بأمور كلية لا يتحقق مجموعها فى الخارج إلا فى هذا الشخص بخصوصه ، وهذا قريب مما ذكره صاحب التلويحات إذ قال : إن الشخص يمكن أن يحد بما يفيد امتيازه عن جميع ما عداه بحسب الوجود ، لا بما يفيد تعينه وتشخصه بحيث لا يمكن اشتراكه بين كثيرين بحسب العقل فإن ذلك (يعنى تعينه وعدم إمكان اشتراكه بين كثيرين بحسب العقل) إنما يحصل بالإشارة لا غير .

(٢) المتعبد بتلاوته أى المأمور بقراءته فى الصلاة وغيرها على =

حجيته :

وقد ساق العلماء المحققون والباحثون المنصفون من البراهين الباهرة، والأدلة القاهرة .

(ا) ما احتواه هـــذا التنزيل من آيات بينات ومعجزات خالدات لا مجال للتحليق حولها والوقوف على عتباتها، بله الإتيـان بمثلها لمخلوق كائنا من كان : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » الإسراء .

« أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » سورة البقرة .

(ب) من واقع سيرته — ﷺ العطرة وخلقه العظيم وما فطر عليه من النبل والطهر والصدق .

أقول : مساق العلماء من ذلك ما ينطق بأن القرآن الكريم لم يصدر عن محمد — ﷺ — بل أوحى به إليه، ولم يفض عن قلبه بل أفيض عليه رحمة واصطفاء : « وكذلك أوحينـا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » الشورى .

وإذا ما ثبت بالتالى أنه كتاب عزيز «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» .

وأنه هدى للمتقين : « ألم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » أول سورة البقرة .

= وجه العبادة، وذلك لإخراج ما لم نؤمر بتلاوته كالقراءات المنقولة إلينا بطريق الآحاد .

وأنه هدى وبشرى للمؤمنين : « طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين» أول سورة النمل .

وأنه هدى ورحمة للمحسنين: « ألم ، تلك آيات الكتاب الحكيم ، هدى ورحمة للمحسنين » أول سورة لقمان .

وأنه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم » سورة الأحقاف .

واستمعنا إلى قوله — عز من قائل : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » (النساء آية ٥٩) ، يعنى ، والله أعلم ، إلى ما قال الله ورسوله ﷺ .

وإلى قوله عز اسمه « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » (النساء ١٠٥) .

وقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

وقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .

وقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » المائدة ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧

وقوله تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل إليك فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن

يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون • أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » المائدة : ٤٩، ٥٠

وقوله : « أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا » (الأنعام ١١٤) .

وقوله : « إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه » . (سورة يوسف الآية ٤٠) .

وقوله : « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون » (النور ٥١) .

واستمعنا أيضا إلى ما أخرجه مسلم عن ابن عباس — رضى الله عنهما قال قال رسول الله — ﷺ : « مهما أوتيتم من كتاب الله تعالى فالعمل به لا عذر لأحد فى تركه . الحديث (مفتاح باب الجنة للسيوطى ٢٧) .

أقول: إذا تم ذلك فلاريب فى حجية القرآن ووجوب والاهتداء به، واتخاذه دستوراً للأمة تستمد منه الهداية والرشاد وتستلهم منه الصواب ، والسداد ، والاستناد إليه بالدرجة الأولى فى التعرف على أحكام الله تعالى وشريعته ، لاعذر لأحد فى تركه .

وعلى ذلك انعقد إجماع المسلمين رغم اختلاف الأعصار والأمصار، فهو أساس الدين ومصدره الأول ، والحجة البالغة فى كل مايتصل بالعقيدة والشريعة والأخلاق والآداب .

وفى إيجاز واف : فى كل مايتصل بأمور الدين والدنيا على سواء ولنختم الحديث فى حجية القرآن بأثرين شريفين يؤكدان هذا المعنى ويجليانه .

الأول أخرجه البيهق والدارمى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال :

لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال لى : كيف تقضى إن عرض عليك قضاء ؟ قلت أقضى بما فى كتاب الله تعالى . الحديث .

أما الثانى فأخرجه الترمذى من كتاب السنن فى وصف القرآن الكريم والإبانة عن شريف منزلته فهو « كتاب الله ، فيه نبأ ماقبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم : هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين . وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

أسلوب القرآن الكريم فى المحاجة قبل الهجرة وبعدها :

فى مقدمة العقائد الإيمانية فى الإسلام :

(ا) أن الله تعالى أرسل رسوله محمد ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

(ب) وأن رسالته ﷺ للناس أجمعين أحمرهم وأسودهم عربيهم وعجميهم على سواء .

(ج) وأنها الرسالة الخاتمة الخالدة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها .

(د) وأن ما نزل عليه ﷺ من كلام رب العالمين هو الحجة الكبرى فى دين الله تعالى ، والآيات البينات الداعية إلى الحق والهادية إلى طريق مستقيم فيما شرع سبحانه لعباده فى العقيدة والشريعة والأخلاق والآداب .

ومن أجل ذلك وجب أن يتضمن هذا الكتاب العزيز من القضايا الدينية والأدلة البينة، والمناهج الواضحة، وأساليب الحجاج والمناظرة، ما يلبي حاجات الناس جميعا ويقنع عقولهم ويطمئن قلوبهم على أختلاف أصنافهم، وتنوع نزغاتهم، وتعدد ثقافاتهم وتباين عقولهم، وتفاوت مداركهم.

وكذلك كان كتاب الله تعالى، فالمتدبر لآياته المتصفح لقضاياه ومناهجه وأساليبه، يجد فيه نهمة العالم الباحث، وبغية المثقف، وطلبة الفيلسوف المتطلع إلى اليقين، الطموح إلى البرهان، والحق المبين، والأسلوب الناصع المؤثر الذي يلمس فيه العامة دواء نفوسهم، وشفاء قلوبهم، وغذاء فطرهم، في سلامتها وسذاجتها واستقامتها.

كما أن البلاغة في القول، والسداد في الخطاب، والسمو في التوجيه، تقتضي بالأولى رعاية متطلبات حال هؤلاء الذين شاء لهم القدر أن يكونوا وعاء الإسلام، وحفظته، وطليعة جنده، ومادته الأولى، وحملته إلى أهل الأرض، وما يتوائم مع طبعهم ومداركهم، ومدى استعدادهم لتقبل الحق من إيجاز وإطناب، واختصار وإسهاب، وشدة وعنف ولين وعطف، وترغيب وترهيب وإنذار وتبشير.

وقد تحدث العلماء وأجادوا في بيان سمات وملامح ما نزل من القرآن قبل الهجرة وبعدها، أو بتعبير آخر سمات وملامح المكي والمدني من التنزيل العزيز، وطريقة كل في مخاطبة الكفار، وأسلوبه في المناظرة والحجاج.

ونذكر — في ضوء ذلك الجهد المشكور — تلخيصا موجزا وافيا إلى حد ما عن ذاك الجانب من كتاب الله تعالى.

خواص المكى وطريقته فى المحاجة :

نذكر فى البداية أن القسم المكى من كتاب الله تعالى تناول بالدرجة الأولى القضايا التالية :

التوحيد ، النبوات ، البعث والجزاء ، أصول الأخلاق وأمهات الفضائل .

أما التوحيد :

فله جانبان : توحيد الربوبية ، توحيد الألوهية .

ولما كان توحيد الربوبية بمعنى تفرده تعالى بالخلق والإيجاد والتدبير والرزق والتسخير من القضايا الواضحة المقررة عند الناس جميعا « فطرة الله التى فطر الناس عليها » لا سيما هؤلاء العرب الذين أرسل اليهم محمد ﷺ حسبما أخبر المولى فى قوله من سورة العنكبوت : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون » . وقوله : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون » .

فيما عدا قلة قليلة غلبت عليهم شقوتهم وضلوا عن سواء السبيل فانخذلوا أمام شهواتهم حتى غشت بصائرهم وطمست فطرهم .

لما كان الأمر كذلك فلا بدع أن يكون المنهج الحكيم فى هذا الجانب هو العرض السريع والإشارة العابرة والتنبيه الخاطف كما يتبين ذلك فى قوله تعالى فى سورة الطور : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » .

وقوله سبحانه من سورة الواقعة : « نحن خلقنا كم فلو لا تصدقون أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون .

وقوله : « أفرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعون أم نحن الزراعون » وقوله أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون».

وقوله : « أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » .

أما توحيد الألوهية وإفراده تعالى بالأمر والعبادة فقدأ استغلقت على على الكثير حتى ترددوا فى الشرك وعبادة الأصنام والأوثان دون عبادة الخالق الرحمن .

فكانت من أجل ذلك موضع اهتمام خاص من الآيات المكية .

ومنهج تلك الآيات المكيات هو :

(ا) سوق الدلائل البينات على تفرده تعالى بالإلوهية من واقع تفرده تعالى بالربوبية والخلق والرزق والتدبير من مثل قوله تعالى فى سورة البقرة : « يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » .

وقوله فى سورة الأنعام : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل » .

ومن واقع مابثه سبحانه فى الأنفس من شواهد الحق : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون (١) »

---

(١) سورة الزاريات

وما نصبه فى الآفاق والكون من أعلام الرشد : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »(١) .

(ب) الإنكار على هؤلاء المنحرفين عن الحق البين والتنديد بهم وتوبيخهم والتهكم من عقولهم التى سولت لهم أن يسووا بين الخالق القادر والمخلوق العاجز من مثل قوله تعالى فى سورة الأعراف: « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا ، لنكونن من الشاكرين ، فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون ، أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ، إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » .

وقوله فى سورة النحل : « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون » .

وقوله أيضا : « والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون » .

(ج) محاكمتهم إلى الحس والاستناد إلى الواقع وضرب الأمثال لعلهم يعقلون وإلى رشدهم يثوبون من مثل قوله تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٤

فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب»(١) .

وقوله تعالى فى سورة الروم : ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون .

ومن الأمثلة الدالة على صدق التوحيد واستقامته وسلامة المستمسكين به وفساد الشرك والتواته وجهالة أهله قوله تعالى فى سورة الزمر: «ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون .

(د) تسفيه أحلامهم إذا ما جمدوا على التقليد وأهملوا عقولهم واطرحوا النظر والاعتبار فيما بثه المولى من آيات فى الأنفس والآفاق وذلك من قوله تعالى فى سورة الزخرف : « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون، أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ، بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون، وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين .

أما النبوات والوحى واصطفاء الله تعالى من يصلح للسفارة بينه سبحانه وبين المكلفين من خلقه فقد تناولته الآيات المكية :

(أ) معلنة هذا الحق الإلهى فى قوله تعالى من سورة الأنعام : وإذا

---

(١) سورة الحج آية ٧٣

جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وقوله من سورة الحج : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور » .

(ب) ومفندة رفض البعض بشرية النبي وكونه إنسانا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، واقتراحهم أن يكون ملكا أو معه ملك(١) مبينة أن الأمر فى ذلك كله لله . ومصرحة بمصدر رفضهم من العناد والتكذيب وأنه لا جدوى من وراء إجابتهم لاقتراحهم هذا .

وفى ذلك كله يقول سبحانه فى سورة الإسراء : وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ، قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا .

مثل صاعقة

ويقول من سوره فصلت فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة أعاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون .

ويقول عز من قائل فى سورة الفرقان : وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز أو يكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً ، أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ، تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً .

---

(١) أقول : لعل القائلين بذلك ممن تأثروا بالمذهب الصابئ القائل بضرورة أن يكون المتوسط بين الإله والبشر روحانيا لا جسمانيا حسيا . أسلفنا

ثم يكشف المولى عن مصدر رفضهم والسبب فى عنادهم وتكذيبهم فيقول : «بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا» .

ويقول أيضا فى سورة الأنعام : وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

(حـ) ومحتجة على نبوة محمد ﷺ بقوله سبحانه من سورة الإسراء : «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا :

وقوله من سورة هود : أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين .

وقوله فى سورة البقرة: «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين .

وقوله فى سورة يونس : أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » .

(د) ومفندة ما اقترحه مشركو مكة بديلا عن محمد ﷺ فى منصب النبوة من واقع حقدهم وضيقهم أن يكون محمد ﷺ رسولا يوحى إليه من عند الله .

وفى ذلك يقول سبحانه : «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

ويبرز منهج المكى تجاه تقرير قضية البعث والجزاء والإبانة عن حقيتها من خلال :

(أ) الاستناد إلى ما يمكن أن يسمى بالقياس الأولى من مثل قوله تعالى فى سورة مريم : « ويقول الإنسان إإذا مامت لسوف أخرج حيا أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » وقوله من سورة العنكبوت : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير » .

وقوله فى سورة الروم : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

وقوله من سورة يس : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

(ب) ضرب الأمثال من الواقع المشاهد صباح مساء الناطق بإمكانية البعث وذلك من مثل قوله تعالى فى سورة الأعراف : « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » .

وقوله تعالى فى سورة الحج : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور » .

وقوله من سورة فصلت : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير » .

(ج) الإستناد إلى حكم العقل الأول الذى يرفض تماماً التسوية بين المحسن والمسيء، وبين من يعمل الصالحات ويرتكب الموبقات مما لا يتسق بالأولى مع عدل الإله وذلك من قوله تعالى فى سورة ص : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » .

وقوله من سورة الجاثية : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين أمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » .

وحيث لا نرى تلك العدالة اللائقة بالإله فى تلك الحياة الدنيا كان لا بد من إحياء الموتى ربعثهم فى حياة أخرى يجد فيها كل إنسان جزاء ماقدمت يداه .

أما أصول الأخلاق وأمهات الفضائل فقد نهج فى الدعوة إليها نهجاً مثمراً ناجعاً حيث طفق يحبب إلى الناس الإيمان والطاعة والنظام ومكارم الأخلاق ومن ذلك قوله تعالى فى سورة النحل : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى » . . الآية ، وقوله : وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » . . وقوله فى سوره لقمان : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض

يأت بها الله إن الله لطيف خبير ، يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

كما شرع يبغض إليهم مادرجوا عليه من ذميم الأخلاق ومكروه الصفات وسوء السيرة من سفك الدماء ووأد البنات واستباحة الأعراض ، مبيناً ماينطوى عليه ذلك من أضرار بالفرد وتدمير الأسرة والمجتمع : ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام : وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون .

وقوله فى سورة الأنعام : «قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

وقوله فى سورة الأعراف : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون » .

وقوله : « قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

أما خواص المكى من حيث الأسلوب والصياغة فيتلخص فى طابع الإيجاز فى التعبير والإقلال دون الاسهاب والاطناب ، حتى جاءت السور المكية صغيرة قصيرة الآيات ، حيث كان أهل مكة ذوى فصاحة ولسن ، صناعتهم الكلام ، وهمتهم وتعشقهم للبلاغة والبيان ، كما امتاز أكثر من غيره بالعنف والشدة واللفظ القاسى العنيف والإكثار من الوعيد والتهديد كما نلمس ذلك فى سورة الحاقة والمعارج والقارعة والفجر والتكاثر مثلا حيث كانوا أهل غلظة فى الإخلاق وجفاء فى الطباع .

خواص المدنى من كتاب الله تعالى :

تناولت الآيات المدنية بالدرجة الأولى الموضوعات الآتية :

أولا : التشريعات والأحكام فى مجال العبادات والمعاملات المتمثلة فى أنواع القوانين المدنية والجنائية والاجتماعية والدولية .

واقرأ فى ذلك من سورة البقرة قوله تعالى فى القصاص : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » .

وقوله تعالى فى الصيام : يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ، شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى الناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام آخر .

وقوله تعالى : « يسئلونك عن الخمر والميسر » الآيات من ٢١٩ وحتى الآية ٢٤٢ ، فى الحديث عن الخمر واليتامى وتفصيل أحكام الزواج والطلاق والعدة والرضاع والمهر والمتعة ومايدور فى هذا الفلك .

وأقرأ أيضا من السورة نفسها الآيتين ٢٨٢ ، ٢٨٣ من قوله تعالى : « يا أيها الذين أمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » مما جاء فى الدين وكتابته وتوثيقه والإشهاد عليه والإشهاد عند البيع وأداء الأمانة والنهى عن الإضرار بالكاتب والشهيد وعن كتم الشهادة .

واقرأ من سورة النساء آيات المواريث : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » (الآية ١١) وقوله تعالى : ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد » الآية ١٢ ثم قوله تعالى : يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » الآية — ختام سورة النساء .

واقرأ فى الآداب العامة أوائل سورة المائدة ، وسورة النور ثم سورة الحجرات ونحوها .

ثانيا : دعوة أهل الكتاب من اليهود النصارى إلى الإسلام ومناقشتهم فى عقائدهم الضالة ومذاهبهم الزائفة والإبانة عن جنايتهم على الحق ، وتحريفهم للكتب المنزلة عليهم ، ويتضح ذلك فى : سورة البقرة : يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولاتكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون .

وقوله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

وقوله تعالى فى السورة نفسها : ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين .

وقوله من السورة نفسها : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » .

وقوله تعالى من سورة آل عمران : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

وقوله من السورة نفسها : قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون ، الآية ٦٤ وحتى الآية ٩٩ .

وقوله من سورة المائدة : لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا . . الآية .

« وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل، فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، الآية » .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل أعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار .

لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » .

وقد كان منهج المدنى فى عرض تلك الموضوعات هو :

(ا) التحديد والتفصيل واقرأ فى ذلك ماسجلناه هنا وأشرنا إليه من النصف الأخير من الحزب الثالث : ليس البر ، ويسئلونك عن الأهلة ، والربع الثانى والثالث من الحزب الرابع : يسئلونك عن الخمر والميسر ، « والوالدات يرضعن » .

ثم آية المداينة من سورة البقرة ، وآيات المواريث من سورة النساء .

(ب) الاحتكام إلى العقل والتفكير الصحيح تارة وإلى الكتب السماوية السابقة أخرى .

وفى ذلك يقول سبحانه : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » .

ويقول من سورة المائدة : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » .

ويقول من سورة آل عمران : « ياأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلاتعقلون » .

ويقول فى الاحتكام إلى الكتب السماوية : من نفس السورة : « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » .

(د) والاعتماد بالدرجة الأولى على اللين والملاطفة واستثمار ما كان عليه أهل المدينة من رقة الطبع وسهولة الخلق .

ثم القصد فى الأسلوب إلى الإطناب والتطويل فى السور والآيات ، فإن أهل المدينة ما كانوا يضاهئون أهل مكة ذكاء وألمعية وفصاحة وبيانا ، ومن السور المدنية التى يتمثل فيها ذلك سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة .

وأيضا إلى رقيق اللفظ وسلاسة العبارة وسهولة المقطع وخفيف الجرس وهادئه فذلك مايناسب طباع أهل المدينة وفطارهم السمحة .

ثانياً — السنة الشريفة

سبق لنا فى التمهيد أن جلينا مدلول السنة لغة واصطلاحاً عند أهل الحديث وعلماء أصول الفقه وعند الفقهاء .

حجية السنة :

من القضايا اليقينية المجمع عليها لدى أمة الإسلام قديماً وحديثاً أن سنة رسول الله ﷺ قولا كانت أو فعلا أو تقريراً بشرطها المعروف لدى علماء الحديث حجة فى دين الله تعالى وما خالف فى ذلك إلا من عميت بصيرته واتبع غير سبيل المؤمنين وضل عن سواء السبيل .

قال سبحانه فى سورة النساء : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

فلا يجوز لمسلم أن يرى رأياً أو يعتنق مذهباً يخالف ما صح عن رسول الله ﷺ .

روى الإمام الشافعى رضى الله عنه يوماً حديثاً ، وقال : إنه صحيح « فقال له قائل : أتقول به يا أبا عبد الله ؟ فاضطرب رضى الله عنه وقال : ياهذا : أرأيتنى نصرانياً ؟ ! أرأيتنى خارجاً من كنيسة ؟ ! أرأيت فى وسطى زناراً ؟ ! أروى حديثاً عن رسول الله ﷺ ولا أقول به »(١) .

وقد نبهنا رسول الله ﷺ إلى ضرورة التمسك بسنته والحرص عليها وحذرنا من الانحراف عنها والتطلع إلى ما تمليه الأهواء والشهوات

---

(١) مفتاح باب الجنة للسيوطى ص ٣ هذا : والزنار ، والزنارة بضم الزاى ما على وسط المجوسى والنصرانى ، وفى التهذيب : مايلبسه الذمى يشده على وسطه (لسان العرب) .

وما يسوق إليه ذلك ويؤدى إليه من التقطع والتمزق ، أخرج البيهقى بسنده عن العرباض بن سارية قال : صلى بنا ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يارسول الله كأنها موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟

قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة (١) .

كما أوضح لنا صلى الله عليه وسلم مكانة سنته، وأنها فى المرتبة الثانية من القرآن الكريم ، وأنها أيضا قد تستقل ببيان بعض الأحكام والتشريعات التى لم ترد صراحة فى كتاب الله تعالى .

وذلك فيما رواه أبو داود وغيره بسند صحيح عن المقدام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان متكىء على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السباع ، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه ، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه »(٢) أوما فى معناه .

---

(١) المصدر السابق ص ٧ ، ٨

(١) مشكاة المصابيح : الخطيب التبريزى تحقيق الشيخ الألبانى ١/٥٧-٥٨، والمستدرك ١/٩ ، ١٠

وقد حاول بعض الزنادقة ومن لادين له النيل من سنة رسول الله ﷺ تحت ستار دعوى الاقتصار على القرآن الكريم ، وبالتالى اطراح السنة وإنكار الاحتجاج بها .

والقرآن نفسه يدحض هذه الدعوى الباطلة والمغرضة ، ويكشف عن ضلال أصحابها ، بما صرح به من الأمر بطاعته ﷺ والاقتداء به ، ومن التحذير من مخالفة أمره والانحراف عن سنته .

يقول تعالى فى الأمر بطاعته ﷺ من سورة النساء : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » .

ويقول : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

ويقول من سورة الأحزاب : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » .

ويقـــول سبحانه فى التحذير من مخالفة أمره صلى الله عليه وسلم فى سورة النور : فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

ويقول مفتتحا سورة الحجرات : يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون .

كما أبان الصحابة رضوان الله عليهم عن ضرورة التمسك بسنته ﷺ وحتمية الاستفادة منها والاهتداء بها .

أخرج البيهقي بسنده أن عمران بن حصين رضى الله عنه ذكر الشفاعة. فقال رجل من القوم : يا أبا نجيد إنكم تحدثوننا بأحاديث لم نجد لها أصلا فى القرآن فغضب عمران ، وقال للرجل : قرأت القرآن ؟ قال : نعم، قال: فهل وجدت فيه صلاة العشاء أربعا ، ووجدت المغرب ثلاثا ، والغداة ركعتين والظهر أربعا والعصر أربعا ؟ قال : لا: قال : فعن من أخذتم ذلك؟ ألستم عنا أخذتموه ، وأخذناه عن النبي ﷺ ؟

أوجدتم فيه من كل أربعين شاة شاة ، وفى كل كذا بعيرا كذا ، وفى كل كذا درهما كذا ، قال: لا، قال: فعن من أخذتم ذلك ؟ ألستم عنا أخذتموه وأخذناه عن النبي ﷺ ؟ وقال : أوجدتم فى القرآن « وليطوفوا بالبيت العتيق » أوجدتم فيه فطوفوا سبعا ، واركعوا ركعتين خلف المقام ، أو وجدتم فى القرآن : لا جلب ولا جنب ولا شغار فى الإسلام (١) ؟

---

(١) الجلب — بفتح الجيم واللام — يكون كما قال أبو عبيدة فى شيئين: سباق الخيل ، والصدقة .

(ا) ففى سباق الخيل : أن يتبع الرجل فرسه فيزجره ، ويجلب عليه أو يصيح به حثاله إعانة لفرسه على الاشتداد فى الجرى (أقول : ولعل النهى لما فى ذلك من إجهاد للفرس واحتيال للسبق) .

(ب) وفى الصدقة : أن يقدم العامل على الزكاة فينزل موضعا نائيا ثم يرسل إلى أهل الزكاة من يجلب إليه الأموال من أماكنها ليأخذ صدقاتها، فنهى عن ذلك ، وأمر أن يأخذ صدقاتهم من أماكنهم ، وعلى مياههم وبأفنيتهم حتى لا يرهق رب المال المزكى .

والجنب — بفتح الجيم والنون — يكون أيضا فى السباق وفى الزكاة.

(ا) ففى السباق أن يجنب فرسا عريا عند الرهان إلى فرسه الذى يسابق عليه فإذا فتر المركوب وخاف أن يسبق عليه تحول إلى المجنوب =

أما سمعتم الله قال فى كتابه : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

قال عمران : فقد أخذنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشياء ليس لكم بها علم » (١) .

ومما يحاوله الزنادقة فى رد الاحتجاج بالسنة ما أورده بعضهم من أخبار فى عرض السنة على القرآن .

قال الشافعى : احتج علىّ من رد الأخبار بما أسند إلى رسول الله ﷺ من قوله : ما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فأنا قلته وما خالفه فلم أقله » فقلت له : ما روى هذا أحد يثبت حديثه فى شىء صغير ولا كبير ، وإنما هى رواية منقطعة عن رجل مجهول .

وقد يستأنس فى رد هذا الخبر ما ورد فيه من قوله : (وما خالفه فلم أقله) فليس يخالف الحديث القرآن — كما قال الإمام الشافعى — ولكن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين معنى ما أراده القرآن خاصا وعاما وناسخا ومنسوخا .

= (ب) أما فى الزكاة فكما قلنا فى الجلب ، أو هو أن يجنب رب المال بماله أى يبعده عن موضعه حتى يحتاج العامل على الزكاة إلى الإبعاد فى طلبه واتباعه ، وفى ذلك إجهاد وإرهاق للعامل على الزكاة ، والشغار المنهى عنه أن يزوج الرجل الرجل حريمته (وليته) على أن يزوجه المزوج (بصيغة اسم المفعول) حريمة له ، ويكون مهر كل واحدة منهما بضع الأخرى ، كأنهما رفعا المهر وأخليا البضع عنه ، وهو نكاح كان فى الجاهلية ، وهو مأخوذ من شغر الكلب إذا رفع إحدى رجليه ليبول ، وقيل : إذا رفع إحدى رجليه بال أو لم يبل .

(١) مفتاح باب الجنة للسيوطى ص ٦

قال البيهقي : وقد روى هذا الحديث : « ما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله . . الحديث من أوجه آخر كلها ضعيفة .

وقال الشوكاني : عرضنا هذا الحديث على كتاب الله فوجدناه مخالفا له ، لأنا وجدنا فى كتاب الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ووجدنا فيه : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » .

أما ما ورد من أخبار فى عرض الحديث على القلوب المؤمنة الواعية والفطر النقية السليمة فإن أمثل إسناد فى ذلك كما يقول البيهقى ما رواه ربيعة عن عبد الملك بن سعيد بن سويد عن أبي حميد أو أبى أسيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه » .

يقول الإمام السيوطى معقبا ومعلقا على ذلك : وعلى الأحوال كلها فإن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابت عنه قريب من العقول موافق للأصول، لا ينكره عقل من عقل عن الله الموضع الذى وضع به رسول الله صلى الله عليه وسلم من دينه ، وما افترض على الناس من طاعته ، ولا ينفر منه قلب من اعتقد تصديقه فيما قال، واتباعه فيما حكم به وكل ما هو جميل حسن من حيث الشرع جميل فى الأخلاق حسن عند أولى الألباب ، هذا هو المراد بما عسى أن يصح من ألفاظ هذه الأخبار »(١) .

هذا ، وفى إطار ما ذكرنا يتبين لنا حجية السنة ووجوب الالتزام بها والوقوف عندما رسم رسول الله ﷺ وحده لأمته .

---

(١) أنظر تلك الأحاديث والنقول فى مفتاح باب الجنة للسيوطى ص ١٢ — ١٦

واذكر رعاك الله ما تلوناه عليك من قريب من قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، الآية وانظر كيف أعاد سبحانه الفعل (أطيعوا) إعلاما بأن طاعة الرسول تجب إستقلال من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقا سواء أكان ما أمر به فى الكتاب بنصه أولم يكن ، فإنه صلى الله عليه وسلم أوتى الكتاب ومثله معه .

المسألة العاشرة

فى

مناهج البحث فى مقارنة الأديان

يقصد بمناهج البحث فى مقارنة الأديان الطرق والسبل الرشيدة التى يمكن للباحث فى الأديان والنحل أن يسلكها ويتبعها فى تلك الدراسة .

بالإضافة إلى ما لابد منه من الموازنة بين تلك المناهج ، ببيان المحاسن والمآخذ ، ثم التفضيل بينها ، والاحتفال بالبعض بناء على ما تؤدى إليه هذه الموازنة وفى ضوء منها .

وقد فطن الإمام الشهرستانى إلى أهمية الحديث عن تلك المناهج ، تعيين المختار منها ، فبادر رحمه الله — فى مطلع كتابه (الملل والنحل) أثناء حديثه فى المقدمة الثانية من مقدماته الخمس - إلى بيان المناهج والطرق التى سلكها من قبل أصحاب كتب المقالات ، وأوضح أن لهم بصدد ذلك طريقتين :

الأول أنهم جعلوا المسائل والقضايا أصولا وعناوين ضمن كتاب أو لكتاب مستقل ، ثم يذكرون ويوردون — فى كل مسألة وقضية من تلك القضايا والمسائل التى جعلوها كتابا أو عنوانا فى كتاب — مذهب طائفة طائفة ، وفرقة فرقة ، فيجعلون مثلا : قضية رؤية الله تعالى ، أو القضاء والقدر ، أو أرادة الخير والشر عنوانا ، ثم يذكرون أراء العلماء ومذاهبهم، فيذكرون مذهب المعتزلة فى قضية رؤية الله تعالى ، ثم مذهب أهل السنة ، وهكذا بقية المذهب .

الطريق الثانى : أن يجعل الرجال وأصحاب المقالات أو الأديان أصولا

وعناوين لكتاب أو فى كتاب ، ثم تذكر مذاهبهم وآراؤهم فى مسألة مسألة ، فتكون المعتزلة أو السلفية أو الاشاعر أو النصرانية مثلا عنوانا لكتاب أو على فصل فى كتاب ، ثم يؤتى بمذهب ورأى تلك الطائفة فى كل مسألة مسألة ، فيذكر رأى أهل السنة مثلا فى رؤية الله ، وفى خلق الأفعال وفى القضاء والقدر وهكذا .

وقد أعلن رحمه الله أنه رتب كتابه (الملل والنحل) على الطريقة الأخيرة ، لما وجده من أنها أضبط للأقسام ، ولما يقوله أيضا من أنها أليق بأبواب الحساب .

وقد سار فى هذا الدرب من الحديث عن هذين الطريقين فى مقارنة الأديان، واختيار ثانيهما الدكتور أحمد شلبي فى(سلسلة مقارنة الأديان) مع اختلاف فى تعليل الطريق المختار حيث علل اختياره للثانى بتجنب العيوب التى لوحظت فى الأول وأهمها .

١ — أن مباحث الأديان ليست متشابهة فيوجد فى بعضها من المباحث والقضايا مالا يوجد فى الآخر ؛ فالبوذية مثلا لم تتكلم عن الإله ، وهو سبحانه القمة فى الإسلام ، وفى البوذية : موضوع النرفانا ، وليس فى الأديان السماوية مايماثل ذلك الموضوع ... الخ .

وإذا لم تتشابه المباحث كانت المقارنة غير دقيقة ، إذ لا يوجد مقارنة بين الأديان عنها والحالة هذه .

٢ — أن دراسة مقارنة الأديان على هذا النحو لا تعطى فكرة متكاملة عن كل دين ، حيث ترى مباحث وقضايا كل دين متناثرة متباعد هنا وهناك .

هذا ، وإلى جانب هاتين الطريقتين فى مقارنة الأديان نجد من جانب آخر — نوعين فى دراسة الأديان :

الأول — دراسة وصفية لايتجاوز فيها الباحث عرض المذاهب والآراء على ماهى عليه فى كتب أصحابها دون تحيزلها ولا ميل منها .

أما النوع الثانى — فهو تلك الدراسة النقدية التى تهدف إلى تمحيص تلك المذاهب والإديانة عما فيها من غث وسمين .

وقد اختار الإمام الشهرستانى أن ينهج طريقة الدراسةالوصفية حيث يقول : وشرطى على نفسى أن أورد مذهب كل فرقة على ماوجدته فى كتبهم من غير تعصب لهم ولا كسر عليهم ، ودون أن أبين صحيحه من فاسده ، وأعين حقه من باطله ، وإن كان لا يخفى على الأفهام الذكية فى مدارج الدلائل العقلية لمحات الحق ونفحات الباطل »

ويخيل لى من تلك العبارة الأخيرة أنه فضل ما فضل من تلك الدراسة الوصفية حيث يتضح الحق ، ويتكشف الباطل ، ويؤمن من الضلال والزيغ فإذا التبست الأمور وتشابهت المعالم لزمت الإشارة بقدر الحاجة أو البيان بحسب الضرورة .

ويذكر أحمد أمين فى كتابه (ضحى الإسلام) تفضيله للطريقه الثانية القائمة على النقد والموازنة ، لأنها أنفع للقارىء وأصدق فى أداء المؤلف للواجب وأدل على شخصيته .

أما ابن حزم الظاهرى فميلن فى مفتتح كتابه (الفصل) عن الأخطاء والتجاوزات التى تردى فيها بعض من كتب فى افتراق الناس فى مللهم ودياناتهم معلنا أن منهم .

(ا) من أطال وأسهب فأمل .

(ب) ومن اختصر وأوجز فأخل .

(ج) ومن استعمل الأغاليط والسفسطة والشغب ممــا لا يليق بالبحث والدرس ، حتى تأدى ذلك إلى انشغالهم عن كثير من قوى المعارضات ، وهضمهم لحق القارىء والخصم على سواء .

مشيراً بذلك إلى توجهه من اعتزامه تجنب ماوقع فيه هؤلاء وهؤلاء مما يشين البحث ، وينحرف به عن القصد .

ومؤكداً اعتماده على البراهين اليقينيـــة الراجعة إلى المقدسات الضروريه الحسية .

واعتزامه الحرص على وضوح العبارة ، وسلامة اللفظ ، حتى يستفيد القارىء من أقرب طريق ، وذلك حيث يقول :

« فإن كثيراً من الناس كتبوا فى افتراق الناس فى دياناتهم ومقالاتهم، كتبا كثيرة جداً ، فبعض أطال وأسهب وأكثر وهجر ، وستعمل الأغاليط والشغب ، فكان ذلك شاغلا عن الفهم،قاطعا دون العلم ، وبعض حذف وقصر،وقلل واختصر ، وأضرب عن كثير من قوى معارضات أصحـاب المقالات ، فكان فى ذلك غير منصف لنفسه فى أن يرضى لها بالغبن فى الإبانة، وظالماً لخصمه فى أن لم يوفه حق اعتراضه ، وباخسا حق من قرأ كتابه إذ لم يغنه من غيره ، وكلهم — إلا حلة القسم — عقد كلامه تعقيداً يتعذر فهمه على كثير من أهل الفهم ، وحلق على المعانى من بعد حتى صار ينسى آخر كلامه أوله .

قال أبو محمد رضى الله عنه : فجمعنا كتابنا هذا مع استخارتنا الله،عز وجل فى جمعه، وقصدنا به قصد إيرادالبراهين المنتجة عن المقدمات الحسية، أو الراجعة إلى الحس من قرب أو من بعد على حسب قيام البراهين التى لاتخون أصلا مخرجها إلى ماأخرجت له ، وأن لايصح منه إلا ماصححته البراهين المذكورة فقط إذ ليس الحق إلا ذلك ، وبالغنا فى بيان اللفظ وترك التعقيد، راجين من الله تعالى على ذلك الأجر الجزيل » .

ومهما يكن من أمر فقد ألزمت نفسى هذا الطريق الثانى تحقيقا لمميزاته التى عرضناها ، وتجنبا لما لاحظه المحققون من عيوب وقصور فى الطريق الأول .

ومتبعا سبيل الدراسة الوصفية فيما سوى تلك القضايا والنقول التى يجد المرء فيها نفسه مضطراً أن يفصح عما فيها من خطل ، وينبه على ما أصابها من ضلال ، معذرة إلى ربنا ولعل الخاطئين يثوبون إلى رشدهم ويتقون .

كما اعتزمت بمشيئته تعالى عرض نموذج للطريق الأول حيث يتحدد موضوع المقارنة ، فيتجلى تصوره والتعرف عليه فى كل ملة ، ويتبين مفهومه وتظهر أبعاده لدى أصحاب كل دين ونحـــلة ، وذلك فى ختام دراستنا من ذلك الجزء الأول .

والله من وراء القصد وعليه التكلان

أشهر الديانات غير الكتابية

ديانة مصر القديمة

المجوسية

الزردشتية

المانوية

المزدكية

الديصانية ، والمرقيونية ، والكينوية ، والصيامية ، والتناسخية

الهندسية

البوذية

الديانة فى مصر القديمة

عكف المصريون قبل الميلاد بآلاف السنين على تسجيل عقائدهم ووقائعهم على قراطيس البردى ، أو بالنقش على جدران المقابر والمعابد .

كما تركوا منذ ذلك التاريخ البعيد مجموعات كبيرة من التماثيل المنحوتة ، والأجساد المحنطة لملوكهم ورؤسائهم ، ولمقدساتهم أيضا من الطير والحيوان والأناسى وغيرها .

حتى أجمع الباحثون — كما يذكر الدكتور غلاب — على أن الديانة المصرية القديمة هى أول الديانات البشرية التى ظهرت على وجه الأرض .

كما توهم البعض من واقع تقديس المصريين الأولين لبعض الحيوانات من الصقر والنسر والقط والجعل والتمساح أنه من هذا النوع المسمى : (الطوطمية) .

وهى كلمة تدل على قداسة الحيوان الناشئة عن اعتقاد القبيلة فى قرابتها أو صلتها الوثيقة بهذا الحيوان .

وهذه الطوطمية موجودة حقا عند المتوحشين المصريين ، ولاسيما فى أطراف أمريكا ، حيث يعتقد هؤلاء أنهم بتقديسهم لهذه الحيوانات لايزيدون على أنهم يقدسون عنصرهم الأول ، ويحترمون دماء أسلافهم التى تجرى فى عروق تلك الحيوانات .

كما يعزو البعض قداستهم لهذه الحيوانات إلى إعتقادهم قرابتها فقط من أجدادهم ، أو إلى كونها حلفاء لأولئك الأجداد ، بينما يعتقد البعض أن الحيوان المقدس عنده هو إله قبيلته .

وقد رفض بعض الباحثين أن يكون منشأ قداسة المصريين للحيوان هو من هذا المفهوم ، من قرابتهم له وصلتهم به ، لعدة أسباب منها :

١ — « أن المصريين القدماء كانوا يبيحون زواج الأخ من أخته، مع أن جميع القبائل التى تدين بالطوطمية تعد هذا العمل أكبر جرائمها التى تستوجب السخط والغضب ، بل إنها مجمعة من غير شذوذ منها على أن زواج الرجل بامرأة من البطن الذى هو منه محرم .

٢ — « أن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن عنصرهم هو السماء، فلا يمكن أن ينتسبوا إلى الإنسان فضلا عن الحيوان »(١) .

ويلخص الدكتور غلاب رحمه الله رأى الأستاذ (ماسبيرو) كبير المستمصريين فى القرن العشرين فى تفسيره تقديس المصريين للحيوان بأنه وليد « إما الرهبة من ضرر هذا الحيوان وشره ، وإما الرغبة فى نفعه وخيره .

فالقسم الأول الذى كان يقدس للخوف منه هو مثل : الأسد والتمساح وأبى الهول وكانت هذه الكتلة معروفة فى عصر ماقبل التاريخ ، وكانت تمثل كائناً مرعبا غير منظور ، إلا أنه كان يظهر من حين إلى آخر فى بعض الجهات فيروع سكانها ، فقدموا إليه هذه القداسة اتقاء لشره ، كما اتقوا شر الأسد والتمساح ليأمنوا ظاهر الشرور وخفيها .

وأما القسم الثانى فهو مثل : العجول والكباش والأوز ، لأن هذه الحيوانات وأمثالها كانت تسهل عليهم الحياة وتعينهم على مشقة العيش ، فكان من الطبيعى أن يلزمهم الاعتراف بالجميل بتقديسها تفريقا بينها وبين غيرها .

---

(١) أنظر الفلسفة الشرقية ص ٢٢ — ٢٧

هذا كله فى العصر الأول ، أما فى العصور التاريخية فقد تطورت علة هذه القداسة ، فأصبح المصريون يقدسون الحيوانات لأنها مأوى حلت فيها أرواح الآلهة التى لابد لها من التجسد إذا أرادت النزول إلى الأرض ، فالنسر مثلا فى العصور الراقية لم يعد هو (هوروس) نفسه، وإنما هو مأوى لبعض أسرار (هوروس) إلخ .

ومنذ ظهرت عقيدة التجسد هذه أصبح الآلهة طوراً يمثلون فى صورة حيوان، وآخر فى صورة إنسان، وثالثا فى صورة شجرة .

والحق أنه من واقع ما كانوا يؤمنون به من عودة الروح بعد الموت، وحلولها فى المومياء (الجسد المحنط) أو فى التمثال الحجرى الذى كانوا يصنعونه لحلول الروح فيه إذا بلى الجسد المحنط ، رأوا من الأحرى بالإله وهو الأعظم روحانية — أن يكون له عدة شخصيات تحل كل واحدة منها فى مأوى، ثم فكروا فهداهم تفكيرهم إلى أن مأوى شخصيات الإله لا يصح أن تكون ميتة كالمومياء ، ولا حجرداً بارداً كالتمثال، وإنما يجب أن تكون مستحوذة على الحياة الوافعية ، وأن تكون غير إنسان ، فأخذوا يحلون الإله تارة فى عجل ، وأخرى فى تمساح ، وثالثة فى قط ، ورابعة فى طائر ، ثم يتبعون هذا الحلول بتقديس ذلك القط ، أو ذاك العجل ، أو هذا الطائر ، ويقدمون إلى هذه الحيوانات أنواع العبادة والإجلال لا على أنها معبودات لهم ولكن على أنها ظروف قد حلت فيها شخصيات الإله الأعظم التى لا تتناهى .

وكانت هذه العبادة فى أول الأمر مقصورة على فرد واحد من أفراد كل نوع من الحيوانات ينحصر فيه من بين جميع أفراد نوعه لميزه لا توجد فى غيره ، ثم تطورت هذه العقيدة فأخذت تشمل أفراد كل نوع عبد منه فرد واحد فى الماضى .

مرحلة التمهيد للتوحيد :

ظل المصريون يعبدون الكثير من الآلهـــة حيث كان لكل جهة أو مدينة إلهها الخاص بها ، حتى سنحت الفرص بسيادة الإله (هوروس) على جميع مدن القطر، وما إن تم له ذلك حتى ذاعت حول اسمه الأساطير، فأسكنته السماء ، وجعلت الشمس عينه اليمنى ، والقمر عينه اليسرى ، ولـكن هذا المجد لم يدم طويلا ، إذ لم تلبث هذه الأساطير أن خلقت له عدوا لدودا قاسيا باسم الإله (سيت) إله الشر ، واحتدمت الحرب بينهما وأخذ (سيت) يكيـــل الضربات إلى عينى (هوروس) فتصيبهما أحيانا بإصابات ظاهرة . فتنكسف الأولى أو تنخسف الثانية ، ولذلك لم يكن شىء من مظاهر الطبيعة يقلق المصريين مثل الكسوف والخسوف .

ومازال الأمر على ذاك الحال حتى هب أحد الفراعنة المسمى (مينا الأول) فأعلن فى غير مواربة أن الإلهيين كليهما قد حلا فى جسده ، وأن جسمه يشتمل على الجوهر الأساسى أو روح القدس للإلهين جميعا ، وأنه بالتالى المنفذ بالفعل لأمر الإلهين : هوروس وسيت .

ومنذ هذا العصر أطلق على مينا وأعقابه اسم (الإله) أو (مليك القطرين) أو اسم (هوروس) و (سيت) أو (مصدر الخير والشر) و (النور والظلمة)(١) .

ويذكر الدكتور دراز نقلا عن موسوعة التاريخ العام للديانات ج١ ص ٢٥١ — ٢٥٢ : أن بعض أوراق البردى المحفوظة الآن فى برلين وفى

---

(١) بتلخيص وتصرف كبيرين من كتاب الفلسفة الشرقية للدكتور غلاب ص ٢٢ — ٣٩ .

وفى ليدن تدل على أن المصريين منذ القدم كانوا يعرفون الإله الأحد الغيبي الأزلى الذى لاتصوره الرسوم ولاتحصره الحدود ويعلق رحمه الله على ذلك بقوله : غير أن تلك العقيدة الروحية كانت مشوبة عند العامة بفكرة أن هذا الإله يتمثل أو يتجسد أو يحل سره فى بعض الكائنات الممتازة من إنسان أو حيوان أو جماد فكانوا يعتقدون أن قوة التدبير فى الملوك وقوة الإخصاب النباتى فى النيل ، وقوة الإخصاب الحيوانى فى عجل أبيس مستمدة من السماء ، (بتلقيح شعاع الشمس مثلا) وأن هذه الكائنات الخاصة أهل للتقديس والعبادة بفضل تلك الصلة السرية بالإله الأعلى(١) .

عقيدة قدماء المصريين فى البعث والجزاء :

أمن المصريون منذ أقدم عصورهم بالبعث والحساب والجزاء فى حياة أخرى غير هذه الحياة يجد فيها كل إنسان جزاء ماقدمت يداه وذلك من واقع :

(ا) إيمانهم بالإله العادل الحكيم .

(ب) ما تمتلىء به هذه الحياة من أشرار مفسدين ينعمون بالعيش الرغد والحياة السعيدة الآمنة والمال الوفير والجاه والسلطان العريض .

ثم ما يرونه من أخيار صالحين صادقين يعانون شظف العيش وضيق ذات اليد واحتمال المظالم والجور دون أن يجدوا من ينصفهم ويدفع عنهم ويقف إلى جانبهم .

---

(١) راجع كتاب (الدين) للدكتور دراز ص ١١ .

فإما أن تكون هناك حياة أخرى يجازى فيها المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته وتتحق بذلك عدالة الإله الحكيم .

وإما أن لايكون هناك بعث ولاحساب ولاجزاء وتنتهى حياة الظالمين والمظلومين على سواء ويستوى الذين يعملون الصالحات والمرتكبون للموبقات ، وبذلك تنتفى صفة العدالة والحكمة عن الإله الذى يجب له — حتى يكون إلها حقا — أن يتصف بكل كمال ويتنزه عن كل نقصان ، ومتى انتفى عنه العدل لحقه النقص فانهارت ألوهيته ، ومن ثم فالحياة الأخرى ضرورية ولازمة يهدى إليها العقل السليم والمنطق المستقيم من خلال الاعتراف والإيمان بوجود الإله العادل الحكيم .

ويوضح لنا الأستاذ (بريستيد) صورة من المساءلة والمحاكمة التى تتم بمعرفة الإله أوزوريس ، والآثام التى يعاقب عليها المرء أمام هذه المحكمة فيقول : « وتتكون محكمة أوزيريس فى عقيدة القوم من اثنين وأربعين قاضيا يجلسون أمام المعبود كالزبانية يمثل كل منهم قسما من أقسام مصر ، فإذا دخل المتوفى أمام المحكمة وأنكر أمام كل قاض إثما من آثامه يوزن قلبه فى ميزان مقابل ريشة العدالة ، للتأكد من صدق قوله .

أما الآثام التى يتبرأ منها الميت أمام محكمة أوزيريس فهى بعينها الآثام المستهجنة فى عهدنا هذا ، وهاك بيانا موجزا لتلك الآثام : السرقة ، والقتل والاختلاس ، (وبالأخص السلب) ، والكذب ، والخداع ، وشهادة الزور والرياء ، والتنابذ بالألقاب ، والتجسس ، وعدم الاعتدال فى الأمور الجنسية ، وامتهان كرامة المعبودات أو الأموات ، كالكفر بهم وسرقة أمتعة الموتى »(١) .

---

(١) انظر ذلك فى كتاب الفلسفة الشرقية للدكتور غلاب ص ٥٧ — ٥٨ .

« فإذا فرغ (توت) — وهو الذى تصوره لنا الآثار المصرية حاملا الميزان فى يده — من مهمته أمر بهذا المسئول فسيق إلى ذلك الصراط المخوف الذى مد فوق الجحيم والذى إذا اجتازه الشخص نجا وارتقى إلى جوار الآلهة والفراعنة الأبرار ، وإذا هوى من فوقـــه سقط فى واد سحيق ممتلىء بالأفاعى والحيات التى تتولى تعذيبه بقسوة حتى ينال قسطه من الجزاء »[1] .

---

(١) المصدر السابق صـ ٥٧ .

المجوسية

المجوسية : نحلة فارسية ، والنسب اليها : مجوسى ، والجمع ؛ مجوس ، كاليهودية ، ويهودى ، ويهود(١).

والمجوس فى لسان العرب : اسم لجيل معروف من النـــاس واحدهم مجوسى ، وقد نسب اليهم دينهم الذى كانوا عليه من عبادة النار فقيل : المجوسية مثل : البربر والروم ، واحدهم بربرى ورومى فإن كانت لهم ديانة خاصة بهم قيل عنها : البربرية ، والرومية ، كما يقال عن لغتهم اللغة البربرية والرومية .

وفى القاموس : مجوس كصبور اسم رجل صغـير الأذنين (معرب منج كوش) وضع دينا ودعا إليه فعرف به ونسب إليه هذا الدين فقيل مجوسية ومجوسى .

أساسها : أساس المجوسية الأصلية القول :

(أ) بأصلين للعالم النور والظلمة أو الروح والمادة وبالفارسية : يزدان وأهرمن .

(ب) أزلية النور أى الروح المعبر عنه فى الفارسية بيزدان أو : أهورامازدا ، أو : هرمز ، على اختلاف اللهجات فى النطق ، وحدوث الظلمة أى المادة (أهرمن) .

ثم كان التحول إلى القول بقدم هذين الأصلين جميعا ، وأنهما المدبران

---

(١) أنظر الصحاح ،

للعالم المشرفان عليه ، ومن أجل ذلك كانت المجوس هم الثنوية(١) أى القائلين بأصلين للعالم أزليين مدبرين له .

(ج) أما الأساس الثانى للمجوسية فهو عبادة النار.

يقول الشهرستانى : الثنوية اختصت بالمجوس حيث أثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر، والصلاح والفساد يسمون أحدهما النور ، والثانى الظلمة ، وبالفارسية : يزدان وأهرمن ،

ثم يبين رحمه الله أن القائلين بقدم النور والظلمة هم غير الأصليين من المجوس فيقول : «المجوس أثبتوا أصلين كما ذكرنا إلا أن المجوس الأصلية زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين ، بل النور أزلى والظلمة محدثة»(٢)،

ومهما يكن من أمر فهم جميعا قائلون:

١ — إن ما يحدث من خير ونفع وصلاح مرده إلى النور، وما يكون من شر وضر وفساد مرده إلى الظلمة،

٢ — وإن إله الخير أو النور فى نزاع دائم مع إله الشر والظلمة .

٣ — وإن أعمال الإنسان من صلاة وعبادة وصلاح تعين إله الخير فى نزاعه مع إله الشر.

تقديس المجوس للنار وسببه: اتخذ المجوس النار رمزاً لإله النور والخير

---

(١) الثنوية بفتح النون كما فى المعجم الوسيط وقد ضبطها الأستاذ أحمد أمين فى فجر الإسلام ص ١٢٣ بسكون النون .

(٢) الملل والنحل ٢/٩٣ هامش الفصل .

يشعلونها فى معابدهم ، ويعملون على استمرار إذكائها حتى تقوى وتنتصر على الظلمة وتمحقها وينهزم إله الشر .

ثم اتخذوها معبوداً لهم .

ويقول الشهرستانى : المجوس إنما يعظمون النار لمعان منها :

(أ) أنها جوهر شريف علوى .

(ب) ومنها أنها ما أحرقت إبراهيم الخليل عليه السلام .

(ج) ومنها ظنهم أن التعظيم ينجيهم فى المعاد من عذابها .

هذا وقد اتخذ المجوس إلى جانب تعظيمهم للنار وعبادتها من أجل إعانة النور وإله الخير ، اتخذوا كثيراً من المظاهر الطبيعية النافعة آلهة معينة لإله الخير (مازدا) ، فالسماء الصافية ، والضوء ، والهواء ، والماء ينزل من السماء كل ذلك جذب أنظارهم ، واستحوذ على إعجابهم فعبدوه مع إله الخير راجين بذلك أن ينتصر ويقوى على إله الظلام والشر (أهرمن) .

كيفية حدوث الظلمة من النور :

المجوسية الأصلية يزعمون كما قدمنا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين بل النور هو وحده الأزلى ، أما الظلمة فمحدثة .

ولكن كيف حدثت الظلمة ؟ يرى بعضهم حدوث الظلمة من النور وانبثاقها عنه .

ويرد عليهم البعض الآخر (القائل بقدم الأصلين) بأن النور وهو الخير المحض لا يتأتى أن يحدث منه وينبثق عنه شر ما ولو جزئياً ، ولا يكون منه فساد فى صورة ما من الصور ، فكيف يقال : بصدور الظلمة منه أو انبثاقها عنه ، وهى أصل الشر .

ويحيل البعض القائل بحدوث الظلمة من أجل ذلك حدوث الظلمة من النور .

ويرد عليه بأنه لاشيء يشارك النور فى الإحداث والاختراع ، ولا فى القدم والأزلية على ماذهبوا إليه من أن النور وحده هو القديم الأزلى دون سواه ، والمحدث بالتالى لكل ما عداه فما مصدر الظلمة إذن ؟ .

يقول الشهرستانى معقبا على ذلك : «وبهذا يظهر خبط المجوس» يعنى الأصليـــة .

هذا ، واعلم أن مسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين :

إحداهما : بيان سبب امتزاج النور بالظلمة، أى امتزاج الخير بالشر أو الروح بالمادة.

والأخرى : سبب خلاص النور من الظلمة ، أى انتصار الخير واندحار الشر .

كما يرى المجوس أن الامتزاج هو المبدأ ، أى مبدأ وجود هـذا العالم، والخلاص أى خلاص الروح من المادة، هو المعاد ، حيث تعود الروح بشفافيتها طليقة مرفرفة إلى أفقها وعالمها المضىء الأرفع الذى هبطت منه ، وتعود المادة بكثافتها وثقلها مخلدة هابطة إلى عالمها السفلى .

الزردشتية

الزردشتية: نحلة فارسية أيضاً تنسب إلى رجل يدعى زردشت(١) بن بورشب ، كما ذكر الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل(٢) .

أما أفلاطون فسماه فى كتابه (السيبادس) زرادشت بن أورمزد ، وله لدى الأكثرين من المؤرخين بالناحية الغربية الشمالية من البلاد الفارسية حوالى سنة ستين وستمائة قبل الميلاد فى أصح التقديرات، وتوفى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة قبل الميلاد ، ويستفاد من كلام الأستاذ أحمد أمين فى فجر الإسلام أن مولده كان بأذربيجان .

ويذكر الشهرستانى أن أباه من أذربيجان، وأمه وتدعى (دغدوية) من الرى ، ويذكر الباحثون والكاتبون أن زردشت ظهر بأذربيجان مدعياً النبوة والرسالة وأن الله تعالى قد بعثه ليزيل ما علق بدين المجوسية من الضلال والانحراف ، وأنه « قد ظل يدعو الناس سنين طوالا فلم يستجب لدعوته إلا القليل ، فأوحى الله إليه (كما يقال) أن يهاجر من (أذربيجان) موطنه ومسقط رأسه إلى (بلخ) ، وفيها نشر دعوته فى بلاط الملك (بشتاسب) أو كشتاسف بن لهراست ، فاستجاب له أولا أبناء الوزير ثم الملكة نفسها ، وقاومه رجال البلاط ، وجادلوه ولكنه انتصر عليهم بدخول الملك نفسه وهو بشتاسب فى دينه .

وقد تحمس الملك لهذا الدين الجديد . فتتابع الناس للدخول فيه أفواجاً(٣).

---

(١) زردشت بفتح الدال أو ضمها أو زاردشت أو زرادشت حسب اختلاف اللهجات فى نطق هذا الاسم .

(٢) الملل والنحل ٢/٤١ طبعة مستقلة عن الفصل .

(٣) أنظر فجر الإسلام ص ١٠٠

دعوة زردشت وديانته :

بينا من قبل الأساس الذى بنيت عليه الديانة المجوسية من :

(ا) القول بأصلين للعالم النور والظلمة .

(ب) والقول بآلهة كثيرة خيرة معينة لإله الخير الأصلى (مازدا) ، ومن ثم فهى جديرة بالعبادة والزلفى .

(جـ) والقول أيضاً بآلهة للشر معينة لإله الشر الأكبر وهو (أهرمـ) .

ثم كانت دعوة زردشت او ديانته مبنيه فى المشهور على هذين الأصلين أيضاً ، إلا أنه بذل جهداً غير مشكور فى توحيد آلهة الخير رغم كثرتها ، وتعب فى لم شعثها حتى جعلها أوردها إلى إله واحد هو (أهورا مازدا) .

وكذلك فعل فى قوى الشر فحصرها فى شىء واحد هو (أهرمن) .

وبذلك انحصرت الآلهة أو القوى عنده فى قوتين : قوة الخير المتمثلة فى (مازدا) وقوة الشر المتمثلة فى (أهرمن) .

فزردشت إذن على المشهور ثنوى قائل بأصلين للعالم كالمجوسية الأولى .

أما الشهرستانى فيذكر أن زردشت — وقد بعثه الله نبياً ورسولاً حسب دعوى زردشت نفسه واعتقاد أصحابه فيه — دعا كشتاسف الملك فأجابه إلى دينه ، وكان دينه عبادة الله وحده والكفر بالشيطان ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجتناب الخبائث ، وقال : النور والظلمة أصلان متضادان ، وكذلك يزدان وأهرمن ، وهما مبدأ موجودات العالم ، وحصلت التراكيب من امتزاجهما ، وحدثت الصور من التراكيب المختلفة ، والبارى تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما ، وهو واحد لاشريك له

ولا ضد ولا ند ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة كما قالت الزروانية.

وربما جعل النور أصلا، وقال إن وجوده وجود حقيق، وأما الظلمة فتبع كالظل بالنسبة إلى الشخص، فإنه يرى أنه موجود وليس هو بموجود حقيقة، فأبدع النور، وحصل الظلام تبعاً؛ لأن من ضرورة الوجود التضاد، فوجوده ضرورى واقع فى الخلق لا بالقصد الأول(١)».

ويقول الأستاذ العقاد: «وقد حرم زرادشت عبادة الأصنام والأوثان، وقدس النار على أنها هى أصفى وأطهر العناصر المخلوقة، لا على أنهما هى الخلاق المعبود»(٢).

ويذكر الأستاذ العقاد ما يتخيله زرادشت من مناجاته (هرمز) وسماعه جوابه، وسؤاله سؤال المتعلم المسترشد لمرشده وهاديه حيث يناديه: رب!! هب لى عونك كما يعين الصديق أخلص صديق، ويسأله، رب ألا تنبئنى عن جزاء الأخيار؟ أيجزون يارب بالحسنة قبل يوم المعاد؟ أو يسأله: من أقر الأرض فاستقرت، ورفع السماء فلا تسقط، ومن خلق الماء والزرع، ومن ألجم للرياح سحب الفضاء وهى أسرع الأشياء»(٣).

أقول: وذلك ينطق بمدى ما كان عليه زردشت وما كان يدعو إليه من التوحيد الخالص الواضح والمخالف تماماً لما هو المشهور عنـــه من أنه ثنوى.

---

(١) الملل والنحل ٧٨/٢ هامش الفصل.
(٢) كتاب (الله) ص ٩٦
(٣) المرجع السابق.

زيادة تحقيق حول دين زردشت :

فى ضوء ما تقدم من تقرير الشهرستانى لديانة وأفكار زردشت ، وما أثبته الأستاذ العقاد من :

(ا) أن البارى واحد لاشريك له ولا ضد ولاند .

(ب) وأنه تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما .

(ج) ومن تحريمه لعبادة الأصنام والأوثان .

(د) وإقراره بمخلوقية النار .

يتبين لنا البعد إلى حد ماعن التصوير الأمثل فيما ذكره المرحوم الدكتور غلاب متابعاً فى الأغلب لكثير من الباحثين ولبعض من كتاب الفرنج وهو بصدد الحديث عن أهم مميزات الديانة الزردشتية من :

(ا) أن زردشت استطاع أن يعلن فى جرأة أن (أهورامازدا) ليس إلهاً فارسياً وإنما هو إله الكون كله ، وأنه (يعنى زردشت) هو النبى الذى تلقى الوحى من هذا الإله العالمى الذى ليس له شريك وإنما له خصم هو دونه فى الرفعة ، وهو (أهرمن) إله الشر الذى سينهزم على ممر الزمن.

(ب) وأن الخير سيعم الكون كله عندما تسود الفضيلة وينهزم إله الشر (أهرمن) الذى هو العدو الأوحد لأهورا مازدا (١) .

حيث كان زردشت بهذا التصوير ثنويا قائلا بإلهين (مازدا) و(أهرمن) مهما كان (أهرمن) دون (مازدا) ومنهزما أمامه فى النهاية .

ويتناول الأستاذ أحمد أمين ذلك الاختلاف بين الكتاب المحدثين

---

(١) الفلسفة الشرقية صـ١٨٨.

والباحثين القدامى حول ديانة زردشت ، ثم ناقلا ما يقوله الأستاذ هوج Houg فى التوفيق بين هذا الاختلاف والتضارب فيقول .

وبعد ، فهل دين زردشت ثنوى يرى أن العالم يحكمه إلهان : إله الخير وإله الشر ، وأن لكل إله ذاتا مستقلة ؟ أو هو موحد يرى أن العالم يحكمه إله واحد ؟ وأن ما فى العالم من خير وشر ، وما فيه من قوتين متنازعتين ليستا إلا مظهرين أو أثرين لإله واحد أختلف الباحثون فى الإجابة عن هذا السؤال .

فيرى كثيرون أنه ثنوى كما يدل عليه ظاهر كلامه، وقد ذهب إلى هذا الرأى بعض كتاب الفرنج ، ومنهم من كتب فى دائرة المعارف البريطانية: مادة زردشت .

ومنهم من يرى أنه موحد ، وإلى ذلك ذهب الشهرستانى يعنى فى كتابه الملل والنحل — والقلقشندى فى صبح الأعشى وغيرهما .

ويقول الأستاذ هوج Houg « إن زردشت كان من الناحية اللاهوتية موحدا ، ومن الناحية الفلسفية ثنويا » .

ولعله يريد من قوله هذا أنه من ناحية العقيدة الدينية كان يرى أن للعالم إلها واحدا ، ولكن إذا تعرض لشرح فلسفة العالم ، ومافيه من خير وشر يتطاحنان وما إلى ذلك فهو ثنوى يرى أن فى العالم قوتين » (١) .

والرأى عندى خطأ القائلين بثنوية الزردشتية حيث كان التوحيد هو الفطرة ، وأن مبعث هذا الخطأ هو أخذ هذه الديانة وتمثلها فى صورتها التى أمست عليها وقد أصابها واختلط بها الكثير من الجهالة والخرافة فى أذهان العوام والغوغاء من الشعب .

---

(١) فجر الإسلام صـ ١٠٠

فلسفة زردشت فى المبدأ والمعاد :

يرى زردشت أن وجود العالم بما فيه من خير وشر وصلاح وفساد، وطهارة وخبث إنما سببه وحصوله من .

(ا) امتزاج النور بالظلمة .

(ب) وأن سبب ذلك الامتزاج هو إرادة البارى المبنية على الحكمة والمصلحة .

ويبين الشهرستانى المعاد وسببه عند الزردشتيه فيقول : وهما — يعنى النور والظلمة — يتقاومان ويتغالبان إلى أن يغلب النور الظلمة والخير والشر، ثم يتخلص الخير إلى عالمه، والشر ينحط إلى عالمه، وذلك هو سبب الخلاص، والبارى تعالى هو الذى مزجهما وخلطهما الحكمة رأها فى التراكيب»(٢) .

الكتاب المقدس عند الزردشتية :

ادعى زردشت أنه نبى مرسل من لدن الله تعالى كما أسلفنا، وأن الله أنزل عليه كتابا من السماء يسمى : (الأفستا) أو (الأبستا) حسب اختلاف اللهجات، وعرب فقيل (الأبستاق) ومعناه فى اللغة الفارسية القديمة : الأساس أو الأصل والسند .

وعلى ذلك الكتاب شرح يسمى (زندافستا) أو (زندا بستا) أو (زندا بستاق) ويقول الشهرستانى عن هذا الكتاب : وله كتاب قد صنفه، وقيل أنزل ذلك عليه وهو (زندوستا) (١) .

---

(١) الملل والنحل ص ٤٢ طبعة مستقلة عن الفصل .

(٢) المصدر السابق ص ٤٣

وفى الفلسفة الشرقية للمرحوم الدكتور غلاب : (زندافستا) [٢] .

ويتضح من ذلك أن (زندافيستا) أو (زندوستا) أو (زندا يستاق) عبارة عن (الأبستا) أو (الأبستاق) وشرحه (الزند) .

ويقول المسعودى : واسم هذا الكتاب (الأبستا)،وإذا عرب أثبتت فيه قاف فقيل : (الأبستاق) وعدد سورة إحدى وعشرون سورة ، تقع كل سورة فى مائتى ورقة ، وأنه كتب باللغةالفارسية الأولى ، وأن أحدا اليوم لا يعرف معنى تلك اللغة ، وإنما نقل إلى هذه الفارسية (يعنى الحالية) شىء من السور فى أيديهم يقرؤنها فى صلواتهم ، فى بعضها الخبر عن مبدأ العالم ومنتهاه ، وفى بعضها مواعظ [٣] .

ومهما يكن من أمر فليس لدى الباحث — كما يقول المرحوم الدكتور غلاب — عن الديانة الزرادشتية إلا مصدر واحد وهو كتابها المقدس (زندافيستا) .

أقول : بل ما نقل منه فقط إلى اللغة الفارسية الحالية .

هذا ، وقد كان قدماء الإيرانيين يعتقدون أن الزند كالأبستاق كتاب سماوى بل كان بعضهم يخلط بينهما ، فيتوهم أن الزند هو الكتاب الأصلى لزاردشت ، وكان بعض من يفهم حقيقته يظن أنه من عمل زرادشت نفسه ، وكان بعض المؤمنين من الزاردشتيين يتمسكون بحرفية نصوص الأبستاق ، ويعدون من يأخذ بتأويلات الزند خارجا عن حدود الشريعة ويسمونه زنديا ، ولعل كلمة زنديق معربة عن هذا الأصل [٣] .

---

(١) الفلسفة الشرقية ص .

(٢) نقلا من فجر الإسلام ص ١٠٠

(٣) الأسفار للدكتور على عبد الواحد وافى .

من عقائد الديانة الزردشتية وتعاليمها :

من أهم تلك العقائد أن للإنسان حياتين : أولى فى هذه الدنيا ، وحياة أخرى بعد الموت ، وليست حياته الأولى سوى معبرا ومزرعة يجنى المرء ثمارها فى حياته الأخرى بالعدل والقسطاس المستقيم وفق صحيفة أعماله وفى ضوء كتابه الذى يوضع بين يديه دون أن يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعماله إلا أحصاها وسجلها .

وعقب الموت تظل روح المرء ثلاثة أيام بلياليها محلقة وحول الجسد معلقة إلى جواره ، مستشعرة النعيم أو الشقاء تبعا لما قدمت يداه فى دنياه إن خيرا فخيرا وإن شرا فشر .

ومن أجـــل ذلك فينبغى إقامة الشعائر الدينية والطقوس عبر تلك الأيام إيناسا للروح ، وأملا فى زيادة الحسنات وتكفير السيئات .

وفى فجر اليوم الرابع تهب عليها ريح إما عطرة عطرة زاكية إذا كان الميت من الأتقياء الصالحين ، وإما منتنة كريهة إذا كان من الأشرار المفسدين .

ومن ثم تحملها تلك الريح إلى موضع يلتقى فيه المرء بأعماله فى صورة فتاة جميلة إذا كانت من الأعمال الحسنة ، أو فى صورة عجوز شمطاء قبيحة إذا كانت سيئة .

ثم يساق بواسطة أعماله إلى حيث الحساب ثم الحكم ، وهناك يلتقى بثلاثة قضاة وينصب الميزان فتوضع فى إحدى كفتيه الحسنات ، وفى الأخرى السيئات ، وتكون النجاة رهنا برجحان كفة الحسنات وثقلها ، أما إذا شالت وخفت كفة الحسنات فأمه هاوية .

وعلى أثر إنتهاء الوزن وصدور الحكم يساق المرء إلى اجتياز الصراط

المضروب على متن جهنم حيث يتسع للأتقياء البررة، فيعبرونه بسلام وأمن، ثم يلتقون بالإله (مزدا) فى بشر وترحاب، وهناك يستمتعون فى كنفه وظله بالسعادة الأبدية.

أما الكافرون الأشرار فيضيق أمامهم الصراط : فإذا هو أدق من الشعرة وأحد من الشفرة، ثم إذا بهم يهوون فى قعر جهنم عبيدا (لأهرمن) يلاقون معه أشد العذاب وسوء المصير.

أما هؤلاء الذين تعادلت حسناتهم وسيئاتهم فهم فى مكان فسيح بين السماء والأرض يقاسون فيه ألم الحر والبرد، ويحسون فيه بجميع التغيرات الجوية منتظرين بين الخوف والرجاء الحكم الأخير على أمل الخلاص مما هم فيه.

فإذا ما صح ذلك النقل عن ديانة زردشت وما جاء بها من تعاليم تتفق كما نرى إلى حد كبير مع الدين الصحيح، سيما فى إطار ما يؤدى إليه نقل الشهرستانى من كونه قائلا بالإله الواحد الخالق للنور والظلمة المبدع لهما الذى لا شريك له ولا ند، فاليقين أنه مستمد مما نزل من عند الله مقتبس من وحى السماء، حيث لا قدرة للعقل الإنسانى على معرفة هذه الأحكام والشرائع إلا عن طريق الوحى السماوى.

ومن تعاليم الزردشتية التى يمكن درجها تحت عنوان (أحكام الشريعة): وجوب العمل على تنمية النوع البشرى وتقويته، ومن أجل ذلك أباحته الزردشتية تعدد الزوجات ليكثر النسل، وحرمت الصوم لتتوفر القوة فى جميع أفراد الشعب.

كما أوصت بالمزيد من بذل الجهد من أجل خصوبة الأرض واستزراعها ومضاعفة غلاتها، والاستمتاع بما فى هذه الحياة من خيرات ولذات مشروعة، واعتبرت ذلك من أسمى فروض الشريعة، حتى إن إهمال بقعة

من الأرض بدون إثبات ، أو عدم الاكتراث بالتزين ، كارتداء الملابس النظيفة ، أو عدم المبالاة بتنظيم قص الشعر والأظافر كل ذلك فى الديانة الزردشتية من الجرائم الممقوتة والرذائل التى يجب على المرء التخلص منها وعدم الوقوع فيها (١) .

إشارة إلى مراحل الزردشتية التاريخية :

ظلت الزردشتية هى الديانة السائدة فى فارس وما حولها منذ أعلن الملك (بشتاسب) دخوله فى دين زرادشت ، وقد أدى إخلاص هذا الملك لتلك الديانة وتحمسه لها إلى دخول الناس فيها أفواجا ، وذلك حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد .

ثم خباضوؤها وتراجعت بسبب إنتصارات الإسكندر سنة ٣٣١ قبل الميلاد وقضائه على الأسرة المعروفة بـ (الكيانيين) المعتنقين للزرادشتية والمخلصين لها والذائدين عن حماها .

وفى عهد الأسرة الساسانية الفارسية التى بدأت حكمها سنة ٢٢٦ ميلادية طفقت الزرادشتية تستعيد نشاطها ، وتسترد قواها ، وتحتل مكانتها الأولى التى فقدتها على يد الاسكندر .

وبقى الأمر على ذلك من سيادة هذه الديانة وانتعاشها واعتبارها الدين الرسمى للفرس إلى الفتح الإسلامى ، حيث اعتنق كثير منهم الإسلام ، وفر بعضهم إلى جزر فى الخليج الفارسى ، وبعضهم من بعد ذلك إلى بلاد الهند ، كما بقيت طائفة منهم فى فارس مستمسكة بدينها بعد الفتح — فى ظل

---

(١) انظر ذلك فى فجر الإسلام ص ١٠٢ والفلسفة الشرقية للدكتور غلاب ص ١٩٧ — ١٩٩

تعاليم الإسلام السمحة — وبقيت معابد النار قائمة فى كل ولاية من ولايات فارس تقريبا على مدى القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح .

ومن المشاهير الذين تركوا الزرد شتيـة معلنين إسلامهم الكاتب المعروف عبد الله بن المقفع فى أوائل القرن الثانى للهجرة وسامان أمير بلخ ومؤسس المملكة الإسلاميـــــة السامانية فى أوخر القرن الثالث الهجرى والشاعر المشهور مهيار الديلمى معلنا إسلامه على يد الشريف الرضى سنة ٣٩٤ هـ .

هذا وقد بقى بعض الزرد شتيين فى فارس حتى العصر الحالى ، وقد قدر عددهم من عهد قريب بنحو ثمانية آلاف وخمسمائة (١) .

مذهب الجمهور من المسلمين فى معاملة المجوس :

١ — أخذ الجزية وقبولها منهم ، استنادا إلى ما فى صحيح البخارى عن عبد الرحمن بن عوف من أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر تيما وإلحاقا لهم بأهل الكتاب — كما يقول ابن كثير — ولعل ذلك حيث كان لهم شبهة كتاب .

(ا) إما بعد كتابهم « الأفستا » كأنه كتاب منزل ، كما يقول أحمد أمين فى (فجر الإسلام) .

(ب) وإما من حيث إنهم كانوا ممن نزلت عليهم صحف إبراهيم عليه السلام ، وما كانت تسمى كتابا بل صحفا ، شأن جميع ما أنزل على الأنبياء والرسل قبل موسى فالتوراة أول كتاب نزل من السماء (الملل والنحل ٤٩/٢ هامش الفصل) .

---

(١) انظر تلك الإشارة فى فجر الإسلام ص ١٠٣، ١٠٤ و كتب التاريخ

كما أنها — أى تلك الصحف — رفعت عنهم لأحداث أحدثوها .

يقول الشهرستانى : فإن الصحف التى أنزلت على إبراهيم عليه السلام قد رفعت إلى السماء لأحداث أحدثها المجوس (١) ، ولهذا يجوز عقد العهد والذمام معهم .

٢ — وأنه لا يحل للمسلمين أن يأكلوا ذبائحهم ولا ينكحوا نساءهم ، حيث كانوا من غير أهل الكتاب على المشهور عند أهل العلم ، فإن المراد بأهل الكتاب فى قوله تعالى : اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن « الآية هم اليهود والنصارى فقط ، أما المجوس فمن لهم شبهة كتاب .

ذلك هو مستند الجمهور من العلماء فى معاملة المسلمين للمجوس من حيث :

(ا) أخذ الجزية (ب) وعدم أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم .

وربما يستند البعض فى تلك المعاملة إلى ما قد يروى وينسب إلى الرسول ﷺ من قوله : « سنوا بهم — أى بالمجوس — سنة أهل الكتاب » أو مع زيادة : غير آكلى ذبائحهم ولا ناكحى نسائهم ، كما فعل ذلك أحمد أمين فى فجر الإسلام ص ١٠١ ، وكما يشتم من كلام الشهرستانى : « وننحى بهم — أى بالمجوس — نحو اليهود والنصارى إذ هم من أهل الكتاب ولكن لا يجوز

---

(١) يبين (البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان) لعباس بن منصور السكسكى الحنبلى المتوفى ٦٧٢ هـ تلك الأحداث فيقول : فلما وقع ملكهم على ابنته أو أخته فى حال سكره اطلع عليه أهل مملكته فخاف أن يقيموا عليه الحد فامتنع فرفع الكتاب من بين أظهرهم وذهب العلم من صدورهم ، وهم الذين بايعوه على ذلك ، وأما الذين خالفوه فقتلهم » .

منا كحتهم ولا أكل ذبائحهم فإن الكتاب قد رفع عنهم » (الملل والنحل ٤٧/٢ على هامش الفصل) .

ويقول صاحب فتح البيان فى مقاصد القرآن العلامة صديق حسن خان : ولم يثبت الأصل- يعنى (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) ولا الزيادة يعنى (غير ناكحى نسائهم ولا أكلى ذبائحهم) بل الذى ثبت فى الصحيح عن عبد الرحمن بن عوف أن النبى ﷺ أخذ الجزيه من مجوس هجر ويقول قبل : وقد رواه بهذه الزيادة جماعة ممن لا خبرة له بفن الحديث من المفسرين والفقهاء (١)

هذا ، ويستثنى من تلك المعاملة صنفان من المجوس لا يجوز قبول الجزية منهم .

(ا)المزدكية ، حيث فارقوا دين المجوس الأصلية باستباحة المحرمات كلها ، وبقولهم : إن الناس كلهم شركاء فى الأموال والنساء وسائر الذات

(ب) وصنف أخر يسمى (البهافريدية) حيث ظهر دينهم هذا من زعيم لهم يسمى (به آفريد) فى دولة الإسلام ، وكل كفر ظهر بعد دولة الإسلام فلا يجوز أخـــذ الجزية من أهله (٢) . بل يجب استتابتهم فإن تابوا وإلا وجب قتلهم واستغنام أموالهم .

---

(١) انظر فى ذلك (فتح البيان) لصديق خان (والتفسير العظيم) لابن كثير عند قوله تعالى اليوم أحل لكم الطيبات : الآية ٥ من سورة المـــائدة .

(٢) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى صـ ٣٥٥

المـــانوية

المانوية : نحلة فارسية كسابقتيها من قبل :المجوسية، والزردشتية .

وتنسب إلى رجل يقال له (مانى) أو (مانيس بن فاتك) أول من عمل على تأسيسها ونشرها والترويج لمبادئها .

وقد ولد مانى صاحب هذه النحلة فى بابل سنة ٢١٥ من ميلاد المسيح ولقى حتفه على يد أحد ملوك الفرس سنة ٢٧٥ ميلادية .

ويذكر المؤرخون فى حديثهم عنه أنه كان متنسكا متصوفاً متشائماً لا يؤمن بانتصار الخير على الشر البتة ، ولا أمل عنده فى صلاح هذا الوجود .

ديانة مانى وفلسفته فى الحياة :

يؤكد كتاب المقالات أن مانى :

(ا) قائل بالأصلين النور والظلمة أو الخير والشر .

(ب) وأنه من القائلين بقدم هذين الأصلين وأزليتهما مخالفاً بذلك المجوسية الأصلية القائلة بأزلية النور أو الخير وحدوث الظلمة أو الشر، ومن أجل ذلك فهو ثنوى من أصحاب الاثنين الأزليين كما قال الشهرستانى فى مقدمة حديثه عن المانوية .

(ج) وأنه كان متشائماً يائساً من انتصار الخير وانهزام الشر، ولعل ذلك نتيجة تأثره إلى حد ما بالنصرانية المنحرفة إلى الانزواء والحرمان من لذات الحياة ، مما طبع مذهبه باليأس والانطواء والتشاؤم .

ويقول الشهرستاني عن المانوية هذه : إنهم أصحاب ماني بن فاتك الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور وذلك بعد عيسى عليه السلام ، أحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام .

ثم يحكى عن محمد بن هارون الوراق وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهبهم يحكى عنه قوله : إن الحكيم ماني زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور والآخر ظلمة ،وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا ، وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم(١) .

وزعم ماني : أن كلا من النور والظلمة قوى حساس سميع بصير ، ثم هما من بعد ذلك متضـــادان مختلفان أيما اختلاف من حيث النفس والفعل والتدبير .

وقد ذكر الشهرستاني أمثلة من ذلك الاختلاف القائل به ماني بين النور والظلمة منها :

(ا) أن جوهر النـــور حسن فاضل كريم صاف نقي طيب الريح حسن المنظر .

وجوهر الظلمـة : قبيح ناقص لئيم كدر خبيث منتن الريح قبيح المنظـر .

(ب) وأن نفس النور : خيرة كريمة حكيمة نافعة عالمة .

أما الظلمة فنفسها : شريرة لئيمة سفيهة ضارة جاهلة .

(ج) وأن فعل النور : الخير والصلاح ، والنفع والسرور والترتيب ، والنظام والإتقان .

---

(١) الملل والنحل انظر الباب الثالث الفصل الثاني في الثنوية .

وفعل الظلمة : الشر والفساد والضرر والغم والتشويش والتتبير والاختلاف .

(د) وأن جهة النور : جهة فوق ، وأكثرهم على أنه مرتفع من جهة الشمال .

وجهة الظلمة : جهة تحت ، وأكثرهم على أنها منحطة من ناحية الجنوب(١) .

رأى مانى فيما يعرف بالامتزاج والخلاص أو المبدأ والمعاد :

يتحدث الشهرستانى عن مذهب مانى تجاه كيفية وسبب امتزاج النور بالظلمة الذى هو عبارة عن تكون هذا العالم ،وعن الخلاص وسببه ، فيقول : ثم اختلف المانوية فى المزاج وسببه ،والخلاص وسببه قال بعضهم : إن النور والظلام امتزجا بالخبط والاتفاق لا بالقصد والاختيار »(٢) .

وقال آخرون : إن ذلك بقصد وتدبير من ملك النور وتوجيه منه لملائكته حتى تم ذلك الامتزاج ، ثم بتدبير أيضا حتى يتم به الخلاص والمعاد »(٣) .

عقائد مانى وتعاليمه :

يعتقد مانى — كما يذكر الشهرستانى — أن أول من بعثه الله تعالى بالعلم والحكمة آدم أبو البشر ، ثم بعث شيثاً بعده ، ثم نوحا بعده ، ثم

(١) الملل والنحل ص ٥١ طبعة مستقلة عن الفصل .

(٢) المصدر السابق ص ٥٢

(٣) أنظر تفسير ذلك فى المصدر السابق .

إبراهيم بعده عليهم الصلاة والسلام ، ثم بعث بالبددة(١) إلى أرض الهند ، وزردشت إلى أرض فارس ، والمسيح كلمة الله وروحه إلى أرض الروم ، والمغرب ، وبولس بعد المسيح إليهم ، ثم يأتى خاتم النبيين إلى أرض العرب .

ومن تعاليم مانى وشريعته التى فرضها على أصحابه : العشر فى الأموال كلها ، والصلوات الأربع فى اليوم والليلة ، والدعاء إلى الحق وترك الكذب والقتل والسرقة والزنا والبخل والسحر وعبادة الأوثان، وأن لا يعاملوا أحداً بما يكرهون أن يعاملوا بمثله .

ومن تعاليم مانى المصادمة لسنة الحياة والمخالفة لما جاء به سلفه زردشت المناداة بفكرة وجوب تخليص النفس من الجسم وإنهاء هذا العالم المادى بحسبان الجسم . والمادة أصل الشر والسوء فى هذه الحياة حيث كان سجن الروح النورانية ، وذلك كما يقول الدكتور غلاب عن طريق إضعاف النوع البشرى، وإبادة النسل بواسطة حظر الزواج وغير ذلك من وسائل التخريب والتدمير التى عمل على نشرها ، والتى لم تكن ملائمة لطبيعة الفرس الذين حبب إليهم (زرادشت) متع الحياة ولذاتها ، وعرفهم وسائل القوة والإخصاب »(٢) .

---

(١) للبد — بضم الميم وتشديد الدال — فى العربية ثلاثة معان: مختلفة : فتطلق على معبد الأصنام، أو على بوذا نفسه ، أو على الأصنام التى لا يلزم أن تكون على هيئة بوذا ، كما تأتى كلمة (بد) أو (بددة) أحيانا بمعنى (بوذا) وهو المعنى المناسب هنا (راجع دائرة المعارف الإسلامية (مادة بد) .

(٢) الفلسفة الشرقيه ص ٣٠٣

نهاية مانى :

كانت دعوة مانى إلى وجوب تخليص النفس من الجسم والعمل على إنهاء هذا العالم المادى وإبادته من واقع مايؤمن به من امتلاء تلك الحياة بالشرور والقبائح واستمرارية ذلك واستحالة التخلص منه وما يترتب على تلك الدعوة من تشاؤم ويأس، كان ذلك هو السبب فى هلاكه وإنهاء حياته وتدمير وجوده .

فلقد تذمر جمهور الشعب الفارسى من هـــذا الاتجاه الغريب عنهم، وارتفعت صيحات الاستنكار من هنا وهناك ، وتعالت أصوات الرافضين لهذا المسلك وما يجره على البلاد من ضعف وانزواء وجمود ، وما إن بلغ ذلك أسماع الملك حتى أمر بإحضار مانى وشرع فى مناقشته وسؤاله عن تلك التعاليم المنسوبة إليه فاعترف بها ولم يخف شيئا منها وصرح أمام الملك بأن التخلص من تلك الشرور والآثام التى يذخر بها هذا العالم غير ممكن ، وأن بقاء العالم معناه استمرارية تلك الشرور الآثام ومن ثم فالطريق الوحيد للقضاء على الشر هو تدمير هذا العالم .

فلم يكن من الملك إلى أن قال — كما يذكر الدكتور غلاب — «إن الحكيم المخلص فى مذهبه يجب أن يبدأ هو قبل غيره بتطبيق هذا المذهب على نفسه، فإن لم يفعل بدأ أنصاره ومريدوه بتطبيقه على أستاذهم ، ولما كنا من أنصارك فقد وجب علينا أن نبدأ بتطبيق هذه المبادىء عليك ، ثم أشار إلى الجلاد أن ابدأ بتدميره ليؤمن قبل موته بالشروع فى تحقيق مذهبه »(١) .

وأراها محاكمة جائرة مغرضة متجنية على أفكار مانى وتعاليمه التى

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٤

لا يمكن فى إطار فهمها الصحيح أن تكون مقدمة مؤدية بحال إلى هذه النتيجة الغريبة المحزنة :

حيث حدد مانى نفسه الطريق إلى إبادة هـذا العالم والتخلص بالتالى مما فيه من الشرور والمتاعب ، موضحا أنه لن يتجاوز إضعاف الحياة بوساطة حظر التزاوج بين الأحياء ، والصوم ، والعزوف عن متع الحياة ، وما إلى ذلك مما يساعد على انحسار الحياة وانكماش الأحياء وانقراضهم شيئا فشيئا .

ولا يمكن أن يكون القتل والإعدام وإزهاق الأرواح من بين الأمور المقبولة والمرضى عنها كوسيلة للقضاء على الشرور والآثام لدى مفكر مثل مانى آمن بأنبياء الله ورسله ، ورفع صوته عاليا مناديا بتحريم القتل والاعتداء ، وأن لا يعامل أحد ذا روح بما يكره أن يعامل بمثله كما ذكرنا ذلك سلفا عن الشهرستانى ، هذا ، ومن أجل ما ذكر عن المانوية من أن دينهم بين المجوسية الذين لهم شبهة كتاب والنصرانية الذين لهم كتاب منزل محقق عدوا ممن لهم شبهة كتاب أخذا بالأحوط (١) :

المزدكيـــة

المزدكية : نحلة فارسية تنسب إلى رجل يسمى مزدك عاش حوالى نهاية القرن الخامس من ميلاد المسيح :

ويقول الشهرستانى : المزدكيـة : أصحاب مزدك ، ومزدك هو الذى ظهر فى أيام قباذ والد أنو شروان ، ودعا قباذ إلى مذهبه فأجابه : واطلع أنو شروان على خزيه وافترائه فطلبه فوجده فقتله .

---

(١) انظر الملل والنحل ١/٧١ هامش الفصل .

عقيدة مزدك : تبع مزدك سلفه مانى والمجوسية غير الأصلية من قبل فى القول بالأصلين الأزليين للعالم ، النور والظلمة فهو إذن ثنوى مذكور عند الشهرستانى من أصحاب الإثنين الأزليين .

إلا أن مزدك كان يقول :

(أ) النور يفعل بالقصد والاختيار ، والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق .

(ب) والنور عالم حساس ، والظلام جاهل أعمى .

(ج) وأن المزاج كان على الاتفاق والخبط . لا بالقصد والاختيار .

(د) وكذلك الخلاص إنما يقع بالاتفاق دون الاختيار .

آراء مزدك الإجتماعية :

بينما يرى مانى كما ذكرنا أن الوسيلة للقضاء على الشر تتجلى فى منع الزواج ، وإضعاف النسل ، والزهادة فى الحياة ، يرى مزدك أن الوسيلة الوحيدة للقضاء على الشر وتطهير الصدور من الغل وتنقية القلوب من البغض والحقد وتخليص العالم مما يجر إليه ذلك من القتال وإزهاق الأرواح وإسالة الدماء إنما تكمن فى اعتناق الشيوعية المغالية ، فإن أكثر مايقع من ذلك إنما مصدره النساء والأموال فاذا ماألغيت الملكية وأحلت النساء وأبيحت الأموال وأصبح الناس شركاء فيهما كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ ، طهرت القلوب من الحقد إلى الأبد ، ووضعت الحرب أوزارها دون مانهاية .

ويذكر الدكتور غلاب أنه « كما ينبغى أن تباح الأموال والنساء يريد كذلك أن لا يختص أحد بطقوس دينية دون الآخرين حتى تزول جميع الفروق والاختصاصات التى هى منشأ كل بلاء فى هذا الكون (١) .

---

(١) راجع فى ذلك الملل والنحل ص ٥٤ والفلسفة الشرقيه ص ٢٠٥

الديصانية والمرقيونية، والكينوية والصيامية والتناسخية :

من الفرق التى تقدس النار وتدور فى فلك ما ذكرنا من المجوسية والمانوية والمزدكية أو تقرب منها ما يسمى :

(ا) بالديصانية : أصحاب ديصان ، أثبتوا أصلين : نورا ، وظلاما ، وزعموا أن النور ، وهو الله تعالى ، يفعل الخير قصدا واختيارا ، والظلام وهو الشيطان ، يفعل الشر طبعاً واضطراراً .

(ب) المرقيونيـة : أصحاب مرقيون ، وهؤلاء أثبتوا ثلاثة أصول : أصلين قديمين متضادين هما : النور والظلمة ، وأصلا ثالثا متوسطا بينهما يتأتى له بهذا التوسط أن ينهض بدور المعدل الجامع بين الأصلين المتضادين: النور والظلمة .

وحكى محمد بن شبيب عن الديصانية أنهم زعموا أن المعدل هو الإنسان إذ هو ليس بنور محض ولا ظلام محض .

(ج) الكينوية : وهؤلاء يزعمون أن أصول الموجودات مردها إلى ثلاثة : النار ، والأرض ، والماء ، وأن ما كان من خير فى العالم فرده إلى إلى النار ، وما كان من شر فرده إلى الماء ، والأرض متوسطه بينهما ، وهم بذلك يخالفون الثنوية القائلة بالأصلين النار والظلمة ، ولكنهم يوافقونهم فى تعصبهم الشديد للنار وتقديسهم إياها ، من حيث إنها علوية نورانية لطيفة .

(د) الصيامية : وهم فرقة من الكينوية امتازوا : بإمساكهم عن طيبات الرزق وتجردهم لعبادة الله ، وتوجههم فى عبادتهم هذه إلى النار تعظيما لها ، وإمساكهم أيضا عن النكاح والذبائح .

(هـ) التناسخية : وهم أيضا فرقة من الكينوية قالوا بتناسخ الأرواح

وانتقالها من شخص إلى شخص ، وما يلقى الإنسان من الراحـة والتعب ، والدعة والنصب ، فمرتب على ما أسلفـه من قبل وهو فى بدن آخر جزاء على ذلك .

والإنسان أبدا فى أحد أمرين: إما فى فعل وإما فى جزاء ، وما هو فيه، فإما مكافأة على عمل قدمه ، وإما عمل ينتظر المكافأة عليه ، والجنة والنار فى هذه الأبدان .

وهم بذلك يخالفون الثنوية القائلة بالخلاص ، وهو رجوع أجزاء النور إلى عالمه الشريف الحميد ، وبقاء أجزاء الظلام فى عالمه الخسيس الذميم [1] .

---

(١) راجع فى ذلك الملل والنحل للشهرستانى

الديانة الهندوسية(١)

الهندوسية : ديانة الجمهور الأكبر فى الهند الآن .

أسماؤها : كما تسمى هذه الديانة — التى نحن بصدد الحديث عنها — بالهندوسية فإنها تسمى بالهندوكية إذ تمثلت فيها تقاليد الهند وعاداتهم وأخلاقهم وصور حياتهم .

وأطلق عليها أيضا (البرهمية) ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد ، نسبة إلى (براهما(٢)) . بمعنى القوة العظمى التى تكلف الناس وتطلب منهم كثيرا من العبادات كقراءة الأدعية ، وإنشاد الأناشيد ، وتقديم القرابين .

---

(١) نذكر فى البداية أن مستندنا الأساسى عن الهندوسية والبوذية هو : (أديان الهند الكبرى) د / أحمد شلبى ، الفلسفة الشرقية د / غلاب (حكمة الصين) الفؤاد شبل إلى بعض مراجع أخرى فرعية .

(٢) فى علم الكلام الإسلامى أن الديانة البرهمية نسبة إلى رجل يقال له : (برهم) — أعنى لا إلى براهما كما هنا — كان فى الأصل مجوسيا ، ثم تحول إلى القول بامتناع بعثة الرسل عقلا وإحالتها ، ومن ثم إلى تكذيب جميع الرسل الستناد فى ذلك إلى كفاية العقل عن الرسل ، فما حسنه العقل فحسن ، وماقبحه فقبيح ، ومالم يحكم فيه بحسن ولا قبح يفعل عند الحاجة إليه ، والذى يبدو لى فى ضوء القول :

(أ) بأن (براهما) اسم للإله فى اللغة السنسكريتية ، .

(ب) وأنه قد اشتقت من (براهما) كلمة (البراهمة)علما على رجال الدين الذين يعتقد فيهم اتصالهم بالعنصر الإلهى (براهما)

أن يكون لفظ (برهم) مشتقاأيضا من(براهما)لقباعلى رجل كان يعتقد=

ومن براهما اشتقت كلمة (البراهمة) علما على رجال الدين الذين يعتقد فيهم أنهم متصلون فى طباعهم بالعنصر الإلهى ؛ فهم كهنة الشعب لاتجوز الذبائح إلا فى حضرتهم وعلى أيديهم[1]

مؤسس الهندوسية :

يقر الباحثون المتخصصون أنه ليس هناك مؤسس للهندوسية يمكن الرجوع إليه كمصدر لتعاليمها وأحكامها ، إذ هى دين متطور يتكون من مجموعة من التقاليد والأوضاع تولدت ونمت رويدا رويدا من تنظيم الآريين لحياتهم فى أجيال متطاولة وذلك بعد أن وفدوا على بلاد الهند وتغلبوا على سكانها الأصليين واستأثروا دونهم بتنظيم المجتمع وإدارة شئونه . كما يرى ذلك بعض المؤرخين .

نبذة تاريخية عن العنصر الهندى :

هناك رأيان فيما يتصل بتحديد العنصر والجنس الذى كان يسكن الهند فى أغوار الماضى منذ ثلاثين قرنا قبل المسيح عليه السلام .

فمن قائل إن تلك الأودية الخصيبة كانت فى تلك العهود البعيدة مأهولة

=فيه اتصاله بالإله (براهما) ؛ وعلى هذا فيمكن التوفيق بأن البرهمية نسبة إلى برهم ، وبرهم مشتق من براهما الإله فيكون الأصل هو (براهما)

(١) فالضحايا والقرابين لاتقبل إلا إذا قدمت على أيدى جمعية كهنوتية مؤلفة من ثلاثة أعضاء ورئيس يفوق زملاءه فى العلم ، وبهذه الطريقة أخذ الكهنة يستولون على الطقوس الدينية شيئا فشيئا حتى احتكروها وأصبحت وراثية محصورة بين أبناء هذه الطائفة (انظر ص ١٠٢ الفلسفة الشرقية للدكتور غلاب) .

بشعوب من الجنس السامى لهم مدنيتهم ودياناتهم وتقاليدهم وإسهامهم فى بناء صرح المدنية والحضارة العالمية بنصيب لا ينكر .

ولكنهم ظلوا قبائل متفرقة أو شعوبا صغيرة ، لكل شعب حاكمه وقوانينه وعقائده وعاداته، حتى وفد على تلك البلاد - حوالى القرن الخامس عشر قبل المسيح - أقوام غزاة من الجنس الآرى الذين عبروا البوسفور إلى آسيا بدافع من ضرورة العيش من جراء جدب وقع فى وطنهم، وما زالوا يتابعون سيرهم انتجاعا للغيث والكلأ حتى عبروا الفرات ، ثم تخلف فريق منهم حيث احتل بلاد فارس ،وواصل الفريق الآخر الزحف حتى (البنجاب) وأخذوا يغيرون على تلك البلاد الخصبة الوادعة حتى بسطوا سلطانهم عليها وأسسوا بها وحدات قوية يصح أن تسمى دولا .

ومنذ ذلك العهد بدأت الهند مرحلة جديدة فى الدين والفلسفة والسياسة وهذه المرحلة هى التى تشغل الآن أذهان الباحثين المشتغلين بدراسة الفلسفة الهندية .

أما الرأى الآخر فذلك الذى يعلن أن أصل العنصر الآرى وموطنه الأول الذى كان يقيم فيه هو بلاد الهند ، ثم كان أن ارتحلت منه بطون وجماعات إلى أوربا .

وقد اختلفت آراء العلماء وتضاربت مذاهبهم وأدلتهم فى هذا الموضوع ، أعنى موضوع أن هجرة الآريين كانت من أوربا إلى آسيا أو بالعكس

يضاف إلى ذلك اختلاف آخر ؛ حيث يقرر فريق أن الوطنيين الأولين والأقدمين فى الهند كانوا أرقى عقلا وأعظم مدنية من الفاتحين ، ويذهب آخرون إلى عكس ذلك(١)

---

(١) انظر الفلسفة الشرقية للدكتور غلاب ص ٨٨، ٨٩

الكتاب المقدس فى الهندوسية وواضعه .

« الويدا » أو « الفيدا » هو الكتاب المقدس فى الهندوسية .

واضع « الفيد » عقيدة الهندوس أن كتابهم أزلى لابداية له وملهم به ، قديم قدم الملهم ، فهو من وحي السماء ، وتنزيل من الإله (براهما)

ويرى الباحثون الغربيون والمحققون من الهندوس أنه نتاج أجيال من الشعراء والزعماء الدينيين والحكماء والصوفية بدأت قبل الميلاد بزمن طويل يقرب من خمسة عشر قرنا ، وفق تطورات الظروف وتقلبات الشئون ، وأن اكتمال هذا الكتاب وتمثله فى صورته الراهنة قد استغرق عدة قرون، كما يرجع البعض أنه قد تم جمعه فى القرن الثانى عشر قبل المسيح[1]

وبناء على رأى هؤلاء الباحثين والمحققين ، وفى إطار اللغة التى كتبت بها الفيدا وهى اللغة (السانسكريتية) التى لم تكن معروفة عند الهنود الأصليين إذ هى لغة الأريين وحدهم

نستطيع القول بأن « الفيدا » ليست كتابا هنديا خالصا يمكن من خلال كلماته أن نتعرف على العقلية الهندية والأمزجة والأحاسيس والخصائص الهندية عامة. ونرى فى ضوء أفكاره ومعانيه مدى ما كان لأهل تلك البلاد الأصليين من حضارة ومدنية فى عصورهم السابقة على كتابهم هذا بحولى خمسة عشر قرنا .

وإنما هو كتاب هندى آرى حمل الفاتحون عناصره معهم إلى وادى « البنجاب » حيث فرضوا تعاليمه على الوطنيين فرضا كما يقول د / غلاب

(١) أديان الهند الكبرى د / شلبى ، والفلسفة الشرقية د / غلاب

مدلول « الفيدا » ومحتوياتها :

يقول الدكتور غلاب : لكلمة « الفيدا » عدة معان أدقها : (العلم عن طريق الدين بكل ما هو مجهول) ومفاد هذا التعريف أن تكون « الفيدا » المنبع الذي تستقي منه جميع المعارف والملامح الهندية من دينية وأخلاقية ونظريات علمية واجتماعية وخاصة في الفترة الواقعة بين القرن الخامس عشر قبل المسيح الذي بدأ فيه نتاج « الفيـدا » والقرن الثاني عشر قبل المسيح حيث اكتمل وتم جمعه ، وذلك بناء على ما يقوله الباحثون الغربيون والمحققون من الهندوس من أنه نتاج تلك الأجيال وليس من وحي السماء وتنزيل من الإله براهما .

محتويات الفيدا : (الفيـدا) أو (الويدا) عبارة عن أربعة كتب أو أربع مجموعات تختلف كل واحدة منها عن الأخرى باختلاف الموضوع الذي تعالجه .

فالأول « الريج ويدا » أو « ريج فيـدا » وهي أهم المجموعات الأربع وتضم ١٠١٧ أنشودة دينية أو وردا ، وقد وضعت ليتضرع بها الهندوس أمام آلهتهم أو يتغنون بها في صلواتهم ، فمعنى : « الريج » الورد أو الأوراد والريج ويدا : الورد أو الأوراد الدينية .

ولا يزالون يتغنون بأناشيد من « الريج ويدا » يرتلونها في صلواتهم صباحا ومساء ، ويتيمنون بتلاوتها في حفلات زواجهم كما كانوا يفعلون منذ حوالي ثلاثة آلاف عام .

والثانية : « ساما ويدا » أو « سامان فيدا » وتشتمل على الأناشيد التي يذكرها المنشدون أثناء إقامة الصلوات والأدعية ، فمعنى « ساما » الأناشيد .

والثالثة : « باجور ويدا » أو « باجوس فيدا » وتشمل العبارات النثرية والطقوس الدينية التى يتلوها الرهبان ويلتزمون بها عند تقديم القرابين فمعنى (باجور) أو باجوس : الطقوس .

والرابعة « آثارويدا » أو « أتارفا - فيدا » وتضم مقالات فى التعاويذ السحرية والرقى والتوهمات الخرافية التى حسب زعمهم يمتلىء بهما الكون الحافل بالشياطين والأغوال ؛ فمعنى « آثار » التعاويذ والرقى « أثار ويدا » التعاويذ والرقى الدينية تقريبا وذلك فى اللغة السانسكريتية التى كتبت بها « الفيد » .

وقد انقرضت تلك اللغة وظل أمر محتويات هذه الكتب فى البداية مجهولا حتى القرن العاشر الميلادى

عقائد الهندوسية

من أهم العقائد عند الهندوسية عقيدة :

الله ، الكارما ، تناسخ الأرواح ، عقيدة الانطلاق ، وحدة الوجود

الله : هناك نزعتان مختلفتان كل الاختلاف فى التفكير الهندوسى تجاه قضية الإله هما :

(أ) نزعة التعدد　　　　(ب) نزعة الوحدانية

وقد بلغ التعدد عندهم مبلغاً كبيراً فكان لكل قوة طبيعية تنفعهم أو تضرهم إله يعبد ويستنصر فى الشدائد كالشمس ، والماء ، والهواء والنار

يقول الدكتور غلاب : « لا يكاد المرء يتصفح « الفيد » حتى يلتقى فيها بآلهة كثيرين بعضهم يتمثل فى الشمس وما تسكبه على الكون من نعمة الإضاءة والدفء والإنعاش ، والبعض الآخر يتمثل فى قاتل: تنين هائل ، أو وحش مخيف .

وقد يصل عدد هؤلاء الآلهة أحياناً إلى ثلاثين أو ثلاثة وثلاثين إلهاً متساوين حيناً ولهم رئيس أعلى حيناً آخر .

ثم يذكر أن وجه الشبه والمماثلة قوى وواضح بين آلهة « الفيدا » و « الإلياذة و « الأوديسا » عند الإغريق — إذا ما أغضينا عن الموازنة الدقيقة بينهما — مما لا يجعل مجالا للشك فى انتسابهما إلى أسرة واحدة وفكر متقارب فهم جميعا متفقون « فى البساطة والطفولة ، وسرعة الغضب وسهولة العودة إلى الرضى ، وفى الخلو من الحقد وسوء النية . والأنانية والوحشية المتأصلة فى آلهة الأشوريين أو البابليين مثلا ، وهم يتفقون كذلك فى

القرب من ضعف الإنسانية كاستعانتهم ببنى البشر فى الوصول إلى غاياتهم، ثم مكافأتهم إياهم بحمايتهم لهم وعطفهم عليهم »(١) .

والآلهة الذين تحدثنا عنهم «الفيدا» ونقرأ أخبارهم وصفاتهم فى صفحاتها فريقان :

فريق تمثل فى صورة إنسانية فـ «أندرا» مثلا هو كبير الآلهة ، وهو إله السماء والمناخ، و «رودرا» و «أجنى» هما صاحباه ومساعداه على تصريف شؤون الكون و « جاما » إله الموت ، و «أوشاس » إلهة الفجر .

« وفريق آخر من آلهة « الفيدا » لم يأخذ شكلا بشرياً ، وإنما ظل كما كان فى مبدأ نشأته ممتزجا بالقوة الطبيعية التى تمثله مثل « براتيفى » اى الأرض أو الأم، و(ديوس) أى السماء أو الأب ، و(فايو) أى الريح ، و (بارجانيا) أى المطر و(أباس) المياه »(٢) .

الدوافع لتأليه الهندوس للمظاهر الطبيعية .

تنقل الفكر الهندى فى مراحل اتجهت به إلى القول بتعدد الإلهة : فإعجاب بالمظاهر الطبيعية الخلابة التى تمتاز بها تلك البلاد وثناء عليها ، ثم ظنهم أن لهذه المظاهر أرواحاً ونفوساً كما أن لهم أرواحا ونفوساً ، ثم اعتبارهم أن لهذه الأرواح قوى كامنة فى تلك المظاهر ، وأنها قادرة على النفع والضر ، ومن ثم فهى آلهة جديرة بالعبادة والزلفى .

ويتحدث الأستاذ محمد عبد السلام فى كتابه : «فلسفة الهند القديمة» عن

---

(١) الفلسفة الشرقية صـ ٩٤، ٩٥ .
(٢) انظر نفس المرجع صـ ٩٥

المراحل التى انتهت بالهندوسية إلى اعتبار هـــذه المظاهر الطبيعية آلهة، فيقول : « وكانت المظاهر الكونية الجميلة والمناظر العظيمة باعثة على إيقاظ الشعور الدينى فيهم فأعجبوا بهذه المظاهر ، وأثنوا عليها .

ثم ظنوا أن لهذه المظاهر أرواحاً ونفوساً كما أن لهم هم أرواحاً ونفوساً، واعتبروا هذه الأرواح قوى كامنـــة وراء تلك المظاهر ، وهى قادرة أن تمنحهم هذه المظاهر أو تحجبها عنهم فتقربوا إليها بالعبادة والقرابين واعتبروها آلهة ودعوها عند الحاجات .

وبناء على هذا كثرت الآلهة عند الهنود كثرة زائدة لا يتأتى حصرها بحال من الأحوال، حتى لقد بلغ بهم الحال إلى اعتبارهم كل حكيم عظيم أو معلم دينى كبير نجلا وأبناً للربوبية ، وأنه — بنوع ما — إله فى شكل إنسان الأمر الذى يجعل من تلك البلاد البقعة الثانية — بعد مصر الفرعونية — التى يصح أن يطلق عليها اسم أرض الآلهة، والتى لا يفوقها فى تعقد مشاكلها الدينية وكثرة آلهتها وصعوبة تحديد اختصاصاتهم، وسعة الخيال وخصوبته فى تصوير المعبودات ، إلا بلاد الفراعنة.

بشائر التوحيد ومقدماته :

ولكنهم فى وسط هذا التعدد كانوا يميلون أحياناً للتوحيد أو إلى اتجاه قريب منه، فقد كانوا إذا دعوا إلهاً من آلهتهم الكثيرة أقبلوا عليه بكل عواطفهم وجـــل ميولهم حتى يغيب عنهم سائر الآلهة والأرباب . » ويخاطبونه برب الأرباب تعظيما وإجلالا ، لا تحقيقاً وإيقاناً ، فلما مضت القرون أعتقدوا فعلا فى ضوء هذا التعظيم أن فى صف الآلهة رئيساً ومرؤسين ، وأن الرئيس وحده هو رب الأرباب وإله الآلهة ، وهو وصف ثابت له لا ينتقل عنه إلى سواه .

مرحلة التوحيد فى الفكر الهندوسى :

وحوالى القرن التاسع قبل الميلاد وصل الفكر الهندى عبر تطوره إلى حصر تلك الآلهة البالغة الكثرة وجمعها فى إله واحد، معلنا أنه هو الذى أبدع هـــذا العالم من ذاته وهو الحافظ له المدبر لشئونه ، وهو الوارث وإليه المصير .

ومن ذلك ما نشاهده فى الكتاب الرابع من «أتارفا» ومن «ربج فيدا» — كما يذكر الدكتور غلاب — «من أن هناك جوهراً واحـــداً إلهياً» وإليك النصين الواردين فى هذا الشأن :

النص الأول : «أن الميزة العليا التى تمتاز بهـا الآلهة هى الوحدة.

النص الثانى: «أن الكهنة يعبرون عن وحدة هذا الكائن الأعلى بأسماء مختلفة »(٢) .

فتعدد مظاهر الطبيعة ، وتنوع صورها وأشكالها ، لا ينبغى أن يتخذ الآن كما اتخذ من قبل سبيلا إلى القول بتعـــدد الآلهة وكثرتها إذ هو لا يعدو أن يكون سفوراً للإله الأوحد فى تلك الصور المختلفة، وتعبيراً عن ذاته بأسماء متعددة.

فالإله من حيث إنه الموجود بذاته الموجد لغـــيره يسمى : (براهما) أو (براهمان) أى (الله) فى اللغة السنسكريتية .

ومن حيث إنه الحافظ المدبر لهذا الكون يسمى : (فشنو).

---

(١) الفلسفة الشرقية ص ٩١

(٢) الفلسفة الشرقية ص ٩٨

ومن حيث إنه مهلك له الوارث للعالم كله يسمى . (سيفا) .

وهكذاوصل الكهنة الهنود إلى إبراز هذه النتيجة التى تقرب من التوحيد أو تدنو منه ، فالإله الواحد يظهر بثلاثة أشكال بأعماله : الخلق والحفظ ، والإعدام(١) .

ولم يكن ذلك كله إلا رسما تخطيطياً للتوحيد الذى لم يتحقق بأكمل معانيه فى الفكر الهندى إلا بعد ذلك بعدة قرون .

الإله عند البراهمانية(٢) المتطورة عن الهندوسية :

نحب فى البداية أن ننبه إلى أن للبراهمانية التى تطورت إليها الهندوسية فى القرن الثامن قبل الميلاد ثلاثة كتب دينية هى :

« البراهماناس » أقدم الثلاثة ، وهو تفسير مفصل لقسم « باجوس — فيدا »أو الطقوس الدينية وهو معتمد الباحثين فى دراستهم للديانة «البراهمانية» الأولى .

و« الأرانيا كاس » ويضم على الأخص التعليمات والتنظيمات والنصائح التى يجب أن يلتزم ويسترشد بها طبقة الكهنة فى حياتهم الخاصة بهم .

و« الأوپانيشاد » أحدث الثلاثة ، إذ يرجع تاريخه إلى القرن الساس قبل المسيح وهو المرجع فى التعرف على الأفكار الفلسفية التى أنتجتها الديانة البرهمانية(٣) .

---

(١) انظر « أديان الهند الكبرى » للدكتور شلبى .

(٢) راجع هذه المعلومات فى الفلسفة الشرقية ص ١١٤

(٣) البراهمانية : ديانة استخرجتها الكهنة من الفيدا (كتاب الهندوسية =

وقد أحدث « البرهمانية» على « الفيدى » أمرين هامين فى إطار الدين — أو بعبارة أدق — فى إطار الدين والفلسفة .

أما الأول — فهو « وجوب تقديس رجال الدين ووضعهم فى الصف الأول فى الأمة ، بل واعتبارهم العمود الفقرى للحياة الإجتماعية كلها ، وأصحاب الحق الأول فى تأويل (الفيد) وجميع الكتب المقدسة ،واحتكار الحقوق الدينية على اختلافها.

وقد اتخذوا لذلك سبباً يبرره فى نظر الشعب . وهو أن رجال الدين هم وحدهم الذين يملكون التأثير على الآلهة ، ومن ثم كان طبيعياً أن يكون لهم المقام الأسمى،وأن يلقبوا،بالالهة الإنسانيين وأن يكون إكرامهم فى مقدمة أنواع العبادات ، وإهانتهم والإساءة إليهم من كبريات الجرائم .

وقد جهد الكهنة من أجل ترسيخ ذلك المعتقد وتأصيله فى ضمير الشعب بل نادت البرهمية بتأويل من الكهنة إلى طبقية غريبة يرفضها من لديه مسكة من عقل .

حيث زعمت كما يقول : البيرونى أنقسام العنصر الهندى إلى أربع طبقات : —

الأولى : طبقة الكهنة ، وقد خلقت من رأس الإله (براهمان) .

الثانية : طبقه الجند ، وخلقت من منكبيه وذراعيه .

الثالثة : طبقة العمال والزراع ، خلقت من فخذيه .

= المقدس) أثناء التطورات التى تعاقبت على تأويلاتها وشروحها المختلفة فى القرون العشرة التى تلت جمعها (الفلسفة الشرقية ص١٠٢) .

الرابعة : طبقة الأرقاء ، وهى ماخلق من رجليه .

أما الأمر الثانى فيعنون له الدكتور غلاب بـ «نظرية المطلق» ،وبحمله: ما يظهر واضحاً فى كتاب « برهماناس » و «الأوبانيشاد» خاصة من التوجه بالدعاء والعبادة إلى « براهمان » باعتباره الكائن الأعلى أو الجوهر المطلق بدلا من التوجه فى القديم إلى عديد من الآلهة من خلال تجليهم فى المظاهر الطبيعية المختلفة حسبما نجد ذلك فى «الفيدا» كتاب الهندوسية المقدس .

وهذا الكائن الأعلى أو الجوهر المطلق هو :

(ا) الحقيقة الأزلية والأبدية الثابتة التى لا يمكن تشبيهها ولا تعيينها .

(ب) وهو حال فى كل كائن حى أو جماد بحسبانه الحقيقة الجوهرية الأزلية له :

(حـ) وهذا الحلول المتمثل فى كل صغيرة و كبيرة من أجزاء هذا العالم هو الذى يحقق الوجود لما حل فيه .

(د) الجود الحق إنما هو لهذا الجوهر المطلق والكائن الأعلى الحال فى كل جزء من جزئيات هذا الكون .

(هـ) وكل كائن تنمو حقيقته أو بطلانه بقدر اشتماله على ذلك الجوهر الأزلى كثرة أو قلة .

(و) وبهذا الجوهر تكون حركة المتحرك وهو الحياة التى تدب فى كل جسم والفكرة التى تنشأ فى كل رأس .

---

(١) المصدر السابق صـ ١٠٤ ، ١٠٥

ومن ذلك يلمس القارىء مدى عراقة الكفر الهندى القديم فى القول بالحلول . وشغفهم به، وتأكيدهم شموله كل جزء من أجزاء العالم ، مهما دق وصغر أو كبر وعظم .

من شعائر الهندوسية تجاه آلهتهم :

من أهم الشعائر الدينية لدى الهندوس أن يعد التمثال أحسن إعداد ويقام فى المعبد، ويعامله عباده كأنه حى يسمع ويعى، يدهنونه بالزيت ويضمونه بالطيب .

ويحتفى بالإله الجديد الذى يدخل المعبد لأول مرة احتفالا واسعاً فيكسى بأحسن اللباس ويزين بالجواهر واللؤلؤ ، ويوضع أمامه أحسن الأطعمة وأشهى الأشربة، ويقرر الباحثون أن بعض الهنود يرون فى التمثال أنه رمز للإله (براهما) بينما يراه الآخرون نفس الإله .

ويخضع العابد لشعائر دينية دقيقـــة رجاء أن يتقبل الآلهة توسلاته وعباداته ؛ فهو يبدأ بتنظيف نفسه والتقليل من الطعام ، ويتخذ أمام إلهه جلسة خاصة يجللها السكون والخشوع حابساً أنفاسه ما أمكن مشيراً إليه بإصبعه فى انكسار . ثم يكرر صلاته ثلاث مرات فى اليوم مع تقديمه القرابين قدر استطاعته « من لحوم مشوية وخمور معتقة وألبان وخبز وأعشاب صالحة للأكل أو للتخمير إلى غير ذلك » .

وكان للطريق الذى تصل بوساطته الضحايا (والقرابين) إلى الآلهة هو النار المقدسة التى يتولى الكهنة بأنفسهم إيقادها وتقديم القرابين إليها .

٢ ـــ الكارما أو قانون الجزاء ويقول الدكتور غلاب : « إنها نوع من المسئولية يوجب جمع أعمال كل شخص ، ويحتم على صاحبها العودة إلى الحياة بوساطة التناسخ المشتق أياً كان لون هذه الأعمال » .

وليس لأحد أن يتخلص أو يتمرد على « الكارما » أى على قانون الجزاء أو المسئولية ، فإنه — حسبما جاء فى كتاب « يوغاواسستها » ليس فى الكون مكان يفر إليه المرء من جزاء أعماله حسنة كانت أو قبيحة .

فجميع أعمال البشر الإختيارية التى تؤثر فى الآخرين خيراً كانت أو شراً لا بد من المجازاة عليها بالثواب أو العقاب طبقاً لنظام الكون الإلهى القائم على العدل المحض .

والسمة البارزة فى « الكارما » أو فى قانون الجزاء هذا ، هو جعل جزاء حياة فى حياة دنيوية أخرى مما ساق إلى القول بالتناسخ .

٣ — تناسخ الأرواح :

هو رجوع الروح بعد مفارقتها للجسم إلى العالم الأرضى حيث تتعلق بجسم آخر .

ويطلق البعض على هذه العقيدة تعبيراً اصطلاحياً آخر هو : « تجوال الروح » ويطلق عليها كذلك « تكرار المولد » ، وقد يطلق عليها « التناسخ » فقط .

والتناسخ من أهم العقائد التى تسود بلاد الهند بوجه عام ، فالحياة — لديهم — التى يحياها الإنسان الآن هى حياة واحدة فى سلسلة طويلة من الحيوات الممتدة جذورها إلى ماض سحيق ، فلعل المرء كان سابقاً ولعله يكون مستقبلا هابطا فى صورة حيوان ما أو مرتفعا صاعداً فى صورة كائن شبيه بالإله .

سبب التناسخ أمران :

الأول : أن الروح خرجت من الجسم ولا تزال لها أهواء وشهوات مادية لم تتحقق بعد .

والثانى : أنها خرجت من الجسم وعليها ديون كثيرة فى علاقاتها بالآخرين فلا مناص إذاً من :

(أ) أن تستوفى شهواتها فى حيوات أخرى .

(ب) وأن تتذوق ثمار أعمالها التى قامت بها فى حياتها السابقة فإذا اكتملت الميول وتوقفت ولم يبق للإنسان شهوة ما .

ولم تكن هناك ديون فلم يرتكب الإنسان إثما يستوجب العقاب ، ولم يقم بحسنة تستوجب الثواب ، نجت روحه وتخلصت من تكرار المولد ، وامتزجت بالإله براهما فمنه المبدأ وإليه المصير والمعاد(١)

ذلك أن الإنسان مركب من مادة كثيفة أعنى : الجسد ، ومن مادة لطيفة شفيفة ، تسمى الروح أو العقل .

فإذا حدث ما نسميه الموت توقف الجسد المادى أو الجزء المادى من الإنسان وتحلل وبلى .

أما الروح فلا تموت ولا تبلى بل تعمل مدة من الزمن فى آفاق الكون اللطيفة التى تشبه بحالة أحلامنا فيجرب الجنة والنار كما تكلمت عنه الكتب السماوية ثم تعود — مسوقة بالميول ثم بالأعمال الماضية — كرة أخرى إلى هذه الحياة متقمصة جسد جديدا ، وتبدأ بذلك دورة جديدة لهذه الروح نتيجة للدورة الماضية ، فتوجد فى إنسان أو حيوان أو ثعبان ، وتسعد وتشقى نتيجة لما قدمت من عمل فى حياتها السابقة(٢) .

---

(١) فلسفة الهند القديمة لمحمد عبد السلام

(٢) ثقافة الهند — بروفسور أثريا

تسرب التناسخ إلى الفكر الإسلامى

يقول ابن حزم فى كتابه (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) مبينا تسرب القول بالتناسخ إلى بعض الأجواء المنتسبة إلى الإسلام : « افترق القائلون بتناسخ الأرواح على فرقتين : فذهبت الفرقة الأولى إلى أن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجساد أخرى ، وإن لم تكن من نوع الأجساد التى فارقت ، وهذا قول أحمد بن حابط وأحمد بن نانوس تلميذه ، وأبى مسلم الخرسانى ، ومحمد بن زكريا الرازى الطبيب ، صرح بذلك فى كتابه المرسوم بالعلم الإلهى ، وهو قول القرامطة » .

ويعلق ابن حزم على هذا القول بأنه دعاوى وخرافات بلا دليل .

أما الفرقة الثانية من القائلين بالتناسخ فقد منعت من انتقال الأرواح إلى غير أنواع أجسادها .

ومما تسرب إلى بعض فرق الشيعة متصلا بالتناسخ القول بالرجعة فهى عودة الروح لحياة جديدة ، ولكنها فى الرجعة تعود فى الجسم نفسه ، أى أن الشخص نفسه جسما وروحا يعود للحياة بعد الموت .

وقد قال بعض الإمامية بعودة على بن أبى طالب ، وقال أكثرهم بعودة الإمام الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى المهدى المنتظر فيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا[1] .

---

(١) انظر الفصل ١/٩٠ ، ٩١

٤ — الانطلاق :

ومعناه الإنطلاق والتخلص من دورات الحياة المتوالية ، والفكاك من أسر التناسخ وتكرار المولد ، والاندماج فى الكائن الأسمى (براهما) كما تندمج قطرة من ماء بالمحيط العظيم ، وتلك هى الغاية التى ليست وراءها غاية .

والوسيلة إلى ذلك أعنى إلى الاندماج فى الجوهر المطلق والكائن الأعلى هو تسليم المرء نفسه إلى التأمل العميق ، وحصره قواه وملكاته العقلية فى استحضار هذا الكائن الأعلى ، وتمثل جلاله وقدسيته ؛ مما ينتهى بالآخرة إلى الغيبوبة والامتزاج ببراهما والفناء فيه .

وذلك أمر صعب وشاق يتطلب إرادة صلبة وصبرا نادرا واستعدادا فطريا فى جميع نواحى النفس وقواها ومكانها .

ومن أجل ذلك فلا بد للمريد أن يجتاز المراحل التالية :

١ — المعرفة الحقة التى تمحو الزيف عن القلب وتخلص المرء من أوهاق الجهل وتحفظه من الضلال وتحرره من الأخطاء ولهذا يعلن كتاب « الأوبانيشاد » كما يذكر الدكتور غلاب أن الطريقة الوحيدة للامتزاج ببراهمان هى : المعرفة .

٢ — اكتمال الميول والشهوات وتوقفها بسبب تغلب الإنسان على نفسه وقناعته بما حصل عليه حتى لا تبقى له شهوة تشغله ولا لذة يتطلع للوصول إليها .

٣ — الانقطاع عن أعمال الدنيا المستوجبه للعقاب أو الثواب على سواء بحيث تنقطع علاقته بالآخرين .

فإذا تم للمرء ذلك كله نجا من تكرار المولد، وتحقق له الانطلاق، الذى هو الامتزاج والاندماج فى براهما والاتحاد به .

ومن الملاحظ أن هذا الانطلاق لا يكتسب بصالح العمل؛ حيث يجازى عليه المرء عن طريق الميلاد المتكرر كما فى أعمال الشر تماما .

ومن أجل هذا ينتقد الدكتور أحمد شلبي هذا المبدأ فيقول :

ويؤخذ على هذا المبدأ أنه جعل طريق التصوف والزهد والسلبية أفضل من الأعمال الصالحة ، فالتصوف والسلبية طريق الاتحاد بالله ، أما صالح الأعمال فتنتج دورة جديدة فى الحياة ، تثاب فيها الروح على ماقدمت من خير فى الدورة السابقة (١) .

غير أن المطلع « على الأوبانيشاد » يلمس السبب واضحا فى هذا التفضيل ، فإن جميع الأعمال سواء منها ما كان خيرا فى ذاته أو شرا فى ذاته يشغل المرء — عند أصحاب هذا المذهب — ويلهيه عن التفكير فى الإله « وهما » (٢)

ومن أجل ذلك كانت الأعمال البشرية من غير استثناء شرا حيث كانت حائلا وحجابا بين الإنسان وتأمله العميق فى هذا الكائن الأعلى وبالتالى حائلا دون انطلاقه واندماجه فيه وامتزاجه به .

٥ — وحدة الوجود :

القول بوحدة الوجود فى الديانة الهندوسية وثيق الصلة بتلك العقائد التى تكلمنا عنها فى التفكير الهندوسى .

---

(١) أديان الهند الكبرى ص٣٣

(٢) انظر الفلسفة الشرقية ص ١٠٩ ، ١١٠

فقد سبق القول بانبثاق الكون كله من (براهما) أى الإله، وأنه مصدر الكائنات والمبدع لهذا العالم من ذاته .

وفى الحديث عن عقيدة (الانطلاق) أوضحنا كيف يمكن أن يعود الإنسان إلى (براهما) ويتحد به .

ومما قاله أستاذ هندى متخصص فى تلك الديانة «خلقت الحياة هذه من الروح (أتما) فالإنسان ليس جسمه وحواسه ، لأن هذه ليست إلا مركبة ، وهى تتغير وتموت وتبلى ، بل الإنسان هو الروح ، وهى سرمدية أزلية أبدية مستمرة غير مخلوقة ، وكما أن شرارة النار نار ، فإن الإنسان من نوع الإله ، وروحه لا تختلف عن الروح الأكبر إلا كما تختلف البذرة عن الشجرة ، وعندما تتجرد الروح من الظواهر المادية تبدأ رحلتها للعودة إلى الروح الأكبر . ولذلك يسمى تخلصها من الجسم طريق العودة »(١) .

المراحل المؤدية إلى القول بوحدة الوجود فى الفكر الهندوسى :

هناك مراحل أربع أدت بهؤلاء الناس إلى القول بوحدة الوجود .

الأولى : أن فى العالم قوة عظيمة يلزم التقرب إليها بالعبادة والقرابين .

المرحلة الثانية : ثم لم تعد القرابين ضرورية ، وحل محلها تأملات لتلك الظواهر الكونية من الشمس والنار والهواء .

المرحلة الثالثة : هى مراقبة الإنسان نفسه وتصورها قربانا يضحى به من أجل الوصول إلى (براهما) وذلك بإماتة الشهوات ، وتجميد الرغبات والميول والأهواء :

---

(١) الحياة فى رأى الآريين لمحمد على حافظ نقلناه من أديان الهند الكبرى

المرحلة الرابعة : وفيهـا تجردت المراقبة وارتفع التأمل عن تصور القرابين — مادية أو تأملية ، فى الظواهر أو النفس — إلى مراقبة النفس بحسبانها القوة الكامنة العالميـــة المؤثرة ، من واقع الإيمان بأن النفس الشخصية هى عين القوة الحيوية العالمية أو (البراهما) الحال فى كل جزء من أجزاء العالم ، فصار المفـكر أو المتأمل والموضوع الخارجى شيئا واحـــداً .

البوذية

البوذية : إحدى النحل التي نجمت في بلاد الهند حوالى القرن السادس قبل الميلاد ، ثم كان انتشارها في بلاد الصين واليابان والتبت ونيبال وأندونيسيا .

أظهر ملامح البوذية وروحها هو :

القول بالتناسخ ،والتخلص من تكرار المولد ، والوصول إلى (النرفانا) بمعنى : القضاء على الأنانية والتحرر من الهوى ، وسلطان النفس ، أو الاندماج في الله والفناء فيه .

مؤسس هذه النحلة : تنتمي هذه النحلة إلى أمير من أمراء الهند كان يسمى أول أمره (سدهاتا) ، ثم أطلق عليه لقب غوتاما ، ثم لقب (بوذا) .

تاريخ (سدهاتا) والمراحل التي مر بها : ينتسب (سدهاتا) إلى قبيلة تدعى (ساكيا) تسكن بين مدينة بنارس وجبال الهملايا ، في الناحية الشرقية من بلاد الهند على حدود (نيبال) .

وشب الأمير سدهاتا كما يشب أترابه من أبناء الملوك والأمراء ووجد الدنيا كلها تحت يده ورهن إشارته ، وتهيأت له مفاتن الحياة ومتعها ، وبلغ مطلع الشباب وهو يرفل في هذه النعمة وسارع أبوه فزوجه من ابنة أحد الأمراء ولم يطل الوقت حتى ولد له ابن اسماه راهولا .

غير أن سدهاتا لم يستسلم للملاذ والشهوات بل طفق يفكر فيما حوله ويحس بأحاسيس مواطنيه الذين يعيش بينهم وقد جذبه واستولى على مشاعره ما نعج به الحياة من ألم وشر أكثر مايمر بها من نعيم وسرور .

السبب فى ذلك التحول هو :

ما قد يروى من أن سدهاتا التقى مرة بشيخ عجوز واهن يتوكأ على عصاه ويوشك أن ينكفىء على صدره وقد احدودب ظهره وتقوس وثقل عليه رأسه فلا يطيق حمله ، فاضطرب له سدهاتا وتألم فقال له رفيقه (شانا) هكذا نهج الحياة ، ولا مفر لنا من هذا المصير .

ويروى أن (سدهاتا) شاهد جثة أمعن فيها البلى، وانبعثت منها رائحة مؤذية ونتن كريه ، فاستغرق فى التفكير ، فقال له (شانا) : هكذا نهج الحياة .

كما يروى أيضا أنه كانت قد ذاعت فى بلاد الهند قبل البوذية بزمن طويل أسطورة دينية مؤداها أن إنقاذ الإنسانية من آلامها سيكون على يدى شاب نبيل حسن الخلق والخلق، يولد بين أحضان النعمة ويشب بين أعطاف الترف والسعادة ، ثم يتخلى عن المادة ويزهد فى الشهوات فيصل إلى المعرفة الكاملة التى بها ينقذ الإنسانية من بين براثن الشر والألم ، فلما شب بوذا، وكان قد نشأ على النحو الملائم لبطل الأسطورة المتقدمة وكان على علم بهذه الأسطورة آمن بأنه بطلها المنشود ، وكان من حوله يعرفونها أيضا فآمنوا كذلك بأنه هو المنقذ المنتظر (١) .

ومهما يكن من أمر هذه الأخبار فقد استقر رأى سدهاتا على أن يدع صخب الحياة ، وأن يبدأ حياة الزهد والفكر لعله يصل إلى سر هذا الكون، وفى إحدى الليالى حيث كان القصر الذى يعيش فيه يموج بالبشر والمسرات بسبب ولادة ابن له قال (سدهاتا) : وهذه رابطة أخرى

---

(١) الفلسفة الشرقية ص ١٢٨

تصلنا بتلك الحياة العامة المليئة بالألم والمتاعب ، إن علينا أن نفصمها ونتخلص منها ، وحزم سذهاتا أمره على أن يفارق هذه الملاذ وأن يبدأ تأملاته ، وفى هجعة القصر وبعد ما شاهـــد من مرح وغناء ألقى سذهاتا نظرة أخيرة على زوجته وطفله ، ثم تسلل من القصر وامتطى جواده وانطلق إلى مرحلة جديدة ، وكانت سنه أنذاك تسعة وعشرين عاما .

والتقى سذهاتا فى طريقه براهبين من البراهمـة فبقى معهما ، وتتلمذ عليهما،وأراد عن طريقهما أن يصل إلى غايته ولكن بعد فترة تأكد له أن ما يعيشان فيه من زهادة وتقشف شيء مقصود لذاته عندهما كأنه الغاية التى يتطلعان إليها و (سذهاتا) يريد الزهادة وسيلة لمعرفة أسرار الكون ، ولذلك هجرهما وقرر أن يسعى بنفسه لنيل المعرفة وكشف أسرار الكون، وقد سلك من أجل ذلك وسائل متعددة كالتصوف والفلسفة والاستغراق فى التأمل ، ثم انجذب نحو دنيا الرهبنـة مرة أخرى لا على أنها غاية بل وسيلة للوصول إلى معرفة سر هذه الحياة .

من أجل هذا سمى فى هـــذه المرحلة من حياته بـ (غوتاما) أى الراهب ، أو غوتاما أسير الفلسفة الهندية .

وأمضى غوتاما سبع سنين فى هذا الصراع العنيف ، وأدرك فى نهايتها أن ما يفعله ما هو إلا إجهاد لجسمه لا يجدى فيما هو بصدده من معرفة الكون شيئا .

وهنا أقدم غوتاما بشجاعة على ما لم يكن معهودا فى نساك عصره الذين يرون محاربة الجسم حتى الفناء، كأن ذلك غاية لهم وليست وسيلة .

أما غوتاما فكان ممن يتخذون الزهد وسيلة،فلما رأى عدم جدواه أعلن تمرده على هذه الطريقة ، وعاد إلى طعامه وشرابه وكسائه ، وأعلن توقفه

عن قتل شهوات نفسه بالجوع والحرمان من متع الحياة مؤكدا أن خير ما يوصله إلى غايته عقل سليم فى جسم سليم .

تقول الروايات : وبينما كان يمشى وحيدا مال إلى شجرة يتفيأ ظلالها ريثما يتناول بعض طعامه وطاب له المقام ، وفى هذا المكان حدث ما تمناه غوتاما حيث يقول : « سمعت صوتا من داخلى يقول بكل جلاء وقوة : نعم فى السكون حق أيها الناسك ، هناك حق لا ريب فيه ، جاهد نفسك اليوم حتى تناله » .

وصمم غوتاما — كما يقال — على أن يبقى فى مكانه ينكشف له وجه الحقيقة وضاعف من تأملاته واستغراقه حتى ينقل عنه فى ذلك قوله : ليتشف الجلد ، ولتتقطع العروق ولتنفصل العظام ، وليقف الدم عن الجريان ، فلن أقوم من مكانى حتى أعرف الحق الذى أنشده .

وأقام على تصميمه هذا حتى تم له فى هذه الجلسة الإشراقة التى كان يترقبها ، واستنارت بصيرته فى ظلال تلك الشجرة التى عرفت بعد فى البوذية باسم : شجرة الاستنارة ، أو شجرة المعرفة .

وأصاخ بوذا إلى هذا الصوت ، وأصغى إليه فإذا هو يقول له : إن الهوى هو أصل الحزن ، والنفس (أى الأنا) بما تهوى هى التى تجلب الشقاء . فالمرء يقول دائما : أنا ، أنا ، ويقول : زوجتى وأولادى ، أما من سواهم فليسوا (أنا) فيهوى ما فيه شهوة نفسه ، فإذا خاب شقى وحزن ، وانطلق كالحريق المدمر : بغضا وحقدا وعداوة ، والحرية من الأنا هى أصل السعادة[1] .

---

(١) انظر أديان الهند الكبير للدكتور أحمد شلبى ، وحكمة الصين لفؤاد شبل .

وعند ذاك تيقظ شعور بوذا — كما يقول : (محمد عبـــد السلام الرامبورى) وتنورت بصيرته ، واستوى على عرش البوذية (أى المعرفة) وصار (بوذا) أى العارف المستيقظ والعالم المتنور .

وغلب اطلاق هـذا الوصف (بوذا) على (سذهاتا) ، وأصبح علما عليه منذ سمع هذا الصوت وانـكشف عنه الغطاء .

يقول بوذا مصورا هذه اللحظة : لما أدركت هذا (يعنى : أن الحرية من الأنا هى أصل السعادة) تحررت من الهوى ، تحررت من شرور الـكون الأرضى ، تحررت من شرور الخطأ ، تحررت من شرور الجهل ، وتيقظ فى شعور التحرر ، وشعور عدم تـكرار المولد ، قد انتهى الصراط المقدس : قد تمت الفريضـة فلن أرجع إلى هـذه الدنيا رجعة أخرى قد أبصرت هذا(١) .

تقدير هذه الإشراقة البوذية :

يصور (بوذا) نفسه هذه الإشراقة إن صح مانقل عنه بأنها صوت حادثه من داخله وإحساس نابع من أعماقه دون ما محاولة لإسنادها إلى أمر خارج عن ذاته ، وهو التصوير الوحيد فى إطار ما ذكره البعض من إنـكار بوذا للإله .

أما جمال الدين القاسمى فيراها وحيا من الله حيث يقـول فى كتابه (محاسن التأويل) :واستظر بعض المعاصرين أن قوله تعالى «والتين» يعنى : شجرة بوذا مؤسس الديانة البوذية التى تحرفت كثيرا عن أصلها الحقيقى ؛ لأن تعاليم بوذا لم تـكتب فى زمنه وإنما رويت كالأحاديث بالروايات الشفهية ثم كتبت بعـد ذلك حينما ارتقى أتباعها ، قال : والراجح عندى

(١) فلسفة الهند الـكبرى للأستاذ محمد عبد السلام

بل الحق — إذا صح تفسيرنا لهذه الآية — أن بوذا كان نبيا صادقا ويسمى سكياموتا أوجو تاما ، وكان فى أول مره يأوى إلى شجرة تين عظيمة ، وفى ظلها نزول عليه الوحى وأرسله الله إلى الناس رسولا منه . . ولهذه الشجرة شهرة كبيرة عند البوذيين وتسمى عندهم « التينة المقدسة » .

كما يصر بعض الباحثين الغربيين على اعتبارها وحيا يوحى ، وأمرا موصولا بالسماء بدافع مرده فى أكبر الظن إلى تعصبهم لكل منسوب إلى الآرية باعتبارها عنصر الآريين الأقدمين والمعاصرين(١) .

ومهما يكن من دافع لهذا التفسير الغربى المتناقض مع الفكر البوذى المنكر الإله فى بعض الآراء ، فقد هب بوذا لساعته كما يقول الدكتور غلاب « يصدع بديانته الجديدة جهرا وفى غير مبالاة ، وسرعان ما تجمع حوله عدد من الشباب والشيوخ يتشربون تعاليمه تشرب الأرض اليابسة للمياه ، ثم جعل تلاميذه يزيدون شيئا فشيئا ، وأخذت هذه الديانة تعم ويتسع نطاقها حتى بلغ عدد معتنقيها نحو أربعمائة وسبعين مليونا من الأنفس فى الشرق الأقصى .

وكان بدء (بوذا) فى الصدع برسالته على رأس العام السادس والثلاثين من عمره ، وظل جهاده فى نشرها زهاء أربع وأربعين سنة لم ينضب أثناءها لنقاشه نبع ، ولم يخفت لتبشيره بدينه صوت ، ولم يثبت عنه أثناء هذا الزمن الطويل الذى قضاه فى نشر رسالته أنه غضب مرة واحدة مع مناقشه بل كانت الرحمة والعطف يفيضان من أساليبه فى مختلف الظروف ومتباين الأحوال .

---

(١) ذكرنا من قريب اختلاف المؤرخين فى الوطن الأصلى للعنصر الآرى وهل هو بلاد الهند ثم ارتحلت جماعات منه إلى أوربا ، أو هو أوربا ثم ارتحل بعض منه إلى بلاد الهند وغيرها فى آسيا مما يؤذن بعلاقات عنصرية بين هؤلاء الباحثين والبوذا

وأخيرا توفى هذا الحكيم حوالى سنة ٤٨٠ قبل ميلاد المسيح عن ثمانين عاما قضاها بين الزهد والتقشف والدعوة لديانته .

وكان موته بين جمع من تلاميذه الأصفياء مثال البساطة البعيدة عن جميع مظاهر الجلال التى تحوط عادة أواخر ساعات عظماء الرجال(١) .

جانب من أخلاق بوذا

يصور علماء الهند من البوذيين صورة رائعة لبوذا، فيقررون أنه كان شديد الضبط لنوازعه وميوله ، قوى الروح ، ماضى العزيمة ، واسع الصدر ، عزوفا عن الشهرة ، بالغ التأثير ، بريئا من الحقد ، جامداً لا ينبعث فيه حب ولا كراهية ، ولا تحركه العواطف ولا تهيجه النوازل ، بليغ العبارة ، فصيح اللسان ، مؤثرا بالعاطفة والمنطق .

وتلك صفات من الضرورى توفرها فى كل من يتصدى لاقناع الغير بمذهبه وإحداث انقلاب فى مسار الجماعة التى يعيش بينها ، فهو ماضى العزيمة بالغ التأثير . . الخ

كما يتطلبها ما كان ينادى به بوذا من التحرر من الأنا والهوى والاستعلاء على شهوات النفس وتطلعاتها المادية فهو من أجل ذلك قوى الروح عزوف عن الشهوة جامد لا تحركه العواطف . . الخ .

من آراء بوذا وتعاليمه الفلسفية :

يمكن إجمال تلك الآراء والتعاليم فيما يأتى :

(أ) فى ضبط النفس وكبح جماحها — يقضى قانون الطبيعة بعدم

(١) الفلسفة الشرقيه ص١٢٤ طبع القاهرة فى ١٩٣٨

دوام شيء ما ، فلا استمرار لنعيم ولا لألم ولكن من الواجب علينا أن لا نقف مكتوفي الأيدي تجاه الشرور والآلام بل نسهم في الإسراع بضبط كل إرادة مهينة ، وتجميد كل الميول المنحرفة ، والتغلب على كل ضعف معيب .

(ب) في كيفية التغلب على الشهوة وفطم النفس :

يرى بوذا أن الحياة مليئة بالمتاعب والمشاق ، فهي نار متأججة نار الشهوة ، والبغض والهوى والعداء .

والخدم الذين يشعلون تلك النيران هم العواطف والحواس :

العين ترى الصور الجميلة، والأذن تسمع الأصوات الحسنة ، والأنف يشم الروائح الطيبة ، واللسان يتذوق الأطعمة الحلوة ، واليد تشعر بنعومة الريش والحرير .

والقلب يتعلق بكل ذلك ، فهؤلاء من الحواس هم العبيد الذين يسعون لتنفيذ أوامر وتطلعات سيدهم من العقل أو القلب فيجمعون الحطب حتى تزداد النيران اشتعالا .

يعني : يزداد تعلق القلب والعقل بملذات الحياة وشهواتها .

وطريق إخماد هذه النار هو سجن هؤلاء العبيد بفطم النفس عن الهوى وكبح تطلعات هذه الحواس وتطهير الذهن والقلب من التعلق بالأنا والحنان لكل الخلق حتى لا يقول المرء : إنني أنا ، وذلك الإنسان غيري ولذلك ففي نفعه خسارتي :

وإنما يقول : قد كسرت أنا هذه الأغلال بنفسي بقلع الشهوة من قلبي فيجب علي الآن أن أسعى للكل وأجعلهم أحراراً .

(جـ) — في التناسخ :

يرى بوذا أن الإنسان مركب من :

١ — جسد مادي .

٢ — قوى كامنة في ذلك الجسد المادي .

فإذا تحلل الجسد المادي ، وانفصلت أواصره بالموت تقمصت تلك القوى جسداً جديداً ، ولا تزال هذه القوى تخلع جسداً لتتقمص آخر ، ويسعد الشخص — أي القوى — أثنـــاء ذلك أو يشقى حسبما تهيأ له من السلوك السابق ، ولا يزال الأمر كذلك حتى تفنى تلك القوى التى تدفع إلى الميلاد الجديد ، وليست تلك القوى إلا الرغبة في الوجود المنفرد أي : الإحساس بالأنا(١) .

---

(١) ينبني على إنكار بوذا للروح من واقع مايزعمه هنا من أن الإنسان مركب من جسد مادي ، وقوة كامنة فيه ، تفنى كما يفنى الجسد ، انهيار عقيدة البوذية ، فيما تقول به من التناسخ الذى يستحيل حـــدوثه دون توفر روح ذاتية مستقلة عن البدن — يمكنها أن تفارق جسداً وتتقمص آخر — .

اللهم إلا أن يكون مايقول به بوذا من القوى الكامنة في المادة هو مايعبر عنه بالروح .

وقوله : « ولا يزال الأمر كذلك حتى تفنى تلك القوة » عبارة عن القول بفناء الروح .

(د) النرفانا :

مرت كلمة (النرفانا) فى مدلولها بمراحل تاريخية مختلفة :

١ — فهى الاندماج فى الإله والفناء فيه ، ذلك مدلولها عند بوذا أول أمره عندما كان يقول بوجود إله لهذا الكون .

ثم تغيرت أفكار بوذا بصدد الإله، حيث تخلى بعد ذلك عن القول بأن هناك إلهاً لهذا العالم ، بل أنكر وجوده ، أو سخر من القائلين به - إن صح مانقل عنه فى ذلك - الأمر الذى لايمكن معه أن تفسر (النرفانا) عند بوذا بأنها الاندماج فى الله .

وقد حاول الباحثون أن يتعرفوا من جديد على مدلول للنرفانا مناسب لهذا الطور .

٢ — فهى عند البعض القضاء على الأنانية ، والتحرر من الهوى ، وسلطان النفس مما يصل بالمرء إلى أعلى درجات الصفاء الروحى .

٣ — وعند آخرين عبارة عن إنقاذ الإنسان نفسه من ربقة (الكارما)، أى الجزاء المتمثل فى تكرار المولد، وذلك بالقضاء على الرغبات والتوقف عن أى عمل كان خيراً كان أو شراً .

يقول الدكتور أحمد شلبى : وبناء على المعنى الأول - يعنى تطهير النفس حتى الوصول إلى أعلى درجات الصفاء الروحى - يصل المرء إلى النرفانا وهو حى .

وبناء على المعنى الثانى — أى التخلص من تكرار المولد — ترتبط النرفانا بالموت والتخلص من هذه الحياة على أن لايعود إليها[1]

---

(١) أديان الهند الكبرى ص ١٦١

الغاية عند بوذا والطريق إليها :

أهم مايبتغياه بوذا من دعوته هو الوصول إلى النرفانا أو التخلص من تكرار المولد ، ومن أجل أن يصل المرء إلى ذلك عليه أن يعلم ويؤمن بتلك الحقائق الأربع :

الحقيقة الأولى : أن الألم من الولادة والمرض والهـــرم والموت والحرمان موجود دون ماريب فى تلك الحياة نستشعره ونحس به يلم بنا من كل الجوانب .

الحقيقة الثانية : أن علة هذا الألم بصوره كلها إنما تكمن فى الشهوة والظمأ إلى الأشياء والرغبة فى التملك ، وبالجملة الإحساس بالأنا .

الحقيقة الثالثة : إن إماتة الشهوات واطفاء الظمأ إلى الأشياء والرغبة والاعراض عن الحياة مما يتمثل فى عبارة موجزة (القضاء على علة الألم) أمر ممكن ومقدور عليه، وبمجرد إماتة الشهوات يبطل الألم ويتوقف الحزن .

الحقيقة الرابعة : أن الوسيلة التى نصل منها إلى تحصيل هذا الأمر الممكن من إماتة الشهوات والقضاء على (الأنا) والتخلص من الهوى والرغبات وبالتالى التخلص والإفلات من تكرار المولد ميسورة لمن يبتغيها ويعتزم تحقيقها .

يقول الأستاذ العقاد : وخلاصة الفلسفة التى أتى بها البوذا جوتاماهى تقرير هذه المبادىء الاربعة وهى : أولا — أن هناك عذابا وشقاء . وثانيا أن هناك سبباً للعذاب والشقاء ، ثالثاً : أن هذا السبب قابل للزوال ،رابعا أن وسيلة الانتهاء إلى هذه الغاية موجودة لمن يختار(١)

(١) كتاب (الله) صـ ٨٠

وقد أجمل بوذا تلك الوسيلة فى اتباع وسلوك ماأسماه بالطريق المثمن أو ذى الثمانى شعب وهى : الاعتقاد الصحيح ، العزم الصحيح ، القول الصحيح ، العمل الصحيح ، العيش الصحيح ، الجهد الصحيح ، الفكر الصحيح، التأمل الصحيح .

فمن آمن بتلك الحقائق واتبعها كتبت له النجاة والسعادة ، ومن لم يعلمها ولم يؤمن بها ظل فى شقائه وآلامه يموت ويحيا ، ثم يهرم ويهلك، ثم يولد من جديد ، ولا تنقطع هذه السلسلة حتى يعرف هذه الحقائق ويؤمن بها ويتبعها .

وقد كشفت هذه الأسرار لبوذا فعرف هذه الحقائق ، كما يدعى ، وآمن بها واتبعها ، ولذلك يقول : لقد أحرزت علم الحقائق الأربع المقدسة، وأحرزت فهمها بانجلاء تام ، فصرت على يقين بأنى قد ظفرت بالبوذية الكبرى ، وقد عرفت أنه قد ضمنت لى النجاة بروحى ، ومولدى هذا آخر مولد ، وليس لى بعد هذا من مولد مستأنف .

رأى بوذا فى الإله :

مما يقوله العلامة رادها كرشنن عن بوذا :

« لم يعن بوذا بالحديث عن الإله ولم يشغل نفسه بالكلام عنه إثباتاً أو إنكاراً ، وتحاشى كل مايتصل بالبحوث اللاهوتية وماوراء الطبيعة ، أو عن القضايا الدقيقة فى الكون، إذ كان يرى أن خلاص الإنسان متوقف عليه هو لا على غيره .

وكان ينهى أصحابه وزواره عن الخوض فى هذه الأبحاث ، ويوبخهم على سؤالهم عن تلك القضايا الدقيقة ، ويأمرهم بالخوض فى أعمالهم ودواعيها وعواطفهم وعواملها .

وقد سأله أحد مريديه مرة : هل الذات موجودة ؟ فسكت ، فسأله : هل الذات ليست موجودة ؟ فظل ساكتاً ، فسأله : هل هذا الكون دائم أو غير دائم ؟ فسكت أيضاً وأخيراً قال بوذا لهذا المريد : هل قلت لك جئني أعلمك عن الذات وعن الكون ؟ لا ، لم أقل هذا ، أيها المريدون لا تفكروا كما يفكر الناس ، بل فكروا هكذا : هذا ألم ، هذا مصدر الألم ، هذا إعدام الألم بإعدام مصدره ، هذا سبيل إعدام الألم .

وربما أشعر بعض مانقل عن بوذا بميله أحياناً إلى جانب الإنكار أكثر من جنوحه إلى طرف الإثبات ، ومن ذلك قوله فى إحدى خطبه — كما يذكر كرشنن — إن المشايخ الذين يتكلمون عن الإله وهم لم يروه وجهاً لوجه كالعاشق الذى يذوب كمداً وهو لايعرف من هى حبيبته،أو كالذى يبنى السلم وهو لايدرى أين يوجد القصر ، أو كالذى يريد أن يعبر نهراً فيغادى الشاطىء الآخر ليقدم له ، (هداة الإنسانية فى الشرق ص٦) .

وقد ترتب عن إهمال بوذا للحديث عن الإله ، أو اتجاهه أحياناً إلى الإنكار،إن صح ماقاله كرشنن أمور ثلاثة،منها أمران على طرفى نقيض :

الأول : اتجاه براهمة عصره إلى وصمه بوصمة الإلحاد والكفر .

الثانى : اتجاه بعض أتباعه إلى الاعتقاد بأن بوذا ليس إنساناً محضاً بل إن روح الإله قد حلت فيه فهو شخصية ثنائية : لاهوتية وناسوتية ، أى أن الإله حل فى بوذا الإنسان .

بل ذهب بعضهم إلى أن بوذا كائن لاهوتى هبط إلى هذا العالم مخلصاً له ومنقذاً إياه من الشرور والآثام .

ذلك أن الإيمان بالله والاعتراف بالخالق المدبر اتجاه عميق الجذور فى النفس ، وفطرة فطر الله الناس عليها ، وانطماس هذه الفطرة أو تجاهلها

وترك دائرة الإيمان بالله خالية فى النفس يحدث ضلالا فى التصور وانحرافاً فى السلوك .

أما الأمر الثالث الذى نتج عن مسلك بوذا فهو سرعة انتشار البوذية فى الهند ؛ حيث لا تتجاوز أهدافها الجوانب الأخلاقية ، ولعدم تعارضها مع آلهة الهندوس .

فكان كثير من الهنود يتبعون البوذية فى أخلاقها ولا يرون فى ذلك ما يصدهم من الاعتراف بالآلهة الهندوكية حيث أهمل بوذا فى تعاليمه الحديث عن الآلهة وترك ذاك الميدان فارغا .

البوذية فى ميدان الدين والفلسفة :

يفترق الباحثون فى تقديرهم لدعوة بوذا وتعاليمه :

١ — فالبعض يؤكد أنه لم يكن صاحب دين ولا صاحب فلسفة ؛ بناء على تفسير الدين بأنه : .

(أ) الإيمان بقوة علوية موجدة لهذا العالم مدبرة له مهيمنة عليه .

(ب) والالتزام بطائفة من العبادات وأنواع الطاعات التى يمكن أن يتقرب بها المرء إلى تلك القوة المهيمنة عليه وعلى الكون كله .

وبوذا لم يتكلم عن الإله بل ربما نقل عنــــه مايفهم منه السخرية ممن تكلموا عنه ، وبالتالى فليس فى تعاليم البوذية ما يمكن أن يوصف بالعبادة والطاعة،ولم يأمر أو يوجه بوذا أتباعه بممارسة أى لون من ألوان العبادة ، الأمر الذى لابد من توافره فى كل دين .

وليس بوذا أيضا بصاحب فلسفة ، لأنه لم يؤسس دعوته على مذاهب

فلسفيه قائمة على قضايا منطقية وإنما أسسها على تجربته الروحية التى لا يمكن بيانها بالألفاظ، كما يقول العلامة الهندى كرشنن .

٢ — أما المتأخرون من أتباع بوذا فيرون أنه صاحب دين حيث يرفعونه إلى درجة الآلهة، وقبلوا كلماته على أنها حقائق لا يتطرق إليها شك، بل يرون أنه لم يتكلم عن الإله لأنه هو الإله فى نظرهم.

وكذلك يرى بعض المفكرين الغربيين أن البوذية دين من السماء معللين ذلك :

(أ) بما ترسمه البوذية من طريق للخلاص من الذنوب .

(ب) ولأن معتنقيها كانوا يمتازون بحماسة قوية لا تتوافر إلا مع الأديان .

(ج) ولأنها تشتمل على جانب روحى كبير(١) .

٣ — ويرجح المولى أبو المكارم آزاد الذى كان وزيراً للمعارف بالهند جانب الفلسفة فى بوذا على جانب الدين فيقول : « يبدو لى أن وضع بوذا فى صفوف الفلاسفة أسهل من وضعه فى صف الأنبيـــاء ، وذلك لأنه لم يتعرض فى مباحثه لوجود الله ، بل حاول حل مسألة الحياة وانتهى منها دون التحرش بالله وبوجوده ، إنه قد قطع كل علاقة له مع الحياة الدينية فى الهند التى كانت تدين بآلهة لا تعد ولا تحصى ، إنه بدأ بحثه وفرغ منه دون أن يلجأ إلى الاعتقاد بالله ، وإن الأساس الذى بنى عليه بحثه أساس فلسفى ، فقال إن هدف الجهد الإنسانى يجب أن يكون الوصول إلى حل مسألة الحياة ، وذلك من المستطاع دون الاستعانة بوجود فوق العقل »(٢).

---

(١) أوضحنا سلفاً مرد تعصب الغربيين لبوذا ودعوته . ص ١٩٩

(٢) أديان الهند الكبرى .

جانب من تعاليم البوذية وأخلاقها :

من ذلك :

(أ) يتنازل الراغب فى الالتحاق بالبوذية عن ماله وعقاره ، ويحمل مخلاته للسؤال ، وينضم إلى جماعة البوذية ويتخلق بأخلاقهم .

(ب) المبالغة فى ضبط النفس وقهر الشهوات ، ولعل ذلك مما تسرب بعد ذلك إلى المسيحية .

(جـ) احترام الحياة إنسانية كانت أو حيوانية من أهم الأخلاق التى يستمسك بها البوذى ، فلا يجوز قتل حيوان فى لهو كالصيد ، أو فى جد كذبحه للأكل .

(د) والمحبة الشاملة أهم وأفضل من الأعمال الحسنة ، وفى ذلك يقول بوذا : الحسنات على اختلاف أنواعها لاتبلغ سدس فضل المحبة التى تحرر القلب من شوائب الشر لأن مثل هذه المحبة يتضمن سائر الحسنات .

(هـ) ومن أهم المبادىء لدى البوذية إلغاء نظام الطبقات ، ومن أقوال بوذا فى ذلك : اعلموا أنه كما تفقد الأنهار الكبيرة أسماءها عندما تصب فى البحر كذلك تبطل الطبقات عندما يدخل الشخص فى النظام ويقبل الشريعة [١] .

وذلك مما تتميز به البوذية عن البرهمانية التى تدين بالطبقية وترفض مبدأ المساواة بين بنى الإنسان حسبما نقلناه آنفاً عند الحديث عن البرهمانية وما أحدثته من إضافات على الدين الفيدى .

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٥

تطور البوذية ثم ضعفها وامتصاص الهندوسية لها :

تطور البوذية :

من المناسب فى ختام الحديث عن البوذية أن نجلى تطورها ، وننبه إلى تلك القضايا التى تناولتها فى صورتها القديمة ثم فى صورتها الجديدة بعد موت مؤسسها ، واتجاه أتباعه إلى فلسفة آراء بوذا وتأويلها حسب عقولهم وثقافاتهم .

قد تبين لنا فيما سبق أن بوذا لم يعن بالحديث عن الكون والإلهيات ، وأنه طالما حذر أتباعه ومريديه أن يشغلوا أنفسهم بتلك المباحث المستغلقة فهو يقول : أيها المريدون لا تفكروا كما يفكر الناس بل فكروا هكذا : هذا ألم ، هذا مصدر الألم ، هذا إعدام الألم ، هذا سبيل إعدام الألم .

الأمر الذى كانت معه البوذية نظاماً أخلاقيا ، وأسلوبا مفرطاً فى تربية النفس وإماتة شهواتها .

ثم تطورت البوذية بعد موت مؤسسها فتناولت تلك القضايا التى كان بوذا قد نهى تلاميذه وأتباعه أن يتحدثوا عنها ويشغلوا أنفسهم بها — أعنى قضايا الإله وماوراء الطبيعة — حتى أصبحت البوذية مذهبا فكريا واتجاهاً فلسفياً .

وابتعدت تلك البوذية الجديدة المتطورة عن البوذية القديمة ، حيث كانت القديمة تزكية وتربية فأصبحت الجديدة فكراً وفلسفة .

« فالبوذية القديمة صبغتها : أخلاقيـة — كما يقول محمد عبد السلام الرامبورى — وميزتها : سذاجة المنطق وإثارة العاطفة . وطابعها : الحض

على الخضوع لقوانين النظام والاهتمام بهدى شارعها ، وكأنها هى التى دعا إليها بوذا نفسه، واتبعها مريدوه وأتباعه الأولون الملازمون له .

أما البوذية الجديدة فهى عبارة عن تعاليم بوذا مختلطة بآراء دقيقة فى الكون ، وأفكار عن الحياة والنجاة مؤسسة على نظريات فلسفية وقياسات عقلية قد سمحت بها قرائح المتأخرين من الشراح والزعماء مما يسمح للباحث أن ينظمها فى سلك الفلسفة ويصبغها بصبغتها .

هذا ، والبوذية القديمة، وهى التى يتجلى فيها الطابع الأخلاقى والتربوى، تسمى المذهب الجنوبى ، وتنتشر فى بورما وتايلاند وسيلان .

أما البوذية الجديدة، وهى المختلطة بالآراء والنظريات الفلسفية، فتسمى المذهب الشمالى ، وتنتشر فى الصين واليابان والتبت ونيبال وإندونيسيا وأتباعها أكثر من أتباع القديمة .

ضعف البوذية فى الهند وامتصاص الهندوسية لها :

أوضحنا فيما سبق أمرين :

(أ) إهمال بوذا الحديث عن الإله وماوراء الطبيعة .

(ب) وبالتالى إهماله الكلام عن العبادة والطقوس الدينية ، وقلنا : إن إهمال بوذا لهذا الجانب الإيمانى — وهو الفطرة التى فطر الله الناس عليها — جعل أتباعه فيما بعد يحاولون جاهدين — بطريق التأويل لأقوال بوذا وفلسفة تعاليمه ، واستيراد أفكار أجنبية عنها — ملء هذا الفراغ الخطير المصادم لطبيعة الإنسان وفطرته .

وقد لجأ أتباع بوذا إلى معابد الهندوس وآلهتهم لسد هذا الفراغ فى حياتهم .

كما شرعت البوذية — فى تطورها — تصنع بعضا من التماثيل لبوذا باعتباره إلها عندهم — كما ألمحنا — قبل — وتقيمه إلى جانب الإلهة الكثيرة التى تحفل بها معابد الهندوس ، الذين يرحبون بالمزيد من الآلهة ، شأن العقل الهندى عامة .

وهكذا أخذت البوذية تتلاشى وتذوب فى الهندوسية ، والهندوسية بالتالى تمتصها ، وتحتوى أتباعها يوماً بعد يوم .

ومما أسهم فى إضعاف البوذية فى الهند خاصة اهتمامها المفرط بإصلاح الباطن وتقويم الأخلاق ، فحاربت الشهوة ، وقاومت الكبرياء والغرور ، وعملت على ضبط بل إماتة الغرائز والميول ، وتلك أمور صعبة وشاقة لا يطيقها إلا قليل من أصحاب العزائم . .

أما الهندوسية فقد قنعت بالظاهر ، واكتفت به ؛ كالغسل فى الأنهار المقدسة ، والأخذ بالطقوس والقرابين .

ومعالجة الظاهر أيسر وأسهل من معالجة الأمور الباطنية ؛ ولهذا تخلى البوذيون شيئاً فشيئاً عن صراعهم مع نفوسهم ، ومقاومتهم لنوازعهم وميولهم ، واكتفوا بقربان يقدم ، أو مظهر دينى يستمسك به كما هو الحال عند الهندوس .

أما خارج الهند فقد انتشرت البوذية انتشاراً واسعاً بعد اعتناق الملك أسوكا لها الذى كان حاكما على الأقاليم الممتدة من أفغانستان إلى مدراس . (٢٦٤ — ٢٣٧ ق م) .

حيث أعلن ذلك الملك تبنيه مذهب البوذية ، وأعلن أن فتوحاته ستكون منذ ذلك الحين فى ميادين الدين ، وخصص هبات خيرية هائلة لهيئات التعليم

البوذية ، كما أرسل البعوث الدينية إلى كشمير وسيلان وفارس وغيرهما لنشر المذهب البوذي .

وسارت البوذية بنجاح كبير في بلاد الهند وانسابت في تلك البقاع حتى أصبح أتباعها حوالى خمسمائة مليون نسمة ينتشرون في بورما وتايلاند والصين واليابان وأندونسيا ونيبال وغيرها .

واجب المسلمين تجاه البوذية في العصر الحاضر .

يقرر المطلعون على سير الأمور في كثير من تلك البلاد أن طبقة المثقفين الآن على وجـه الخصوص تنظر إلى طقوس البوذية بشيء من السخرية ، ويراها أكثرهم تاريخاً يصعب أن يعيش في الحاضر وأن يجارى مقتضيات الحياة الحديثة .

الأمر الذي يجب معه أن تتجه جل همم المؤسسات الدينية الإسلامية، إلى اهتبال هذه الفرصة وأن يخصص جانب كبير في ميزانيات الدول الإسلامية القادرة إلى تلك المناطق للتبشير بالإسلام والتعريف به وإنقاذ هؤلاء مما يعانونه من بلبلة فكرية وفراغ ديني خطير حتى لا تكون تلك البلاد لقمة سائغة لهيئات ومنظمات مسيحية بل وشيوعية تتربص لالتهام تلك الشعوب، واحتوائها، والقضاء عليها .

نموذج من التطبيق
فى
مقارنة الأديان

وفاء بما وعدنا فى نهاية الحديث عن مناهج البحث فى مقارنة الأديان من عرض نموذج لتطبيق الطريق الأول فى منـــاهج البحث فى مقارنة الأديان المتمثل فى جمل المسائل والقضايا أصولا وعناوين، ثم إيراد مذهب وموقف كل طائفة وفرقة من تلك المسائل والقضايا .

وفاء بذلك نتناول فى هذا التطبيق قضيتين كبيرتين :ـــ

أولاهما : عمود الدين وأساسه وقمته وأعنى بهـا قضية الألوهية .

والأخرى : ما لابد منه فى كل دين حتى يؤتى ثمـاره الطيبة والمرجوة وأعنى بذلك الشرعة والمنهاج .

ونلم فيما يتعلق بالقضية الأولى بالمقـــارنة بين : ديانة الأقدمين من المصريين، والمجوسية ، والهندوسية ، والبوذية، ثم نرقى إلى الأديان السماوية من اليهودية والمسيحية ، ثم الإسلام خاتم الأديان .

ونكتفى فيما يتعلق بالقضية الثانية بالمقارنة بين اليهودية والمسيحية ، ثم الإسلام مسك الختام مبينين احتواءه خير ما سبقه وتمهيده الطريق لحياة أرغد وأرقى . وعيش أفضل وأسمى ، للمؤمنين به الملتزمين بشرعه بل للإنسانية جمعاء على سواء .

(ا) فى قضية الألوهية :

الله — أولا عند قدماء المصريين :

بدا جلياً من حديثنا السابق عن عقيدة المصريين الأقدمين فى الإله مدى تقديسهم فى أول أمرهم للعديد من الآلهة حينما كان لكل مدينة إلهها الخاص بها المتجسد البادى فى صورة بعض الحيوانات .

ثم كانت عصور التوحيد المشوبة بتمثل أو حلول الإله فى بعض من الكائنات الممتازة .

ثم كان التجسد أو الحلول بعد ذلك فى الفراعنة من ملوك مصر وحدهم منذ أعلن (مينا الأول) حلول الإلهين (هوروس) و (سيت) فى جسده وأنه من أجل ذلك يشتمل على الجوهر الأساسى أو روح القدس للإلهين جميعاً .

ثانياً : عند المجوسية :

عرفنا قبل أن المجوس ثنوية قائلون بالأصلين : النور ، والظلمة، وأنهم كانوا يرون فى أول أمرهم أزلية النور وحدوث الظلمة ، ثم قالوا بأزلية الأصلين معاً ومن أجل ذلك قالوا إن المجوس ثنوية .

ثالثا : عند الهندوسية :

عرفنا أن للهندوسية تجاه الإله نزعتين : —

١ — التعدد ؛ حيث اعتبروا كل مظهر من مظاهر الطبيعة إلها قادراً على النفع والضر ، جديراً من ثم بالتقديس والعبادة .

ثم كان التوحيد الملازم للحلول أو وحدة الوجود على أيدى البراهمانية حيث اتجهوا بالتقديس إلى ما أسموه ببراهما، باعتباره الإله الواحد المتجلى فى كل مظاهر الطبيعة ، والحـــال فى كل صغيرة وكبيرة من أجزاء هذا الكون ، مما يمثل عراقة الفكر الهندى فى القول بالحلول .

رابعاً : عند البوذية :

قلنا — عند الحديث عن رأى بوذا فى الإله : إنه لم يعن بالكلام عن الإله ، وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية وما وراء الطبيعة، إذ كان يرى أن خلاص الإنسان متوقف على نفسه هو لا على غيره .

بل ربما أشعر بعض ما نقل عن بوذا بميله أحيانا إلى جانب الإنـكار أكثر من جنوحه إلى طرف الإثبات مما أدى ببعض من أتباعه إلى اتخاذه إلها حيث رأوا أنه لم يهمل الحديث عن الإله إلا لكونه إلها.

فالحاصل أن البوذية إما منكرة لوجـــود الإله ، وإما مؤلهة لبوذا الإنسان .

الله فى اليهودية :

نعنى باليهودية ما عليه اليهود من تصور للإله فى عصور انحرافهم عن دين الله ، وابتعادهم عما جاء فى التوراة المنزلة على رسول الله موسى عليه السلام هدى وموعظة للمتقين ، والداعية إلى عبادة الله الواحد ، شأنها فى ذلك شأن كل ما أنزله الله على أنبيائه ورسله.

وقد كان انحراف اليهود وضلالهم عن توحيد الله تعالى. واتجاههم إلى التجسيم والتعدد ظاهرة بارزة فى جميع مراحل تاريخهم ، بل فى أخص وأفضل تلك المراحل ؛ عندما كان نبى الله موسى عليه السلام بين ظهرانيهم

يتابع توجيهاته ، وينهض بأعباء رسالته التى كلفه الله بها ، فما إن جاء عليه السلام لميقات ربه وتكليم مولاه إياه حتى أضلهم السامرى « فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى » .

ويذكر (ول ديورانت) أن بنى اسرائيل لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش ، وأنهم ظلوا زمنا طويلا يتخذون هذا الحيون القوى آكل العشب رمزا لإلههم ، وأنهم كانوا يخلعون ملابسهم ويرقصون عراة أمام ربهم هذا .

وقد عبرت عن ذلك الاتجاه المـــادى الذى يجرى فى عروق يهود « يانيل » ابنة القائد العسكرى موشى ديان بقولها على لسان أحد أبطال روايتها « طوبى للخائفين » .

إنى قد تركت فى روســـيا كل شىء : ملابسى ، ومتاعى وأقاربى وإلهى وعثرت هنا على رب جديد ، هذا الرب هو خصب الأرض وزهر البرتقال (١) .

الله فى المسيحية :

من المعلوم بداهة لدى كل منصف .

(١) أن كتاب المسيحية المقدس وهـو الأنجيل فى جوهره النقى ونصوصه الأصلية المنزلة من السماء ينادى ــ كأى كتاب موحى به من الحق تبارك وتعالى ــ بأن الله واحد لاشريك له ، يبدو ذلك جليا فيما صدر عن نبى الله عيسى عليــــه وعلى نبينا الصلاة والسلام من دعوته إلى عبادة الله وحده .

---

(١) أديان الهند الكبرى ٢١٥

« وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار » .

(ب) — ومن المعلوم أيضاً بداهة براءة عيسى عليه السلام مما نسب إليه من دعوى الألوهية : « إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقــــول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم » الآية .

(ج) وأن ابن مريم عليه السلام لم يكن سوى رسول الله عز وجل كبقية رسل الله تعالى .

« ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » .

وفى ضوء ذلك يظهر جليا أن القول بالتثليث فى المسيحية ، واتخاذ عيسى إلها أو ابنا للإله نزل ليضحى بنفسه للتكفير عن خطيئة البشر انحراف مشين عن المسيحية الحقة ، وغريب عن كل دين نزل من لدن الواحد المتعال ، ثم هو من بعد ذلك مناف للعقل ومعطيات التفكير الصحيح .

والثقات من الباحثين يؤكدون أن المسيحية الحالية ، بهذه العناصر الأجنبية المشار إليها آنفا ، إن هى إلا من صنع هذا المسمى بشاءول أولا فى اليهودية ، ثم ببولس الرسول فى المسيحية .

ومهما يكن من أمر فقد دعا هذا الرجل إلى القول بالتثليث فى الألوهية ، فهناك الإله الأب ، والإله الابن ، والروح القدس ثالث الآلهة ، وجهد فى بث دعوته وحمل المسيحيين على هذه العقيدة ، وما زال يفتل فى الذروة والغارب

حتى أمسى ذلك الإفك المفترى ثم بإعانة قوم آخرين من بعد ذلك هو سمة المسيحية وطابعها وعقيدة المسيحيين بوجه عام .

الله فى الإسلام :

تضافرت النصوص فى الإسلام كدين سماوى منزل من لدن الحق تبارك وتعالى على

١ — تقرير وحدانية الله تعالى ؛ « قل هو الله أحد »، سورة الإخلاص ، « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » سورة البقرة « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » البقرة « إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه» يوسف « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون» الأنبياء « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو » الأنعام . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » المؤمنون .

(ب) براءته تعالى وتنزهه عن المماثلة والمشابهة : « . ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » الأنعام « لم يكن له كفوا أحد » الإخلاص .

(ج) براءته تعالى وتنزهه عن الشريك بكل صوره من الند والولد والصاحبة « فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » البقرة « أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون » يس قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين » الأنعام » « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى » غافر « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » التوبة « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله » المؤمنون» « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة » الأنعام وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » الجن

ولقد ظلت جماعة المسلمين وجمهورهم الأكبر على تلك المحجة البيضاء والاستمساك بهذه العقيدة والحفاظ عليها فى نقائها وصفائها .

والدفاع عنها أن يصيبها مثل ما أصاب قوم موسى أو قوم عيسى من التحريف والتبديل .

وكانت رعاية الله تعالى لكتابة المنزل على محمد ﷺ ، وتفضله سبحانه بحفظه :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » الحجر .

وصونه من الباطل :

« وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . » فصلت .

الأساس فى بقاء تلك الملة إلى اليوم . ثم إلى أن يرث الله الأرض وما عليها صافية النبع متلألئة المصدر ، فياضة بكل حق وخير وجمال إن شاء الله تعالى .

نتائج تلك المقارنة وحاصلها :

يلمس القارىء لتلك المقارنة المحدودة :

١ — وحدة الأديان السماوية المنزلة من لدن الحق تبارك وتعالى حسبما يظهر ذلك من خلال تلك الأديان السماوية الكبرى : اليهودية والنصرانية والإسلام فى صورتها الصافية النقية المنزلة من السماء .

فوحدانية الإله جل وعلا ، ورفض الشرك والتنديد به فى صوره كلها ، وبراءته تعالى من سمات النقص عامة هو السمة البارزة فى الأديان السماوية على سواء دون ما ارتياب .

(ب) كما يبدو له مدى انحراف الملل والنحل الأخرى عن المنهج السوى فى أخطر جانب للعقيدة ، وهو جانب الألوهية ، ثم استقامة أهل الإسلام على المحجة البيضاء .

فمصر فى الأقدمين حلولية زاعمة حلول الإله فى أجساد الملوك من فراعنتهم ، ومن ثم فهم أهل للتقديس والعبادة ، حتى ليقول فرعون لموسى عليه السلام كما ينص القرآن : « لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين »

والمجوسية بجميع فرقها وفروعها وعبر تاريخها ثنوية فى الأغلب مثبتة أصلين قديمين مدبرين للعالم هما : النور والظلمة وبالفارسية : يزدان وأهرمن

والهندوسية والفكر الهندى بعامة عريق فى القول بالحلول ووحدة الوجود ، فالموجود المطلق أو الكائن الأعلى أو (براهما) عندهم حال فى كل الكائنات صغيرها وكبيرها جمادها وحيوانها على سواء دون ما استثناء

والبوذية القديمة فى المشهور أو بعد التحريف معرضة عن الإله أو منكرة له جاحدة لوجوده ، والجديدة مؤلهة لبوذا عابدة للتماثيل والأصنام .

واليهود : مشبهة مجسمة مؤلهة للمادة مولعة بها ، عابدة للعجول والكباش .

والغالب فى المسيحية التثليث والشرك واتخاذ الصاحبة والولد لله سبحانه .

أما الإسلام ففى الصلب من نصوصه المقدسة . « قل هو الله أحد ، الله

الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ومن آياته البينات المحفوظة إلى يوم التناد : ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » وجماعة المسلمين وجمهورهم وطابعهم إلى يوم الناس هذا على تلك العقيدة الواضحة والحنيفية السمحة التى فطر الله الناس عليها :ـ التوحيد الخالص دون ماشريك، والبراءة الصريحة من التجسيم والتشبيه ، والند والنظير ، والتنزيه المطلق عن الحلول ومايجرى مجراه ويقارب معناه .

(ب) المقارنة فى الشريعة والمنهاج(١)

نقتصر فى هذه المقارنة والموازنة — حسبما نبهنا — على الديانات السماوية الكبرى اليهودية والمسيحية ، والإسلام بما يستبين معه

١ — احتواء الإسلام لخير هاتين الديانتين ثم إضافته مايبلغ بالإنسانية فى رشدها إلى الكمال والتمام .

٢ — بيان العلاقة والصلة بين الشريعة المحمدية من جانب وهاتين الشريعتين فى :

صورتهما النقية الصافية، ثم بعد أن طال الآمد وأصاب بعض جوانبهما التحريف والتبديل :

---

(١) رائدنا فى هذه المقارنة بالدرجة الأولى ماكتبه فضيلة الأستاذ العالم الدكتور محمد عبد الله دراز — رحمه الله — فى كتابه القيم (الدين) مع اضافات وتفصيلات .

الشريعة فى التوراة أوفى رسالة موسى عليه السلام :

تضمنت رسالة موسى عليه السلام أو شريعة التوارة المنزلة عليه إرساء المبادىء الأولية والأسس الخاصة بسلوك الإنسان ومسيرته فى الحياة، ومعاملاته وصلاته مع بنى جنسه ، واعتنت بذلك بما هو ضرورى لقيام المجتمعات السليمة ومواصلة مسيرتها المستقيمة .

والقرآن الكريم يشير إلى ذلك فى قوله تعالى عن التوراة : وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له . . الآية (المائدة) الأمر الذى يبرز معه بالدرجة الأولى طابع تحديد الحقوق والواجبات ، ورعاية العدل والمساواة .

الشريعة فى الإنجيل أو فى رسالة عيسى عليه السلام :

تهتم شريعة الإنجيل — بالدرجة الأولى — بالإضافة إلى ما جاء فى رسالة موسى عليه السلام — بالمبادىء الأخلاقية والآداب النفسية الرفيعة من ضبط النفس ، وفطمها عن الهوى ، وكبح جماح الجوانب المادية فى الإنسان ، : « لاتراء الناس بفعل الخير » ، « أحسن إلى من أساء إليك » أحبوا أعداءكم ، باركوا لا عنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم » وما إلى ذلك مما يتبين معه طابع التسامح والرحمة والإيثار .

ولعل القرآن الكريم يشير إلى ذلك فى قوله تعالى: لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون .

وقوله : ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله .. الآية (الحديد) .

الشريعة فى القرآن أو فى الإسلام ، رسالة محمد عليه الصلاة والسلام:

وختاما لوحى السماء تكون شريعة القرآن المنزلة على محمد عليه وعلى إخوانه الأنبياء الصلاة والسلام مؤكدة لما جاء فى شريعة التوراة والإنجيل من العدل والإحسان ومقدرة لكل منهما مكانته وصلاحيته وفضله فى مكانه وموضعه .

وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » المائدة .

ويقول : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين » (سورة الشورى) .

وإلى جانب ذلك نراها — كما يقول الدكتور محمد عبد الله دراز — وقد أضافت إليهما فصولا جديدة صاغت فيها قانون آداب اللياقة ورسمت

بها مناهج السلوك الكريم فى المجتمعات الراقية فى التحية والاستئذان والمجالسة والمخاطبة إلى غير ذلك . . كما نراه فى سورة النور والحجرات والمجادلة .

يقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون .

ويقول سبحانه : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » .. الآية . «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن » الآية .

ويقول : « يا أيها الذين آمنو ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء » الآية .

ويقول عز من قائل : « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم » الآية .

ويقول عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا » .

ويقول صاحب العزة والكبرياء: يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم » .

ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » .

ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب » .

ويقول العزيز الحكيم: « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » .

وهكذا كانت الشرائع السماوية — كما يقول بحق المرحوم الدكتور دراز — خطوات متصاعدة ولبنات متراكمة فى بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أنها أكملت البنيان وملأت ما بقى فيه من فراغ، وأنها فى الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذى يمسك أركان البناء » وصدق الله حين يقول : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » المائدة .

ويقول رسول الله ﷺ مصوراً ذلك أجمل وأحسن تصوير : مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ،

ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » (البخارى كتاب المناقب ، باب خاتم النبيين) .

ثم ننتقل بالحديث إلى وجه آخر من المقارنة هو بيان العلاقة والصلة بين الشريعة المحمدية من جانب واليهودية والمسيحية من جانب آخر من حيث التصديق والهيمنة .

وإماما فى تلك الدراسة وغيرها هو كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

فنقرأ فيه قول الحق : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » المائدة .

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه »

إذن فالإسلام بنصوصه المقدسة المحفوظة من لدن المولى جلت قدرته ينهض بأمرين جليلين : —

(ا) أحدهما — التصديق والتأييد لتلكم الديانتين فى صورتهما الصحيحة (مصدقاً لمصدقا لما بين يديه من الكتاب) والاحتفال بهما والسير معهما فى طريق الحق والسداد لصلاح البشرية وتحقيق مستقبل أفضل مصداقاً لقوله تعالى: قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » (آل عمران) .

(ب) والآخر هو الهيمنة والحراسة الأمينة الواثقة، ومن قضية تلك الحراسة .

كما يقول الدكتور دراز — « ألا يكتفى الحارس بتأييد ماخلده التاريخ فى تلك الكتب المتقدمة من حق وخير بل عليه فوق ذلك أن يحميها من الدخيل الذى عساه أن يضاف إليها بغير حق ، وأن يبرز ماتمس إليه الحاجة من الحقائق التى عساها أن تكون قد أخفيت منها .

وهكذا كان من مهمة القرآن أن ينفى عن كتب هاتين الديانتين الزوائد الدخيلة عليها الغريبة عنها متحدياً من يدعى وجود تلك الزوائد فى نصوص تلك الكتب المنزلة من السماء فيقول فى سورة آل عمران : « كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » .

كما كان مهمته أن يبين ما ينبغى تبيينه مما كتموه منها وأخفوه فيقول فى سورة الأنعام : وما قدروا الله حق قدره، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر

من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » .

وجملة القول أن علاقة الإسلام بالديانات السماوية فى صورتها الأولى علاقة تصديق وتأييد .

وأن علاقته بها فى صورتها المنظورة والمحرفة علاقة تصديق لما بقى منها سليما مصونا، وتصحيح لما طرأ عليه من العبث والإضافات أو التحريف والكتمان(١) .

ثم هناك كلمة أخيرة نختم بها هذا البحث ويستبين من خلالها مدى تعاون الإسلام وجهده المشرق فى مد يده لمصالحة أتباع كل ملة ونحلة من أجل الإسهام فى إقامة العـــدل وارساء مبادىء الحق والأمن والسلام .

إن الإسلام يمقت الاعتداء ويبغض البغى والإفساد فى الأرض ويشجب الحرب والقتال مالم تنتهك حرمات الله ويصد عن سبيله « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » ، « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

ثم هو يحث اتباعه أن يتعاونوا على البر والتقوى حتى مع مخالفيهم من أهل الكتاب ماسالموهم وأحسنوا جوارهم : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

بل هو يوصى بتلك المعاملة الطيبة الفريدة تجاه أشد المخالفين فى الدين

---

(١) انظر كتاب الدين لفضيلة الدكتور دراز .

البعيدين عن وحى السماء مالا يكاد يوجد له نظير فى دنيا الواقع ، وذلك فى قول الحق تبارك وتعالى فى سورة التوبة وإن : « أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه .

بل إن الإسلام فى رحابة صدره ، وحرصه على دعم أواصر الإنسانية وتوثيق عرى المودة ، وجهده فى تأسيس قواعد العدل والسلام لا يكتفى بأن يكفل لغير المسلمين فى بلاده حرية عقائدهم وعوائدهم وصيانة دمائهم وحماية أعراضهم وحراسة أموالهم ، بل يتجاوز ذلك إلى منحهم من الحرية والحقوق العامة والمساواة فى المعاملة مثلما يمنحه لأبنائه من المسلمين ، حيث تطالعنا تلك القاعدة العجيبة « لهم مالنا وعليهم ماعلينا » .

من ذلك كله يتبين لكل منصف رشيد مدى مايبذله الإسلام من عطاء ، وما يقدمه من جهد ومسعى من أجل التعاون على البر والتقوى ، ونشر الأمن والعدل فى مشارق الأرض ومغاربها ، وبين أهل الملل والنحل مهما ابتعدت عنه واختلفت معه ، وأعرضت عن دعوته ، ونأت بجانبها عن صراطه المستقيم .

والرسول الكريم عليه وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله تعالى وتسليماته يقدم لنـــا المثل الرائع فى تلك المعانى الرفيعة حين يقول فى صلح الحديبية : « والله لا تدعونى قريش إلى خطة توصل فيها الأرحام وتعظم فيها الحرمات إلا أعطيتهم إياها »(١) .

---

(١) المرجع السابق .

افتراءات مكذوبة على دين الله

على الرغم مما أوضحناه من استقامة الإسلام — وهو الدين الحق عند الله — على الطريقة، ومواءمته للفطر السليمة البريئة من العوج، ونقائه من الزيف والدجل وطهارته من الخبث والدخل وفتحه، ذراعيه الكريمتين للناس جميعاً، حرصا منه على سعادتهم وتوثيق عرى الحب والإخاء والتعاون بينهم، وسعيه الحثيث من أجل دعم أسباب السلام والاستقرار والأمن في الأرض وتعميق جذورها

على الرغم من كل ذلك التسامح المخلص والود الصادق فإن الحاقدين عليه، المتآمرين ضده لم يزالوا قديما وحديثا يفتلون في الذروة والغارب للنيل منه وتعويق مسيرته وطمعا في تشويه ملامحه الوضيئة وسماته المشرقة الجليلة «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون»(١) .

ونعرض هنا جانبا محدوداً وإلماعة موجزة من هذه الاتهامات المزورة والمغرضة في القديم والحديث والرد عليها وتفنيدها، والكشف عما تصدر عنه من أحقاد وبغضاء لن تزول ما استمسكنا بحقنا واعتززنا به ودافعنا عنه وقمنا دونه .

وصدق الله العظيم «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم»(٢) .

---

(١) سورة التوبة　　　(٢) سورة البقرة

طعون ومفتريات قديمة :

من الطعون التى روج لها وتشبث بها الرافضون للحق الكارهون له فى فجر الإسلام وأثناء نزول القرآن وحكاها المولى تعالى فى تنزيله الحكيم معقبا عليها بالهدم والتفنيد ناعيا على أصحابها ضلالهم وكاشفا فساد طويتهم ومبينا أن ما جاءوا به ليس إلا ظلمـا للحق وتزويرا للباطل وانحرافا عن النهج القويم ما يأتى :

١ — القول بأن نبى الإسلام ﷺ ساحر يفرق بين المرء وأهله، والولد وأبيه والرجل وذويه .

٢ — القول بأنه ﷺ مجنون فهو يهرف بما لا يعرف .

٣ — القول بأنه ﷺ كاهن .

٤ — اتهامهم للقرآن بأنه أساطير الأولين اكتتبها محمد ﷺ فهى تملى عليه بكرة وأصيلا .

وقد سجل الله تعـالى فى كتابه الكريم تلك المفتريات ثم كر عليها بالإبطال والتفنيد فقال عز من قائل فى اتهامهم ﷺ بالسحر : «أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الذين كفروا إن هذا لساحر مبين» . سورة يونس

ويقول سبحانه فى اتهامهم لرسوله الكريم بالكهانة والجنون : «فذكر فمـا أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون» سورة الطور ويقول : ولإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون وماهو إلا ذكر للعالمين» . سورة : ن

فهل يصح فى الأذهان شىء إذا وصف النـاس النذير البشير المذكر

بآيات الله ، المحذر من الجهالة والخرافة ، المرشد إلى الخير والصلاح وكريم الأخلاق، وصفوه بأنه الكاهن والمجنون أو الساحر المفسد للناس المفرق بين الأهل والعشير .

ويقول سبحانه فى اتهامهم لنبيه ﷺ بأنه شاعر : أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فانى معكم من المتربصين ، أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » .
سورة الطور

فبين سبحانه أن طغيانهم واستكبارهم أعماهم عن سواء السبيل، وأصمهم فأرداهم فى الضلال وأوقعهم فى الخبط والخلط ، فما ينطق به ﷺ مبشراً ونذيرا ما هو حتى فى النظرة الأولى بقول شاعر ! فإن الشعر معروف لديهم بحوره وضروبه ، ورجزه وقصيده ، وما يمت القرآن إلى شيء من ذلك بصله ولا نسب ، والمستقبل وحده كفيل بتكذيب تلك الدعاوى وتهافت تلك المفتريات حسب سنته سبحانه «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » وذلك قوله تعالى : « قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين، ثم يكون فصل الخطاب قوله تعالى : « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » .

ويقول المولى فى سورة الفرقان مسجلا طعن المشركين فى القرآن الكريم وأنه أساطير الأولين «وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا » .

« وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » ويقفى على ذلك بقوله : قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما » مشيرا بذلك إلى سمو رتبته وعلو مكانته وأنه فوق طاقة البشر ، وأبعد عن متناول أيديهم .

ويقول تعالى فى اتهامهم القرآن بأنه ليس من عند الله : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر » ويقول : «أم يقولون تقوله » .

ويجيب سبحانه مفندا ذلك كله فى تحد معجز وبرهان يخرس الألسنة : «لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين» ويقول : «فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » .

ويبلغ النهاية فى التحدى فيقول عز من قائل : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم إن كنتم صادقين » .

ثم يقول : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » .

طعون ومفتريات حديثة :

أعداء الإسلام الضائقون به الكارهون له الجاهلون عليه لجهلهم به فى عصورنا الحديثة كثير ، منهم مستشرقون حاقدون يتربصون به الدوائر ، ويهتبلون كل سانحة ليسددوا إليه سهام نقدهم ومعاول هدمهم ، جاهدين فى إفساد عقيدة المسلمين ، وتشكيكهم فى دينهم ، وحرمانهم من الإفادة من ثمار شريعتهم .

إما جهلا بسماحة الإسلام ونقائه ، ودعمه للحق والعدل ، ودعوته المخلصة للمساواة والإخاء والحرية ، واستمساكه فى الدعوة إلى مبادئه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن .

وإما عنتا وبغيا وحسداً من عند أنفسهم من بعـــد ما تبين لهم أنه الحق .

ومنهم أناس من أبناء جلدتنا وأهل ملة الإسلام ممن نأت بهم نشأتهم وحياتهم عن المنابع الإسلامية الصافية بقـــدر تشربهم للثقافة الغربية وإفتتانهم بها ، وانجذابهم إليهـا نتيجة طبيعية لما ألمحنا إليه من فراغهم وجدبهم العقلى والروحى من مبادىء الإسلام الرشيدة وتعاليمه الصالحة ، ودعوته الجادة المتتابعة فى الحرص على العلم والنظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، مما هو كفيل بتحقيق أسمى ما تتطلع إليه الإنسانية الواعية من السعادة والخير ، والعدل والحق والصلاح، فى جميع جوانب الحياة .

ونكتفى فى هـــذه الإلمـاعة بنموذج من تلك المفتريات والمغالطات السقيمة التى جهد فى صياغتها وترويجها مستشرقان خطيران شديدا الحقد والغيظ على الإسلام والمنتمين إليهما : جولد تسيهر، والقس لامانس .

أما أولهما فجرى الدم ، يهودى النحلة ، عريق فى عداء الإسلام ماض فى هذا السبيل طول حياته كما يقول عنه الشيخ الفاضل زاهد الكوثرى كما يقول عنه العلامة الشيخ الغزالى : « إنه من أعمدة المستشرقين ودهاتهم .

ولا شك أنه قرأ كثيراً من الأصول والمصنفات الإسلامية ،ولكنه منذ قرأ وكتب لم يحمل بين جنبيه إلا فؤادا مترعا بتكذيب الإسلام،فهو يدس إصبعه فى كل شيء ليتخذ من أى شيء دليلا على أن محمداً كاذب ، وقرآنه مفتعل ، وسنته مختلقة ، والإسلام كله منذ جاء إلى أن بلغنا مجموعة مفتريات » .

وأقول : إن فؤاد هذا المستشرق قبل أن يكون مترعا بالكذب — كما

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالى — هو مترع أكثر بالحسد والكراهية والحقد، مما يحمل صاحبه على التكذيب بالحق وتشويهه أو إخفائه بغية تضليل جماهير المسلمين، وفتنتهم عن دينهم وتشكيكهم فى عقيدتهم، فذلك ديدن آبائه من أهل الكتاب فى الماضى خاصة اليهود وطابع إخوته من المستشرقين فى الحاضر إلا من عصم الله وقليل ماهم وصدق الله العظيم حيث يقول من سورة البقرة: «ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق».

وحيث يقول فى سورة المائدة: «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا».

نموذج من طعون جولد تسيهر:

من أولى طعون هذا المستشرق مافتىء يروج له ويجهر به ويجمع مايخاله أدلة له من أن الإسلام الذى جاء به محمد — ﷺ — ليس ديناً من عند الله موحى به من السماء، وإنما هو من اختلاق محمد صاغه من ديانات سابقة، وأساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا.

يقول جولد تسيهر: فتبشير النبى العربى ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التى تأثر بها تأثراً عميقاً، والتى رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بنى وطنه ويقول أيضاً من كتابه: العقيدة والشريعة ص ٢٤: —

«إن محمداً انتخب تعاليم الإسلام من الديانات السائدة فى عصره: اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، والوثنية بعد تهذيب وصقل».

دحض هذه الفرية :

لا ريب أن القول بأن محمـــداً ﷺ قد انتخب تعاليم الإسلام من الديانات والنحل السابقة أشبه بقول القائل إن (فورد) أخذ ثروته من متسول فى إحدى كنائس أمريكا ، أو أن أرسطو أخذ أفكاره من أحد الخبازين فى أفران أثينا أو أحد الخمارين فى حاناتها كما ذكر ذلك فضيلة الأستاذ محمد الغزالى .

ذلك أن البون شاسع والفرق كبير هائل بين ما جاء به ﷺ وما كان موجوداً لدى أصحاب هذه الملل والنحل.

فالمجوسية ثنوية قائلة بالهين إله الخير وإله الشر ، وفى صلب القرآن الذى جاء به محمد ﷺ قوله تعالى فى سورة البقرة: وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » وقوله تعالى : «قل هو الله أحد».

وما جاء الإسلام إلا لهدم الوثنية والقضاء على عبادة الأصنام وها هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد أن تأدب بأدب الإسلام وتتلمذ بين يدى رسول الله محمد ﷺ يقول عند تقبيله للحجر الأسود : إنى أعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك .

واليهود قائلون كما حكى القرآن الكريم : « عزير ابن الله » وقائلون ومعهم النصارى «نحن أبناء الله وأحبـــاؤه » والنصارى من قديم قائلون كما ورد فى التنزيل : إن الله هو المسيح بن مريم ، والمسيح ابن الله » وقائلون أيضاً «إن الله ثالث ثلاثة » .

والقرآن الكريم الذى جاء به هذا النبى الكريم المفترى عليه من هذا المستشرق اليهودى يرفض ذلك كله ويمقته أشد المقت، ويؤكد كفر أصحابه

وضلالهم وتحريم الجنة عليهم، وذلك فى قوله تعالى : وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون .

وقوله تعالى : من سورة المائدة: «وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق» .

وقوله : «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم» .

وقوله أيضاً : «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم» .

ثم إن التوراة لم تعن بالحديث عن الآخرة، والقرآن زاخر بالحديث المتسع المفصل عن اليوم الآخر بل ومقدماته والبعث والحشر والسؤال والحساب والميزان والصراط والجنة والنار .

والأنجيل مشرق بالوصايا وشيء من العقائد وليس به شريعة وسنن لعيش عزيز وسلطان مكين فى هذه الحياة الدنيا .

أما القرآن والحديث النبوى فقد نظما حياة الناس فى جوانبها جميعاً ، وخاضا فى أدق التفاصيل، وصاغا للكون كله شريعة جامعة، وأسلوب تعامل فريد لم يسبقا إليه .

فكيف يقال — من بعد ذلك كله وهو قل من كثر — إن الإسلام قد سرق أو اقتبس أصوله وفروعه وعقيدته وشريعته من الآخرين، ونسبها لنفسه «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً» .

صحيح أنه قد يكون هناك — كما يقول الشيخ الغزالى — تشابه بين تعاليم

الإسلام والديانات السماوية الأولى ؛ ولاغرابة فى ذلك فالله الواحد مصدر كل هذه التعاليم .

وأصول الحق لا تختلف مع اختلاف الأعصار والأمصار ، بيد أن هذا التشابه لا يعود إلى أن الإسلام قلد غيره .

بل إلى أنها جميعاً صادرة من مشكاة واحدة ونابعة من أصل واحد .

وأما القس (لامانس) فهو ذاك المستشرق القاطن بلبنان المصر على النيل من الإسلام ونبي الإسلام فى غير هوادة ولا أدب ، والذى كتب عن بدء الإسلام أكثر من عشرة مؤلفات، وتعمق فى دراسة الإسلام من أجل النيل منه وتشويه معالمه، والتهجم على تعاليمه دون ما اكتراث بشعور المسلمين ، حتى الذين يشاركونه فى الوطن ويجاورونه فى الدار والسكن .

إنه يقول فى حسرة منبئة عن كراهيته للإسلام وضيقه به : إن القرآن ما جاء إلا ليقضى على التأثير اللطيف الذى كان الإنجيل قد أخذ يحدثه فى ابن البادية .

وقد اتجه فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه (أوربا والإسلام) إلى دراسة أفكار هذا المستشرق وعرض مفترياته وتفنيدها، والإبانة عما فيها من مغالطات ماكرة، وهو يفصح عن السبب فى اختياره لهذا المستشرق بالذات فيقول رحمه الله :

« والحق أننا قد اخترنا هذا المستشرق بالذات لأن شهرته العلمية خدعت الكثيرين فأحسنوا الثقة به ، مع أن إسنا داته الكثيرة التى يثبتها فى آخر كل صفحة إنما هى من قبيل التمويه على القارىء ، والحقيقة أنها لاقيمة لها ، ولأن هواه المتحكم واضح كل الوضوح » .

والمنهج المغرض الذى يصر عليه (لامانس) هو ما يمكن أن يسمى بمنهج العكس كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود .

ذلك أنه يأتى إلى أوثق الأخبار وأصدق الأنباء فيقلبها ويعكسها متعمداً ، وكلما كان الخبر أوثق كلما رأينا تكتل جهده ومضاعفته نشاطه واحتياله الجامح فى احتضان عكس ما جاء به هذا الخبر اتباعا لهذا المنهج، منهج العكس .

فإذا ماتواترت الأخبار مثلا باستقرار أمر ماوحقيته ، فذلك يعنى عند (لامانس) خاصة وأصحاب هذا المنهج عامة، اضطرابه وبطلانه :

وإذا ما أكدت الروايات أن فلانا قد مات فهو إذن يتمتع بالحياة والصحة .

(ولامانس) من أجل تبنيه هذا المنهج المغرض المستهدف منه تكذيب الإسلام والنيل من مبادئه يروج للفكرة القائلة: إن البشر يعملون غالبا على كتمان عيوبهم والظهور بنقيضها .

ثم هو يغفل بل ويعمى عما ينبنى على تلك المقدمة من كون القديسين أشراراً ، وجميع الأنبياء دون ما استثناء طالحون مفسدون .

وجميع الشجعان جبناء ، وهكذا عـــا يهدم أول مايهدم دين هذا المستشرق ، وكل مايحتفل به من قيم ومبادىء تدعو لها المسيحية ، دينه ودين آبائه من قبل .

ولقد كان من نتائج هذا المنهج المبنى على عكس الحقائق ، والذى اتبعه (لامانس) عن تعمد وإصرار بغية الوصول منه إلى هدم الإسلام والنيل منه ما يأتى :

١ — وصفه محمد ﷺ بعدم الشجاعة بناء على تلك الأخبار التي تفيد قيادته ﷺ للجيوش وثباته في ميادين الحرب والقتال ورباطة جاشه وشجاعة قلبه حتى ليقول فيه علي كرم الله وجهه: «إنا كنا إذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه» مستنتجا لامانس من ذلك في إطار منهجه المريض المغرض عكس ما تفيده تلك الأخبار الموثقة المتضافرة من شجاعته وثبات قلبه.

٧ — وصفه الرسول ﷺ بالرجل الأكول الشغوف بالملذات بناء على ما اشتهر من خروجه عليه الصلاة والسلام من الدنيا دون أن يشبع من خبز الشعير، ومرور الأيام الطوال وما عنده صلى الله عليه وسلم إلا التمر والماء.

(ولا مانس) يستنتج من تلك الأخبار الواردة في صيام النبي شهر رمضان ومداومته على صيام الإثنين والخميس، وإقباله على الصوم حتى يظن أنه لا يفطر، عكس ما تفيده وتؤكده من استهانته عليه الصلاة والسلام بعرض الدنيا وإعراضه عن ملذات الحياة ومتعها، ولكنه الهوى والعناد يعمي ويصم.

٣ — وفي إطار هذا المنهج المتعسف السقيم نرى القس (لامانس) ينتقد الإسلام ويعيب عليه عقيدته الصافية المشرقة المواءمة للفطر السليمة في توحيد الله وتنزيهه عن الولد والشريك، واصفا تلك البساطة والسهولة واليسر بالضيق والجمود والسذاجة، وما ذاك إلا لأن الإسلام يأبى انحراف المسيحية وشرودها عن الحق، وضلالها فيما ترددت فيه من القول: بأن الله ثالث ثلاثة، وأن الثلاثة في واحد وأن الأب غير الإبن، ومع ذلك فالإبن هو الأب، وما إلى ذلك مما تنطوي عليه المسيحية في انحرافها من تلك التناقضات التي يرفضها العقل المستقيم والطبع السليم.

فإما أن يقول الإسلام بتلك الترهات المضحكات أو يوصف بالضيق والسذاجة(١) .

وصدق الله العظيم القائل فى سورة البقرة : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى »

---

(١) انظر حديث الدكتور عبدالحليم محمود عن هذا المستشرق فى كتابه (أوربا والإسلام) وانظر فى افتراءات وأكاذيب أعداء الإسلام والمتربصين به ما كتبه فى هذا المجال ، الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الغزالى ، والأستاذ أنور الجندى، والأستاذ فريد وجدى وغيرهم كثير .

الفهرست

الموضوع	الصفحة

الخطأ والصواب

الخطأ	الصواب	الصفحة
انتحل	تنحل	٤
النجار	النشار	٧
تجاوز	تجاوزها	١٦
الوجد	الوجه	٢٠
والكثير	والكثيرة	٢٢
قلة	مسلة	٢٧
والحجر	وبجر	٢٧
وأماليت	وأمليت	٢٨
وأسليت له	وأمليت له	٢٨
الخالق	الحلق	٤٠
يسيره	يسير	٤٢
وهم	وهمم	٤٦
الشعوت	الشعوب	٤٧
لحاجة	الحاجة	٥٢
فاقتحها	فاقتحامها	٥٤
لم على ديانة الإنسان الأول يقم	لم يقم	٥٤
سفنا	سننا	٥٥
بالوية	بأولوية	٥٥
أرسطوا	أرسطو	٦١
بينا	مبينا	٦٢
أوراحنا	أرواحنا	٦٦

الخطأ	الصواب	الصفحة
بالعقل	بالفعل	٦٦
بالقسيم	بالتقسيم	٦٩
والنمل	والنحل	٦٩
جهمية	الجهمية	٧١
المعرفة	والمعرفة	٨١
العاضين	العاض	٨٧
تداعى	تدعى	٨٧
أنى	أدنى	١٠٧
أنزل إليك	أنزل الله إليك	١١٢
والاهتداء	الاهتداء	١١٣
فقدأ	فقد	١١٧
يسوا	يسووا	١١٨
صاعقة عاد	صاعقة مثل صاعقة عاد	١٢٠
اليه فيكون	إليه ملك فيكون	١٢٠
فايلبسون	مايلبسون	١٢١
تعيين	وتعيين	١٣٦
الريصانية	الديصانيه	١٤١
الهندسية	الهندوسية	١٤١
والناسخ	والتناسخ	١٨٩
ومكانها	وإمكاناتها	١٩٢


Bibliotheca Alexandrina
05983387